

أغسطس 2015

408

الوردة الزرقاء

رواية

تأليف: بينلوبي فيتزجرالد

ترجمة: د. علي محمد سليمان

مراجعة: د. علي العنزي

روائية وشاعرة وباحثة
إنجليزية.. ولدت في العام
1916 بمقاطعة لينكونشاير
وعاشت 84 سنة.. تحولت
إلى نجمة في عالم الأدب
والثقافة وهي في الـ 60 من
عمرها، وذلك عندما حازت في
العام 1979، جائزة البوكر
عن روايتها الشهيرة «بعيداً
عن الشاطئ».. اهتمت
بالسرد التاريخي، وصدرت
أولى رواياتها بعنوان «براءة»
في العام 1986، ثم تلتها
بـ «بداية الربيع»، فـ «بوابة
الملائكة».
وتعتبر «الوردة الزرقاء» أهم
رواياتها التاريخية وآخر ما
كتبت.

الوردة الزرقاء



الوردة الزرقاء

رواية

تـــألـــيـــف: بينلوبي فيتزجرالد

تـــرجـــمـــة: د. علي محمد سليمان

مـــراجـــعـــة: د. علي العنزي



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

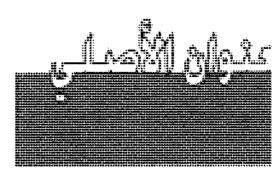
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-460-3

رقم الإيداع: 2015/490

• الوردة الزرقاء

رواية



The Blue Flower

Penelope Fitzgerald

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب 2015م

إبداعات عالمية - العدد 408

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)



المقدمة

د.علي سليمان(*)

صنفت الروائية الإنجليزية بينلوبي فيتزجرالد كأحد كتاب السيرة البارعين بعد أن كتبت سيرة حياة الفنان إدوارد بيرن جون وسيرة الشاعر تشارلوت موو وكذلك «إخوة كنوكس» سيرة أبيها إدموند كنوكس. وتميز إنتاج بينلوبي فيتزجرالد الأدبي بتنوع في الأسلوب الفني وفي المواضيع، وقد حصلت أعمالها الروائية على اهتمام نقدي كبير في الصحافة الثقافية في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وساهم نشاطها الكبير بالحياة الثقافية في تسليط الأضواء على حياتها المهنية ومؤلفاتها. وكان من الملفت في مسيرتها الأدبية تلك الكثافة والغزارة في الإنتاج، مما جعلها وهي الكاتبة التي بدأت النشر في مرحلة متقدمة من عمرها ظاهرة فريدة في الأدب البريطاني.

وكان العديد من النقاد قد رصدوا خاصية تشترك فيها جميع روايات بينلوبي فيتزجرالد تقريباً، تتعلق بالإحساس بالفقدان والخسارة، حيث يسيطر هذا الإحساس على السرد الروائي لدى بينلوبي فيتزجرالد ويتضح جلياً في مصائر شخصياتها التي تعيش على حدود واهية بين التراجيديا والكوميديا في مواجهة أقدار حياة لا تستطيع الإفلات من تجربة الخسارة بينما تبقى منغمسة إلى أقصاها في نوازع الشوق والحب ورغبة الإنسان في التحقق.

(*) سورية – قسم النقد والأدب المسرحي – المعهد العالي للفنون المسرحية

ولعل في البدايات المتأخرة للكاتبة بينلوبي فيتزجرالد التي تحولت إلى نجمة في عالم الأدب والثقافة بعد الستين من عمرها سبباً يساعد في تفسير ذلك الشغف بخسارات الإنسان في حياته؛ تقول الكاتبة في أحد تعليقاتها: «أشعر بجاذبية كبيرة تجاه البشر الذين ولدوا مهزومين وأولئك الذين يخسرون في حيواتهم». ويبدو التقاطع واضحاً بين هذه الحساسية في رواياتها وتجربتها الشخصية في حياتها التي عاصرت تحولات عاصفة وعنيفة في تاريخ أوروبا الحديث كالحرب العالمية الثانية التي شارك فيها زوجها كضابط في القوات البريطانية العاملة في أفريقيا. ورغم نجاة زوجها من الحرب لكن حياة الكاتبة دخلت في مسارات صعبة وقاسية، حيث عانت من ضائقة مالية وعاشت أسرتها تجربة التشرد في ستينيات القرن الماضي مما دفعها للعمل في مهن متعددة بعد فقدان زوجها عمله.

تهتم فيتزجرالد بالتفاصيل في رسم وتلوين عالمها الروائي وتشير أعمالها إلى شغف كبير بالبحث والتقصي وجمع المعلومات من المصادر التاريخية والعلمية حول كل ما يتعلق برواياتها حتى ليبدو عالمها كنسيج ثري من المعلومات والتفاصيل، لكن ما يميز قدرتها الفائقة على توظيف المعلومات التاريخية في بنية الرواية هو ذلك الاقتصاد في الشكل الفني؛ اقتصاد يوازن بين التخييل من جهة وغزارة المعلومات والوثائق من جهة أخرى فلا يقع السرد هنا في مطب التوثيق والمباشرة.

في روايتها بداية الربيع، التي تجري أحداثها في روسيا القيصرية قبل الثورة يتجلى ذلك الاقتصاد الفني في التوازن

الدقيق بين حضور المخيلة وثرائها في خلق عوالم الشخصيات والأمكنة الروائية من جهة وتوظيف كم كبير من التفاصيل والمعلومات والوثائق التاريخية من جهة أخرى، وقد بدت هذه الرواية حالة استثنائية بالنسبة للنقاد من حيث قدرة الكاتبة على خلق عوالم روائية غنية تنتمي إلى مرجعيات جغرافية وتاريخية وثقافية بعيدة عن بيئة وتجربة الكاتبة.

كانت هذه القدرة التخييلية والحرفية العالية في توظيف الوثائقي في السرد الروائي قد وصلت إلى ذروة تطورها في رواية فيتزجرالد الراهنة الوردة الزرقاء، وستكون موضوع بحث للعديد من الدراسات حول المسيرة الأدبية لهذه الكاتبة حيث كثيراً ما تقارن حساسيتها الفنية وحرفيتها بالروائية الإنجليزية جين أوستن (1775-1817) مع فارق أن فيتزجرالد قد توفرت لها باختلاف ظروف العصر الكثير من خبرات ومصادر البحث والتوثيق التي لم تتوفر لأوستن.

تحتل الرواية التاريخية الجانب الأكبر من مسيرة فيتزجرالد الأدبية؛ حيث قدمت أعمالها الأولى في أدب السيرة بشخصيتها المميزة وأسلوبها الفني، لكن اسمها كروائية كبيرة ارتبط بما كتبته من روايات تاريخية عالجت مواضيع وطرحت أسئلة مهمة على امتداد الجغرافيا الأوروبية في مراحل تاريخية مختلفة.

صدرت أولى روايات فيتزجرالد التاريخية بعنوان براءة في العام 1986، وتجري أحداث الرواية في مدينة فلورنسا الإيطالية، راوية قصة حب بين ابنة عائلة أرستقراطية مفلسة

وطبيب إيطالي ولهان، فيما يظهر المفكر الشهير غرامشي كإحدى الشخصيات في الرواية.

وصدرت الرواية التاريخية الثانية في العام 1988 بعنوان بداية الربيع، وهي تعالج حياة تاجر بريطاني في موسكو قبيل الثورة الروسية، أما روايتها التاريخية الثالثة فكانت بوابة الملائكة التي صدرت في العام 1990 وتجري أحداثها في العام 1912 في مدينة كامبردج البريطانية، ساردة سيرة عالم فيزياء شاب يقع في حب ممرضة بعد إصابته بحادث على دراجته الهوائية.

تعتبر رواية الزهرة الزرقاء أهم الروايات التاريخية، وهي آخر ما كتبته بينلوبي فيتزجرالد؛ حيث تجتمع في هذه الرواية مهارات الكاتبة وحرفيتها في البحث والتقصي عن المادة الروائية مع قدرة تخييلية عالية في صياغة العوالم والشخصيات مما أنتج سرداً مكثفاً يجمع بين البساطة والثراء.

ينتقل السرد بحرية بين مستويات متعددة وتعمل اللغة بتلقائية على نقل خطاب الشخصيات في سياق الوصف والروي، فتتقاطع الحوارات مع السرد دون مقدمات، وتحتل هذه الحوارات مساحتها في النص بشكل يعلن نفسه بشيء من النرجسية، ويبدو ذلك واضحاً في تعمد الكاتبة استخدام علامات التنصيص أو الاقتباس لتمييز خطاب الشخصية المتكلمة كصوت مستقل عن سياقه. وفي استخدامها المكثف لعلامات التنصيص تعطي الكاتبة شكلاً لنصها يحتفي بتعدد الأصوات ويعبر عن العلاقات المتشابكة فيما بينها. تتكرر هذه الظاهرة على مستوى آخر من لغة الرواية هو التجاور والتكامل بين الوثائقي والتخييلي. فأمام

حشد من الشخصيات التاريخية المعروفة لا تستسلم مخيلة الكاتبة لسلطة الوثيقة أو للمرجعية التاريخية بل توظفهما في سياق سردها وتعيد كتابتهما في عوالم تفيض بالحياة والأسرار والتوق الإنساني فيتحول التاريخي والوثائقي إلى كائنات حية.

إن حيوية الوثيقة ككائن روائي يتفاعل مع السرد تنتج في رواية الوردة الزرقاء عن قدرة الكاتبة على ربط عوالم الشخصيات ونوازعها بالسياق التاريخي للأحداث من خلال رؤية عميقة لدور الإنسان الفرد في كتابة التاريخ. لكن فيتزجرالد رغم شغفها بالتاريخي لا تكتب رواية تاريخية بالمعنى التقليدي للكلمة بل تخلق جدلاً بين الإنساني الفردي والتاريخي الجمعي لترسم عوالم غنية وتطرح أسئلة إنسانية عابرة للعصور والجغرافيات. وتبدو الشخصيات في هذا السياق كائنات مشغولة بتفاصيل بيئتها الطبيعية ومحيطها الاجتماعي في زمن محدد لا يفتأ السرد في كل لحظة عن تذكيرنا به، لكنها مع ذلك تحاورنا في كل لحظة وكأننا نشترك معها في كتابة جديدة للتاريخ، تاريخها وتاريخنا بما هو ذاكرة حية تتغير وتنمو من خلال فعل المشاركة هذا.

تروي الوردة الزرقاء قصة حياة شاعر الرومانسية الألماني فريدريك فون هاردنبرغ المعروف باسم نوفاليس. ولد هذا الشاعر في مقاطعة ساكسوني الألمانية عام 1772 وتوفي عام 1801. ونوفاليس رغم حياته القصيرة كان شاعراً وفيلسوفاً وعالماً ساهم في إبداع الحساسية الأدبية الجديدة في ألمانيا من خلال ريادته للرومانسية كتيار أدبي وكرؤية للعالم والإنسان.

كتب فريدريك فون هاردنبرغ الذي يرد اسمه في الرواية كفريتز بغزارة في معظم حقول المعرفة والكتابة الأدبية من شعر ونثر وفلسفة وعلوم. تميزت كتاباته بتنوع موسوعي، وقد جمعها في صيغة ملاحظات ونصوص في مجلد تحت عنوان «ملاحظات من أجل موسوعة رومانسية». وتنطلق رؤية نوفاليس للإبداع من ضرورة ربط الشعر بالعلوم والفلسفة ومن كون هذا الإبداع في جوهره يسعى للمعرفة ولتربية الإنسان من أجل الهدف الأسمى وهو تقدم العالم وخير الإنسانية. ويتجلى مستقبل الإنسانية وفق رؤية نوفاليس في استعادة ما يسميه العصر الذهبي، أي الزمن الذي يتحقق فيه الانسجام التام بين الإنسان والطبيعة.

استوحت الكاتبة عنوان الرواية من دلالة خاصة في الثقافة الألمانية تحولت بعد كتابة نوفاليس لعمله غير المكتمل «الوردة الزرقاء» إلى رمز تطور فيما بعد ليعبر عن معاني الحب والجمال والرغبة وسعي الإنسان للوصول إلى المطلق والمثالي.

تعرض رواية بينلوبي فيتزجرالد لحكاية هذا الرمز وكيف تطور من فكرة لدى بطل الرواية الشاب فريتز إلى أيقونة تصور شغف الإنسان بالحب والجمال وسعيه التراجيدي لبلوغه من خلال علاقة النص الذي يكتبه بطل الرواية بسيرورة حياته وعلاقته العاطفية بصوفي، هذه العلاقة التي تتشابك فيها رؤية الشاعر الرومانسية للعالم مع أقدار ومصائر قاسية تودي بحيوات الشخصيات إلى نهايات مؤلمة دون أن يخفف ذلك من بريق التوق الإنساني إلى ما هو سامٍ وجميل في الكون. ولعل هذا التناقض بين الواقعي والمثالي في تراجيديته هو ما يفتح في

الرواية مسارات لاكتشاف تلك الأسرار الدفينة في تكوين البشر وهم يكافحون من أجل البقاء في عالم لا يتطابق مع ما تتوق إليه أرواحهم. وهكذا فإن الشخصيات في الوردة الزرقاء كائنات فردية تتجاوز مرجعيتها التاريخية لتكون تعبيراً عن التجربة الإنسانية في مطلقها.

تبدو مفردات البيئة في هذه الرواية غنية وتشير إلى قدرة استثنائية لدى الكاتبة على البحث والتقصي وجمع المعلومات لتصوير الحياة الإنسانية والاجتماعية في ألمانيا القرن الثامن عشر بمفردات تنهل من الواقع كل ما يمكن من تفاصيل وألوان وخصوصيات لتقدم عالماً يضج بالحيوية والتناقضات والتنوع ويعيد كتابة التاريخ من وجهة نظر إنسانية.

لا بد من الإشارة في هذا السياق إلى ما واجهته ترجمة هذه الرواية إلى العربية من تحديات نتجت عن الخصوصية الفنية والتاريخية للنص، وأول تلك التحديات توظيف الرواية لنصوص وتعبيرات من اللغة الألمانية الكلاسيكية، فالنص الإنجليزي يحتوي على العديد من التسميات والجمل والنصوص في أصلها الألماني دون ترجمة، وقد تعمدت الكاتبة هذه الثنائية اللغوية كأسلوب يبرز الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والطبيعية للمجتمع الألماني.

ويتجلى التحدي الثاني في أن الرواية نقلت مقبوسات ووثائق من مراجع علمية وفلسفية تخصصية في التراث الألماني الكلاسيكي؛ مما تطلب جهوداً خاصة من المترجم لصياغة النص بلغة عربية أمينة للأصل لكنها واضحة بالنسبة للقارئ العربي

ومنسجمة مع لغة الرواية. ويضاف إلى ما سبق أسلوب الكاتبة الشغوف بتصوير البيئة المحلية بكل مفرداتها في الطبيعة والمجتمع مما تطلب جهداً إضافياً في البحث في تاريخ المجتمع الألماني وثقافته عن المعنى الذي ينقل روح النص ويبقى أميناً لشكله في الوقت ذاته. كل ذلك أضاف إلى عمل المترجم متعة ومعرفة في بحثه عن حلول لكثير من التحديات والصعوبات التي واجهت إنجاز هذه الترجمة وتقديمها للقارئ العربي.

توطئة

د.علي العنزي (*)

منذ أن حازت في العام 1979، على جائزة البوكر عن روايتها الشهيرة Offshore، صُنفت منزلة الروائية الإنجليزية بينلوبي فيتزجرالد (Penelope - Fitzgerald 1916 - 2000) في العام 2008، في مصاف «أهم 50 كاتباً بريطانياً للرواية، خلال القرن 20، وتحديداً منذ العام 1945».

وفيتزجرالد، التي هي شاعرة، وباحثة، ومؤرخة إنجليزية معروفة بين الأوساط الثقافية في المملكة المتحدة، سليلة عائلة لندنية لاهوتية - فنية في الوقت عينه؛ نعني أن والديها يتحدران من صلب أساقفة مسيحيين، فيما تجمعها روابط أسرية وثيقة بأدباء وفنانين معروفين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، مؤلف روايات الجريمة Ronald Knox، والسينمائي Dillwyn Knox، والروائي Winifred Peck.

كانت فيتزجرالد طالبة في جامعة إنجليزية مرموقة وغنية عن البيان وهي جامعة أكسفورد، حيث تخرجت في العام 1938، وعُرفت في شبابها بالانفتاح الذهني، والقدرة الأكاديمية، والثقافة والوعي النسبي، والفضول العلمي، مشتغلة في بداية حياتها العملية محررة في قناة الـ BBC، ثم محررة صحافية في مجلة World Review، حيث ساهمت من خلالها في أبواب الأدب والموسيقى والنحت.

(*) الكويت – قسم النقد والأدب المسرحي – المعهد العالي للفنون المسرحية

ولما اغتنت تجربتها ونضجت، بادرت فيتزجرالد بتدشين مسيرتها الأدبية الأولى في العام 1975، وكانت حينها في سن الـ 58، وذلك عندما نشرت سيرة ذاتية ناجحة لفنان تشكيلي بريطاني، يدعى (Edward Burne-Jones 1833 - 1898).

ولا غرو في أن نجاح عملها الأدبي الأول، كان قد شجعها على اتباع تجربتها الأولى، بعد عامين، بتجربة جديدة كان عنوانها The Knox Brothers، مسلطة الضوء، على المسكوت عنه في الحياة الخاصة «الحقيقية» لوالديها وأعمامها، فيما يشبه السيرة الذاتية العائلية المشتركة، من دون أن تذكر نفسها بالاسم، كسمة تخييلية ذاتية.

في وقت لاحق من العام 1977، نشرت فيتزجرالد روايتها الأولى، بعنوان The Golden Child، المستوحاة من الهوس المعروف بمقتل توت عنخ آمون، وقد كتبت الرواية للتسرية عن زوجها المحارب المخضرم في الحرب العالمية الأولى Desmond Fitzgerald الذي أصيب بمرض عضال، وتوفي في العام 1976؛ لقد كان زواجها من حبيبها ديزموند، الذي عاشت معه حباً جامعياً جارفاً، زواجا غير متكافئ وجاهة ورزانة بكل المقاييس، أبطاله الفرح والندم والرضاء، حيث حرم إدمانه على الكحول أسرتها (ابنها Valpy، وابنتيها Tina و Maria) من رغد العيش، وقادهما في فترات متقطعة إلى ما دون خط الفقر.

وعلى مدى السنوات الخمس المقبلة نشرت فيتزجرالد أربع روايات، ارتبطت جميعها مع تجربتها الخاصة بطريقة ما؛ بدأتها برواية (The Bookshop 1978)، والتي أدرجت

ضمن القائمة القصيرة المرشحة لنيل جائزة البوكر المرموقة، في العام ذاته، وفي نسخة العام 1979 فازت فيتزجرالد بالبوكر عن رواية Offshore كما أسلفنا، والتي تدور أحداثها في منزل عائم في إنجلترا خلال العام 1961، علما بأن تجربة تدريس الطلاب في منزل عائم، تخللت الحياة العملية لفيتزجرالد لردح من الزمان، قبل أن يصيبها النجاح الأدبي، وتجني ثمار الشهرة.

اهتمت فيتزجرالد بكتابة الرواية التاريخية في مرحلة لاحقة من عمرها، مستهلة سردياتها التاريخية، برواية (Innocence 1986) التي تدور أحداثها في خمسينيات القرن العشرين بمدينة فلورنسا، ويظهر ضمن شخصياتها المُنظر والسياسي الماركسي (Antonio Gramsci 1891 - 1939)، في محاولة فيتزجرالدية لما يمكن اعتباره، كتابة جديدة للتاريخ الأوروبي الذي لم يكتبه المؤرخون المعاصرون، معطية الأحداث الفلورانسية، قراءة مجتمعية جديدة، تصحح ما جاء به المؤرخون الأوربيون، وتسائل الأحداث الواقعية من دون حذف أو إضافة.

فيتزجرالد ذاتها وفرت لنا منظوراً ملائماً لمناقشة موضوع لجوئها إلى التاريخ، مبتعدة عن الامتياح من التابوهات الشخصية التقليدية وتفرعاتها التي لا تنتهي، قائلة بعد أن اهتدت إلى كتابة الروايات التاريخية: «لقد انتهى زمن الكتابة عن الأشياء الخاصة في حياتي»، وسواء نظرنا إلى لجوئها إلى التاريخ باعتبارها حالة ثقافية أو إنتاج ثقافي جديد، أو ارتأيناها تلك القوة التي ستساعد على التحرر من قيود

المؤسسات التأريخية التقليدية، فإننا في كلتا الحالتين نجد أنفسنا منغمسين في نتائج هذا التطور في كتابتها، وهي التي لم تتوقف عن الامتياح من عوالم التاريخ حتى آخر يوم في حياتها، مُتبعة تجربتها الأولى برواية The Beginning of Spring الصادرة في العام (1988)، والتي تتناول من منظور رجل أعمال بريطاني نشأ في موسكو، سنوات التمهيد لثورة 1917 الروسية، في موسكو 1913.

والتحقيق، أن فيتزجرالد تواصل في روايتها اللاحقة (Angels 1990) مغامرتها الروائية، ساردة بين دفتيها، حكاية طبيب شاب عاش في كامبريدج، يقع في العام 1912، في حب ممرضة شابة، عقب حادث تصادم بين دراجتين هوائيتين تعرضا له، وتحاول فيتزجرالد في هذه الرواية أو تلك من الروايات التاريخية، إنماء خطاب نيجاتيف، أو لنقل خطاب مجتمعي، يؤرخ للماضي بطريقته الخاصة، في مواجهة أية خطابات تاريخية خاصة؛ إن للرواية التاريخية في عُرف فيتزجرالد، سيطرة تامة على الفضاء التاريخي العام لفترة السرد؛ ثم انخراط تام في منازلة تاريخية مع النخب التي مأسست سرد التاريخ.

أما بالنسبة لآخر أعمال فيتزجرالد، ومحور احتفائنا بهذا الإصدار، وهي رواية الوردة الزرقاء The Blue Flower، فقد نشرتها المؤلفة عبر دار Flamingo في العام 1995، وأعاد الناشر طباعتها عدة مرات، ومنذ ذلك الحين، والرواية مصنفة باعتبارها واحدة من «أفضل عشر روايات تاريخية»

في زمن الجزيرة البريطانية، حسبما وصفتها صحيفة The Observer البريطانية في العام 2012، بعد أن كانت فيتزجرالد، قد بدأت العمل على تحفتها الأهم في العام 1991، واستغرقت أربع سنوات في كتابتها، حيث نشرتها في العام 1995، عندما كان عمرها يناهز الـ 78 عاما.

ومن هنا، فقد ابتدعت فيتزجرالد أحداث الوردة الزرقاء وشخصياتها من بنات أفكارها، مشيرة في مقدمة روايتها إلى أنه بعيداً عن انحيازات المكان والظرف والانتماء، فإن «جميع الأسماء والشخصيات والأماكن، والوقائع، انحدرت إما من وحي خيال الكاتبة، وإما أنها استخدمتها بطريقة وهمية» ككتابة ذاتية مأزومة، مؤكدة في مقدمة الرواية «أن أي تشابه تتضمنه الرواية مع أشخاص فعليين -أحياء أو أموات- أو حتى أحداث فعلية، ما هو إلا من قبيل المصادفة البحتة». لكن الرواية تتحدث تاريخياً على الرغم مما سبق، وبشكل جلي وغير مضمر، عن شاعر القرن الـ 18 الفيلسوف الألماني نوفاليس Novalis، وحبه الجنوني لمن صورتها فيتزجرالد صبية صغيرة من أسرة عادية إلى حد ما، تبلغ من العمر 12 عاماً. كما تظهر في الرواية شخصيات تاريخية أخرى، كان في مقدمها الشاعر الألماني جوته، والفيلسوف كارل ويلهلم، مستمزجة فيتزجيرالد الماضي بالواقع الذي يمكننا بالكاد الإحساس فيه، ومتتبعة السنوات الدراماتيكية الأولى من حياة شاب ألماني، يصبح لاحقاً الشاعر الرومانسي والفيلسوف الكبير نوفاليس.

وفي نداء غير منطوق، يستحق الظفر بكل الدعم من وجهة نظرها، حول الحرية الاجتماعية والجنسية، التي يكون الفرد فيها مسيطراً على ذاته، تصور الوردة الزرقاء أيضاً أُسر، وتاريخ، وأفكار المحافظات الألمانية في أواخر القرن الـ 18، في الفترة التي كان فيها نوفاليس شاباً، وذلك في ذات الزمان الذي راحت تشيع فيه المدرسة الرومانسية الناشئة، ولما كان ذلك، فإن أحداث الوردة الزرقاء تدور عن الشباب، والأمل، والمثالية، والخيال، وتبدو قصتها مليئة بالآلام.

وعلى الرغم من اتسام روح الوردة الزرقاء بالدعابة في كثير من الأحيان، فإنها مليئة بمشاعر الخيبة، والأمل والخسران؛ حيث تمتاز الرواية بأنها تتعاطى مع مواضيع جادة، بشكل ساخر، مع الاحتفاظ بجانب الجدية. وتقول الناقدة البريطانية Lucy Hughes-Hallet في هذا السياق: «إن فيتزجرالد كاتبة ذكية، بشكل رائع، وغير قابل للخطأ. لكن سخريتها المتسمة بالواقعية أيضاً تحالفت مع موهبة عظيمة من التعاطف الوجداني».

إن فيتزجرالد تبقي على النمط جاداً في الموضوع، لكنها تصور الأحداث أحياناً بطريقة هزلية، بما فيها المروعة منها كما أسلفنا؛ إنها تخوض تجربة مغايرة هنا في ألمانيا أواخر القرن الـ18، ففريتز العاطفي، المثالي والمتألق يحتاج إلى الإذن من والده ليعلن خطبته على صوفي ذات الاثني عشر ربيعاً، واصفاً إياها بـ «قلب قلبه» و«فلسفته الحقيقية»؛ إنها خطبة تسلي، تدهش وتزعج عائلته وأصدقاءه، فكيف يمكن أن تكون

كذلك؟ إنها تتناول في الوقت عينه تناولاً تاماً الحياة الأسرية لفريتز، ابتداء من عمله جابياً للضرائب لمناجم الملح، ثم تعليمه الفلسفي، فقصة حبه للصبية التي أحب بصمت، وانتهاء بعاطفته الرومانسية الجياشة لصوفي، التي تموت ميتة قاسية.

وتنتقد الرواية، التي نالت شهادة إعجاب دولية حينما فازت بجائزة النقاد الأميركيين، مجتمع شرطة الآداب الذي ساد في أوروبا بالقرن الـ18، ومدّعي الدفاع عن المجتمع والمحافظة عليه، مخلّفين من وجهة نظرها، وضعاً اجتماعياً مشوهاً يحاول مطاردة مشاعر الإنسان، وكبت إشراقة الحب فيه. ويأتي السرد في صنعة كتابية، وقالب أدبي خال من الوعظية، ومليء بالحذق السرداني التصويري والمهارة في التركيب والتقديم ومناورة التأخير.

وربما كمنت عبقرية فيتزجرالد في أنها كتبت التاريخ في الوردة الزرقاء، كعمل إبداعي متمرد على كل القواعد، ومن دون أولويات وأركان أدبية سائدة أياً كانت؛ منجلياً الشعور السابق بين المكامن الذاتية لأحداث هذه الرواية، وتلك الشخصيات البطلة المرددة لنداء الحرية والانعتاق، في مواجهة خصمائهم الضديين، الذين يشعون لا موضوعية. وتقدم فيتزجرالد حكايتها وفق منظور الحد الأدنى من التفسير؛ إذ إنها تجبرنا على متابعة الأحداث بشغف، منذ اللحظة الأولى التي يسرد فيها شابان يسيران في باحة منزل العائلة همومهما في يوم الغسيل (اليوم الأسبوعي المخصص لغسيل أسرة الملابس والأغطية في المجتمع البريطاني)، على وقع تساقط الأغطية والملابس الخاصة بالأسرة وتطايرها في الهواء الطلق.

ولكل ما سبق وأكثر، فقد فازت الوردة الزرقاء كما بينا، في العام 1997، بالجائزة الأميركية لنقاد الكتاب الوطني National Book Critics Circle Award، والذين اعتبروها تحفة أعمال فيتزجرالد، لدرجة أنه تم تكييفها درامياً في العام 1999 لراديو BBC، بفضل مهارتها في مقارعة التاريخ، وتحديها له وتسللها إلى قلاعه، مولدة ومانحة إكسير الحياة للرواية، من وحي إبداع القلم.

وهكذا إذن، فإن الرواية رومانسية بامتياز تجمع بين الشاعر نوفاليس وخطيبته صوفي، وتدور أحداثها في العام 1794، جامعةً فريتز، صاحب الشخصية العاطفية المثالية، والساعي للحصول على إذن من والده ليعلن خطبته بصوفي، التي شغفته حباً، رغم أنها بالغة من العمر فقط اثني عشر عاماً. وفيما تعبر عائلة فريتز وأصدقاؤه عن ذهولهم من خطبته، فإن التاريخ يكون في هذا النوع من الروايات في حالة انصهار كامل مع العمل الأدبي، وذلك في مواجهات مجموعة من السلوكيات المتبناة في المجتمع، وكأننا برواية البؤساء التي تسلط الضوء على كآبة الواقع، في سردانية ذائعة الصيت.

إن المناظر الطبيعية من حياة فريتز اليومية تطبع بشكل واضح على هذه الرواية، كما أن البناء السردي مهم للغاية بالنسبة لهذه الرواية، من حيث طريقة بنائها على هيئة مشاهد قصيرة، وكأننا في حضرة لحظات أو حلم.. وإنه بتعقب السنوات الدراماتيكية الأولى للرجل الشاب الذي أصبح فيما

بعد الشاعر الرومانسي العظيم والفيلسوف نوفاليس، فإن الوردة الزرقاء عمل فني رائع من الإبداع، يستحضر الماضي مع الحقيقة التي نستطيع تحسسها.

لقد نالت فيتزجرالد في العام 1999 شرف منحها جائزة الـ Golden PEN Award نظير «خدماتها المتميزة مدى الحياة للأدب»، وبعد أن فازت الرواية بجائزة النقاد الأميركيين، ونيلها شهادة إعجاب دولية، كان الكل بانتظار المزيد من مدادها، لكنها توفيت في العام 2000، عن عمر يناهز الـ 83.

قيل عن الرواية

1 - «رواية ساحرة عن القلب والجسد والعقل. ممتعة بشكل متواصل ودائماً مستغرقة بحشد من الشخصيات المحببة والمسلية. هذه الرواية جوهرة». **كارمن كاليل، ديلي تلغراف**

2 - «تحفة فنية. كيف تمكنت من صنعها؟». أ. س. بيات

3 - «إنها رواية فكاهية وحكيمة». **لوسي هوفز-هوليت، صندي تايمز**

4 - «رواية يتحدث فيها غير المحكي، إنها تحفة فنية». **كانديا ماكويليام، الغارديان.**

يوم الغسيل

(1)

لــم يكن جاكوب ديتمالر من الغباء بحيث لا ينتبه إلى أنه وصل إلى بيت صديقه في يوم الغسيل (اليوم الأسبوعي المخصص لغسيل أســرّة الملابس والأغطية)، يوم لم يكن من المناسب زيارة أي مكان فيه، خصوصاً هذا البيت الواسع، ثالث أكبر المنازل في ويسنفلس.

كانت والدة ديتمالر تشــرف على الغســيل ثــلاث مرات في الســنة، لذلك كان لــدى من في البيت ما يكفــي من البياضات والألبسة الداخلية البيضاء لأربعة أشهر فقط.

هو نفســه لم يكن لديه أكثر من تســعة وثمانين قميصاً، لكن هنا في بيت هاردنبرغ في كلوستر غاس، كانت الأكوام القذرة من الشراشف وأغطية الوســائد والأحشية والصدريات والقمصان والســراويل الداخلية التي تتساقط من النوافذ العلوية إلى فناء المنــزل، حيث يقوم خدم متجهمون من الرجال والنســاء بجمعها في سلال عملاقة، إذ بدا له واضحاً أنهم كانوا يقومون بالغسيل مرة واحدة فقط في السنة.

لم ينجلِ له كل هذا، كدليل وافر على الثراء، لكنه كان بالتأكيد مؤشراً إلى حالة من الاستقرار أو الاكتفاء، وإلى أنها أيضاً عائلة كبيرة.

كانت الملابس الداخلية للأطفال والبالغين والقياسات الأكبر أيضاً ترفرف في وضح النهار وكأن الأطفال أنفسهم يحلقون معها.

«أخشى يا فريتز أنك أتيت بي إلى هنا في وقت غير مناسب. كان عليك أن تخبرني، فها أنا غريب هنا في وقت تتهمك فيه عائلتك المحترمة بملابسكم الصغيرة».

«كيف كان لي أن أعلم متى سيغسلون؟!» أجاب فريتز، «وفي كل الأحوال أهلاً وسهلاً بك ألف مرة في كل الأوقات».

«البارون يدوس على الثياب غير المصنفة» قالت مدبرة المنزل وهي تطل من أحد نوافذ الطابق الأول.

«كم عدد أفراد عائلتك يا فريتز؟» سأل ديتمالر، «الكثير من الأشياء؟» ثم صاح فجأة: «ليس هناك مفهوم قائم بحد ذاته يدعى الشيء».

توقف فريتز الذي كان يعبر الفناء، وتلفت حوله ثم رد صائحاً بصوت عالم خبير: «أيها السادة المحترمون، انظروا إلى سلة الغسيل، فليكن فكركم سلة الغسيل، هل فكرتم في سلة الغسيل؟ إذن فليكن ذلك الآن أيها السادة المحترمون، أن يكون فكركم سلة الغسيل».

بدأت الكلاب داخل المنزل تنبح. نادى فريتز واحداً من الخدم المسكين بسلال الغسيل: «هل أبي وأمي في المنزل؟». لا يستحق هذا عناء السؤال، فالأم دائماً في المنزل. في هذه الأثناء دخل إلى الفناء شاب قصير غير مرتب المظهر بدا أنه أصغر سناً من فريتز وفتاة شقراء الشعر.

«ها هنا على الأقل أخي إراسموس وأختي سيدوني، بوجودهما لا ينقصنا شيء آخر»، يعانق الاثنان فريتز.

«لكـــن كم هو عددكم كلكم؟» ســـأل ديتمالر مرة أخرى. مدت سيدوني يدها له مبتســـمة. «ها أنا أفاجأ بين أغطية الطاولات بأخت فريتز هاردنبرغ الشابة.. هذا من الأمور التي كنت أحاول تجنبها». فكر ديتمالر بينما قالت ســـيدوني: «كارل لا بد أنه في مكان ما وأنطـــون وهناك أيضاً برنارد، لكن بالطبع هناك المزيد منا».

كانـــت البارونة هاردنبـــرغ داخل المنزل تظهـــر في هيئة أقل وضوحـــاً من الظـــلال. «أمي، هذا جاكـــوب ديتمالر يدرس معنا أنا وإراســـموس في جينا، وهو الآن مساعد أستاذ الطب». قال فريتـــز، فأجاب ديتمالر: «ليس بعد، أتمنى ذلك في يوم ما». قال فريتز: «لقد كنت في جينا أتفقد أصدقائي.. حســـناً يا أمي لقد دعوته لقضاء بضعة أيام معنا هنا». رمقته البارونة بما بدا وكأنه ومضة من الرعب، بنظرة كره شرســـة. ثم تابع: «ديتمالر بحاجة إلى قليل من الشراب ليمنحه الحياة بضع ساعات».

«هـــو ليس على ما يرام؟»، ســـألت البارونـــة بفزع وأضافت: «سأستدعي مدبرة المنزل». «لا داعي لذلك، فمن المؤكد أن لديك نسختك من مفاتيح غرفة الطعام، أليس كذلك؟»، قال إراسموس. «نعم، أكيد» قالت البارونة باستعطاف. «لا، المفاتيح لدي. أحتفظ بها منذ أن تزوجت أختي». قالت سيدوني ثم أضافت: «سآخذكم جميعاً إلى غرفة المؤونة، لا تقلقوا بشأن ذلك».

رحبت البارونة وهي تستعيد انتباهها بصديق ابنها: «للأسف لا يستطيع زوجي أن يكون في استقبالك الآن لأنه في الصلاة». ســـعيدة بأن محنة الإحراج قد مضت، لـــم ترافقهم عبر الغرف الباليـــة والممرات التي تبـــدو أكثر رثاثة والممتلئة بأثاث بســـيط

مـــن الطـــراز القديم الذي يســـتعمله عامة النـــاس، حيث كانت مســـتطيلات حائلة اللون تبدو على الجدران الأرجوانية الداكنة مكان صور ولوحات كانت معلقة في زمن مضى.

فـــي غرفة المؤونة ملأت ســـيدوني الكؤوس بالشـــراب ورفع إراسموس نخب جينا.

«أعـــرف جينا، إنها المكان الذي يبدد فيه فريتز وإراســـموس المـــال ويصابـــان بالقمل ويصغيـــان إلى هراء الفلاســـفة» قالت سيدوني، ثم أعطت المفاتيح لأخويها وعادت إلى أمها التي كانت لا تزال واقفة في ذات المكان الذي تركوها فيه تحدق فيما يجري تحضيراً ليوم الغسيل الكبير. «أود لو تمنحيني بعض المال يا أمي، لنقل خمس أو ست (تالرات) لأتمكن من تجهيز بعض احتياجات ضيفنـــا». «أي احتياجـــات يا عزيزتي؟ هناك ســـرير جاهز في الغرفة التي سيشـــغلها». «نعم، لكن الخدم يســـتخدمون الغرفة لتخزين الشـــموع، كما أنهم اعتـــادوا أن يقرؤوا فيها الإنجيل في أوقات فراغهم». «لكن ما حاجة هذا الرجل للغرفة في ســـاعات النهار يا عزيزتي؟». «ربمـــا احتاج ليقوم ببعض الكتابة». «بعض الكتابة!» رددت الأم بحيرة شديدة.

«نعم، لذلك فهو يحتاج لطاولة» تابعت ســـيدوني في محاولة لإقنـــاع أمها. «وإبريق ماء وحوض في حال أراد أن يغتســـل، نعم ودلو أيضاً». «لكن ألن يكون بمقدوره يا سيدوني أن يغتسل تحت مضخة الماء؟ كل إخوتك يفعلون ذلك». «وليس هناك كرســـي في الغرفة أيضاً حيث يمكنه وضع ملابســـه في الليل». «ملابســـه؟! لا يـــزال الطقس بارداً جداً لخلع الثياب فـــي الليل، أنا لم أخلع ثيابـــي فـــي الليل حتى فـــي الصيف منذ اثني عشـــر عاماً على

ما أذكر». «مع ذلك أنجبتِنا نحن الثمانية» صرخت سيدوني. «يا رب السموات ارحمني من زواج كزواجك هذا!» لم تبالِ البارونة بها: «وهناك أمر آخر لم تحسبي له حساباً، والدك، ربما يعلو صوته». لم يشتت تعليق الأم سيدوني. «ديتمالر هذا عليه أن يتقبل أباك وأن يعتاد على طريقتنا في الحياة وإلا فعليه أن يحزم متاعه ويرحل فوراً». «لكن في هذه الحالة ألا يمكنه الاعتياد على غرف الضيوف؟»، «كان على فريتز أن يخبره بأننا نتبع في حياتنا البساطة ومخافة الله». «وأين مخافة الله في ألا يكون لدينا دلو ماء للاغتسال؟!» سألت سيدوني. «ما هذا الكلام؟ أتخجلين من بيتك يا سيدوني؟»، «أجل، أخجل». إنها في الخامسة عشرة من عمرها تتوقد كشعلة من اللهب. كان هذا النزق الذي يتجلى على شكل طاقة روحية سمة انتقلت بين كل الأجيال الشابة من عائلة هاردنبرغ.

كان فريتز في هذه الأثناء يريد أن يصطحب صديقه إلى النهر ليمشيا على الضفة ويتحدثا عن الشعر ومشاغل الإنسان.

«يمكننا أن نفعل هذا في أي مكان» قال ديتمالر. «لكني أريدك أن ترى موطني. إنه تقليدي، نحن من الطراز القديم في ويسنفلس، لكننا نتمتع بالسكينة هنا. إنها الأصالة!». أحد الخدمِ الذينِ كانوا في الفناء ظهر في المدخل وهو يرتدي الآن معطفاً داكناً وقال إن البارون يسره أن يرى ضيف ابنه في غرفة المكتب قبل العشاء.

«العدو القديم في عرينه» صاح إراسموس. شعر ديتمالر بشيء من الإحراج وقال لفريتز: «يشرفني أن ألتقي بوالدك».

غرفة المكتب
(2)

كان إراسموس أكثر من ينبغي عليه أن يشبه والده، ذلك أن البارون الذي نهض واقفاً بتهذيب في غرفة المكتب شبه المعتمة بدا بشكل مفاجئ رجلاً صغير الحجم قوي البنية يرتدي قلنسوة نوم من الصوف الناعم. فمن أين أتى فريتز الذي لم تكن أمه أكثر من جسم ضئيل بنحوله الغريب وطوله؟! لكن البارون لديه ما هو مشترك مع ابنه البكر، ذلك أنه شرع في الكلام فوراً تاركاً لأفكاره أن تستغل الفرصة وتتحول إلى كلمات. «سيدي الكريم، لقد أتيت إلى بيتكم..» بدأ ديتمالر بالكلام متوتراً لكن البارون قاطعه: «هذا ليس بيتي، صحيح أني اشتريته من أرملة بيلساتش كي أؤوي عائلتي عندما عُيّنتُ مديراً لإدارة مناجم الملح في ساكسوني مما استدعى إقامتي في ويسنفلس، لكن مقر عائلة هاردنبرغ موطننا الحقيقي وأراضينا هي في أوبرويدرستادت في مقاطعة مانسفلد». قال ديتمالر بتهذيب إنه يتمنى لو كان الحظ قد حالفه وتمكن من زيارة أوبرويدرستادت.

«لم تكن لترى هناك شيئاً سوى الأطلال وبقرة جائعة» قال البارون ثم أضاف: «لكنها أرض الأجداد، لهذا علينا أن نكون على دراية بالأمور، وأنا الآن أستغل الفرصة لأسألك:

هــل صحيح أن ابني البكــر فريتز قد تورط في علاقة مع امرأة شــابة من الطبقة الوسطى؟»، «لم أسمع شيئاً عن تورطه مع أي أحد» قال ديتمالر باســتياء ثم أضــاف: «لكن في كل الأحوال لا أعتقــد أنه من المنصف أن نحكــم عليه وفق المعايير العادية فهو شــاعر وفيلسوف». «سيكســب رزقه من العمل كمساعد مفتش فــي مناجم الملح» قال البارون ثم أضــاف: «لكني لا أرى أنه من المستحسن استجوابك هكذا. أرحب بك كضيف وكابن آخر، وآمل أنــك لا تمانع في أن أعرف المزيد عنك؛ كم عمرك؟ وماذا تنوي أن تفعل في الحياة؟»، «أنا في الثانية والعشرين وأتدرب لأصبح جراحــاً»، «هل أنت مطيع لوالدك؟»، «والدي ميت، أيها البارون، كان مبيض جبس»، «لم أسألك حول ذلك، هل جربت ألم الفقدان في حياتك العائلية؟»، «نعم يا سيدي، لقد فقدت أخوين صغيرين بسبب الحمى القرمزية، وأختاً أخرى بسبب داء السل خلال سنة واحدة». رفع البارون قلنسوته عن رأسه احتراماً.

«نصيحة، إذا واجهت كشــاب أو كطالــب محنة المعاناة من الرغبة بالنســاء فأفضــل ما تفعله أن تخرج بحثــاً عن الهواء النقي قدر المستطاع». دار البارون حول الغرفة المحاطة برفوف الكتب التي يبدو بعضها فارغاً. «قل لي الآن، كم تقدِّر ما تنفقه مــن المال على الكحول في الأســبوع؟ وكم تنفــق على الكتب، ولا أعنــي كتب الــورع والتقوى، وكم تنفق على معطف أســود جديد دون أن تبالي بشرح لماذا لم يعد معطفك القديم صالحاً للاســتخدام؟ قل لي، كم؟»، «أيها البارون، يبدو أن أسئلتك لي مــا هي إلا طريقة لتوجيه النقد ضــد ابنك، مع أنك قلت للتو إنك لن تستجوبني».

لـم يكن البارون هاردنبرغ في الحقيقة رجلاً مسـناً، كان في العقد السـادس من عمره، لكنه حدق بجاكـوب ديتمالر كعجوز متهـدل الرقبـة منكس الـرأس: «أنت محق، محـق تماماً. لقد اسـتثمرتُ الفرصة، وما الفرصة في النهاية سـوى اسـم آخر للغواية».

وضع البارون يده فوق كتف ضيفه فتنبه ديتمالر؛ هل كان يدفعه نحو الأسفل أم كان يتكئ عليه؟ لم يكن يعرف، ربما الأمران معاً. مـن المؤكد أنه اعتاد الاتكاء علـى من هو أكثر جدارة، ربما على أبنائه الأقوياء أو ربما على ابنته. شـعر ديتمالر بالوهن يسـري فـي عظم الترقوة، وفكر أنه يبـدو في هيئته هذه معتدل القامة لكنه على الأقل يجثو على ركبتيه، في حين بدا البارون هاردنبرغ مستاءً من ضعفه وهو يهوي محاولاً إسناد نفسه بالتشبث بزاوية طاولة خشب السنديان القوية ثم بأحد أرجلها.

فُتح الباب ودخل الخادم نفسـه لكن وهـو ينتعل خفاً منزلياً هـذه المرة: «هل يرغـب البارون بإعداد الموقـد؟»، «تعال اجلس معنا يا غوتفريد». جلس العجوز إلى جانب سـيده، بدا الرجلان وكأنهما زوجان عتيقان يهزان رأسيهما وهما ينكبان على حسابات منزلهما خصوصاً عندما تساءل البارون: «أين الصغار؟»، «أتعني سيادتك أطفال الخدم؟»، «بالتأكيد، وبرنارد أيضاً».

برنارد
(3)

في بيت هاردنبرغ ملاك اســـمه أوغســـت ويلهلم برنارد، كان أشقر كحبة قمح، بعد الأخت الكبرى شارلوت البسيطة العطوفة، فريتز صاحب العينين الواسعتين الفاتحتين، إراسموس القصير الممتلــئ، كارل مرن الطباع، ســـيدوني الطيبة وأنطون الحريص ولد برنارد الأشــقر.. كان اليوم الذي يجب أن يرتدي فيه برنارد البنطال لأول مرة فظيعاً بالنســـبة للأم التـــي لم تعتد أن تطلب لنفســـها شيئاً البتة، لكنها مع ذلك وجدت نفسها تتوسل لفريتز: «اذهب إليه اذهب إلى والدك وتوســـل إليه، تضرع له أن يســـمح بإبقـــاء برنارد في ثوبه لوقت أطـــول قليلاً». «أمي، لا أدري ماذا أقول؟ أظن أنه في السادسة من عمره».

فكرت ســـيدوني أن برنارد في الحقيقة تجاوز الســـن الذي يجب أن يفهم فيه كيف يكون مهذباً مع الضيوف.

«لا أدري كم ســـيمكث هنا يا برنـــارد، لقد أحضر معه حقيبة كبيرة».

«حقيبته ممتلئة بالكتب، وجلب معه زجاجة من الشراب أيضاً» قال برنارد ثم أضاف: «أظن أنه فكر أن ليس لدينا شيء من هذا القبيل في بيتنا».

«لقد كنتَ في غرفته يا برنارد؟».

«نعم، كنتُ هناك».

«وفتحتَ حقيبته؟».

«نعم، فقط لأرى أغراضه».

«هل تركتها مفتوحة أم أغلقتها؟».

تردد برنارد الذي لم يستطع التذكر.

«حسناً، لا جواب» قالت سيدوني ثم أضافت: «عليك أن تعترف لديتمالر بما فعلت وتعتذر منه».

«متى؟».

«يجب أن يكون ذلك قبل هبوط الليل، لكن ما من وقت أفضل من الآن».

«ليس لدي ما أقوله له» صرخ برنارد: «لم أتلف شيئاً من أغراضه».

«أنت تعلم يا برنارد أن أبي نادراً ما يعاقبك» قالت سيدوني بلهجة ملاطفة «ليس أبداً كما يعاقبنا نحن. ربما كان كل ما سيفعله أن يطلب منك ارتداء سترتك بالمقلوب لبضعة أيام، من أجل ألا تنسى فقط. قبل العشاء سنستمع إلى الموسيقى، سآخذك بعد ذلك إلى الضيف حيث يمكنك أن تصافحه وتتكلم معه بهدوء».

«أشعر بالقرف من هذا البيت» صرخ برنارد وقفز مبتعداً. كان فريتز في حديقة المطبخ يتفقد أحواض الخضار ويستنشق أريج أزهار نبات الفول منشداً بأعلى صوته عندما قاطعته سيدوني:

«فريتز، لقد أضعت برنارد».

«أوه، هذا غير ممكن».

«كنت أؤنبه في غرفة الجلوس فهرب مني، فقفز من النافذة إلى الفناء».

«هل أرسلت وراءه أحد الخدم؟».

«لا يا فريتز، يفضل ألا نفعل، سيخبرون أمي».

نظر إليها فريتز، أغلق كتابه وقال إنه سيمضي للبحث عن أخيه. «سأجره من شعره إذا اقتضى الأمر. لكن عليكما أنت وإراسموس أن تعتنيا بصديقي».

«أين هو الآن؟».

«في غرفته يأخذ قسطاً من الراحة. لقد أنهكه الوالد». بالمناسبة، لقد قُلبت غرفته رأساً على عقب وفُتحتْ حقيبته».

«هل هو غاضب؟».

«لا أبداً. ربما يعتقد أن هذا من عاداتنا في ويسنفلس».

ارتدى فريتز معطفه الصوفي ومضى على عجل قاصداً النهر. كان الجميع في ويسنفلس يعلم أن برنارد لا يمكن أن يغرق لأنه كائن مائي، كان كأبيه لا يحسن السباحة. خلال السنوات السبع في خدمته في جيش هانوفر شهد البارون العديد من الأحداث واجتاز الكثير من الأنهار لكنه لم يضطر يوماً للسباحة. أما برنارد فقد عاش دائماً قريباً من الماء بحيث أصبح غير قادر على الابتعاد عنه حيث كان يمضي الوقت دائماً يتسكع قرب العبَّارة آملاً بالتسلل إلى سطحها دون أن يدفع الثلاث بفنيغات، أجرة الركوب.

لم يكن الوالدان على علم بذلك حيث ساد في البلدة نوع من تواطؤ إنساني لإخفاء العديد من الأمور عن البارون، وذلك للحفاظ على هيبته من جهة ولعدم استثارة غضبه الحاد من

جهة أخرى. كانت الشمس قد غابت وتلونت السماء في الأفق البعيد بالأحمر بينما انتشر ضباب رقيق على طول النهر ولم يكن الطفل على ضفة العبَّارات. كان هناك بضعة خنازير وسرب من الإوز تُمنع من عبور جسر ويسنفلس الجميل وتنتظر دورها في العبور.

قبعة برنارد الحمراء
(4)

شــــعر فريتز للمرة الأولى بالخوف. أحس بأن مخيلته تجري أمامه وتعود إلى منزله كلوستر غاس لتلتقي هناك بمدبرة المنزل أمـــام المدخل: «لكن ما هذا الذي تحملـــه معك إلى داخل المنزل يا سيدي الشــــاب؟ إنه يقطر في كل مكان، فوق الأرضيات، إنها مسؤوليتي». كانت أمه على قناعة بأن برنارد مقدر له أن يصبح فارســـاً متدرباً، إن لم يكن في بلاط أمير مقاطعة ساكســـوني، فربما عند كونت مانســـفلد أو دوق برونشوينغ. وكان من مهمات فريتز في الماضـــي أن يجرجر أخاه الصغيـــر متجولاً حول تلك البلاطات سعياً لوضعه في الموقع المأمول.

على مقربة من ضفة النهر ترسو الطوافات في انتظار المرحلة التالية من رحلتها بينما تهتز برفق سلاســـلها المربوطة إلى قطع من خشب الصنوبر. كان أحد الحراس يحاول برزمة من المفاتيح فتـــح باب كـــوخ. «أيها الحارس، هل رأيت صبيـــاً يركض؟»، «من المفترض أن يأتي صبي مع عشـــائه لكنه كان نذلاً ولم يأتِ»، قال الحارس ثم أضاف: «انظر، الممر مقفر».

على الضفة المقابلة كانت المراكب المعدة للإصلاح راســـية في مواقفها. اندفع فريتز راكضاً فوق الجســـر، رآه الجميع بمعطفه

المتطاير، أليس لدى البارون خدم يرسلهم؟ تمايلت المراكب متعثرة بحبال مراسيها واصطدمت محتكة ببعضها. قفز فريتز من فوق الرصيف على ارتفاع أربعة أقدام إلى سـطح أقرب مركب. كان هناك حركة كأنها عدو حيوان أكبر حجماً من الكلب.

«برنارد».

«لن أعود أبداً» رد برنارد.

ركض الطفل على سطح المركب، وخشية أن يسقط على المركب المجاور تسلق الحافة وبقي هناك متعلقاً بكلتا يديه يخبط بحذائه بحثاً عن موطئ قدم. أمسـك فريتز بـه من معصمه وفي نفس اللحظة سرت حركة اهتزاز مفاجئة في صف المراكب وتلاطمت ببعضها فانحشـر برنارد الذي لا يـزال متدلياً بينها. صدر عنه سعال ودفقات من الدموع والدماء كهواء اندفع من بالون. «كيف سـأخرجك من هنا» قال فريتز بلهجة آمـرة «أي كريه أنت، أي كريـه!؟»، «دعني أذهـب، دعني أمُتْ» زعق برنارد متحشـرجاً. «علينا أن نتحرك إلى الأمام قليلاً كي أستطيع رفعك». لكن يبدو أن غريـزة البقاء قد هجرت الطفل في هذه اللحظة، فكان على فريتز أن يفعل كل شيء، أن يجره ويتحرك به بين حافتي المركبين بينما يحتج هو بعنف.

لو كانا على الضفة المقابلة لوجدا بعض العابرين يمدون لهما يد المسـاعدة، لكن فريتز فكر أنهم سـيظنون أن جريمة ما قد حصلت. ضاقت المسـافة بين القوارب، لمـح الماء الرقراق تحتها ورفع الطفل إلى الأعلى ككيس مبلل. لم يكن وجه الطفل شاحباً بل قرمزياً لامعاً.

«ابذل جهداً، هل تريد أن تغرق؟».

«ومــا يهــم إن متُّ؟» زعق برنارد ثم أضــاف: «ألم تقل إنه لا معنى للموت سوى أنه تحول من حالة إلى حالة؟».

«اللعنة، ليس لك أن تفهم ذلك» صرخ فريتز في أذنه.

«قبعتي!».

كان الطفل متعلقاً بشدة بقبعته الحمراء التي فقدها مع أحد أسنانه الأمامية وبنطاله، فبدا عارياً إلا من سروال داخلي قطني طويل ثبت إلى جســده بشــريطة. وكعادة معظم المنقذين انتاب فريتــز غضب مفاجئ من الناجي الــذي يحب: «قبعتك اختفت. لا بد أنها في طريقها الآن إلى نهر الألب». لكن فريتز خجل من غضبه فرفع الصبي وأجلســه فوق كتفيه ليعــود به إلى المنزل. ومن مكانه في الأعلى ســأل برنارد الذي اســترد قــواه قليلاً: «هل أستطيع أن ألوح للناس؟».

كان علــى فريتز أن يجتاز الطريق إلــى نهاية صف المراكب، حيــث بنيت على الضفة درجات معدنية عمودية يمكنه صعودها دون أن يضطر لإنزال برنارد. كم يكون الطفل ثقيلاً عندما يكون اتكالياً.

في هذه الحالة، فإنه لا يســتطيع العودة إلى كلوســتر غاس، كما أن شــرح ما حدث لكل من سيدوني وإراسموس لا يقل عناء عما يجب أن يوضحه في فترة موســيقى ما قبل العشــاء، وهو يستطيع في هذه الأثناء أن يجد عدة أمكنة في ويسنفلس ليجفف نفســه. بعد أن عبر الجســر ثانية مشى لمسافة قصيرة بمحاذاة نهر السال ثم انعطف يساراً مرتين ومرة أخرى إلى اليمين حيث كانت الأضواء تشــع الآن من مخزن سِفرين للكتب. المخزن خالٍ من الزبائن، وبدا الســيد سِفرين شاحباً في رداء العمل الطويل

وهو يتفحص في ضوء شمعة مجهزة بعاكس إحدى قوائم الكتب المهترئة من تلك التي يفضلها بائعو الكتب عادة على غيرها.

«عزيزي السيد هاردنبرغ، لم أتوقع قدومك! أرجوك ضع أخاك الصغير فوق إحدى الجرائد، هنا، عدد البارحة من ليبزيغر زيتونغ». لم يظهر أن أي شيء قد فاجأه.

«أخي الصغير في حالة مزرية» قال فريتز وهو ينزل برنارد. «كان يركض عند المراكب ولا أدري كيف بلل نفسه هكذا».

لم يكن سِفرين لطيفاً مع الأطفال لأنهم يخربشون على الكتب. اتجه إلى الجهة الخلفية من المخزن وفتح صندوقاً خشبياً وأخرج منه شالاً كبيراً منسوجاً من الطراز الريفي.

«اخلع قميصك، سأجففك بهذا. لا داعي لإعادته لي. لماذا تسببت بكل هذه المتاعب؟! هل كنت تريد أن تبحر بعيداً تاركاً والديك وحيدين هنا؟!».

«بالطبع لا» قال برنارد بتهكم ثم أضاف: «كل المراكب في ذلك المرسى معطلة ولا تستطيع الإبحار. لا أشرعة فيها. ثم إنني لم أكن أريد الإبحار، كنت أريد أن أغرق».

«هذا ما لا أصدقه وأتمنى عليك ألا تقوله مرة أخرى» قال سِفرين. «هو يحب الماء» قال فريتز في محاولة للدفاع عن أخيه ثم أضاف: «أنا أيضاً أحب الماء. إنه أكثر العناصر روعة ومجرد لمسه فقط متعة».

لكن سِفرين لم يجد أي متعة في رؤية أرضية مخزنه مبللة بكميات كبيرة من الماء. كان في الخامسة والأربعين من عمره. و«سِفرين العجوز» كما كان فريتز يدعوه، رجل على درجة كبيرة من الحصافة يتميز برباطة الجأش في مواجهة مآزق الحياة.

كان فقيــراً ولم يحقق نجاحاً، عمل لــدى صاحب مخزن الكتب بجهد مضنٍ ليكســب عيشــه مقابل أجر زهيــد، وعندما توفي صاحــب المخزن تــزوج من أرملتــه، وهكذا وضع يــده على كل الأملاك. كان أهل ويسنفلس بالطبع على دراية بكل ذلك ووافقوا عليه لتطابقه مع فكرتهم عن الحكمة.

بالنسبة لسِفِرين احتل الشــعر مكاناً مهماً لا يقل أهمية عن قوائم الكتب، وكان يتمنى أن يســتمر صديقه الشــاب هاردنبرغ كشاعر لا تحكمه الضرورة للعمل مفتشاً في مناجم الملح.

أمضى برنارد ما تبقى من رحلة العودة إلى البيت في الشكوى من فقدان قبعته الحمراء، الشيء الوحيد الذي كان يملكه ليدلل به على ميوله الثورية.

«لا أدري كيف حصلت عليها» قال فريتز ثم أضاف «وعلى أية حــال لو كان أبي قد وقعت عينــاه عليها لطلب من الخدم رميها في مكــب القمامة. فليكن هذا درســاً لك كي لا تحشــر أنفك مرة أخــرى في الممتلكات الخاصة للضيــوف». «لن يكون هناك ممتلكات خاصة في الجمهورية» رد برنارد.

تاريخ البارون هينريش فون هاردنبرغ
(5)

ولد البارون هاردنبرغ عام 1783، وكان لا يزال طفلاً عندما انتقل إلى منطقة أوبرويدرستادت على نهر ويبر في مقاطعة مانسفلد وإلى قصر ومزرعة شلوبن بي جينا. خدم خلال حرب السنوات السبع كمتطوع في فيلق هانوفر ثم ترك خدمته بعد اتفاقية سلام باريس. بعد زواجه انتشر وباء الجدري عام 1769 في المدن على ضفة نهر ويبر فأصيبت زوجته الشابة وتوفيت. اعتنى البارون في تلك الحقبة بالمصابين وبالمحتضرين، وأتاح لأولئك الذين لا يملك ذويهم ثمن قبرٍ أن يدفنوا في أرضه في أوبرويدرستادت التي كانت من قبل ديراً ولا تزال تحتفظ ببعض التربة المقدسة. تعرضت قناعاته الدينية إلى تحول عميق، وبمجرد أن بلغ إراسموس سناً يستطيع فيها التساؤل بدأ بطرح الأسئلة عليه عن تلك الصفوف من القبور الخضراء القريبة من البيت.

على كل قبر شاهدة حجرية نُقشَ عليها كلمات: ولد هو أو ولدت هي... عاد إلى مثواه أو عادت...

كانت هذه الكلمات حسب تعاليم الإخوة المورافيين الذين كان البارون يواظب على عباداته معهم. وكان المورافيون يؤمنون بأن

كل روح تكـون إما فـي حالة موت وإما في حالـة بعث وإما في حالة هداية. تتحول الروح الإنسـانية إلى الهداية عندما تتعرض للخطر وتدرك ما هو، وهنا تستيقظ وتصرخ: إنه هو ربي.

بعـد مرور وقت قصير على السـنة الأولى لوفاة زوجته تزوج البارون من ابنة عمه الشـابة. «برنادين، أي اسـم عبثي؟! أليس لديك اسـم آخر؟» بلى، كان اسـمها الثاني أوغسـت. «حسناً، سـأناديك أوغسـت هونسـفوروارد»، وفي لحظاته الأكثر لطفاً كان يناديها غوسـتل. ورغم ما كان في شـخصيتها من وجل إلا أن أوغسـت كانت ولودة. ولدت الابنة الأولى شـارلوت بعد اثني عشر شهراً، وبعدها بسـنة ولد فريتز. وعندما بلغا سن التعليم قال البارون إنه يجب إرسالهما إلى المدرسة الواقعة بين إرفورت وغوتا حيث تقع مسـتعمرة هِرنهـوت. وهِرنهوت هذه كانت قبل خمسـين عاماً ملجأ للمورافيين الهاربـين من الملاحقة والعقاب يوفر لهم الأمان والاسـتقرار. كل طفل يولد عليه أن ينسجم مع العالم المنظم، هكذا اعتقد المورافيون، فكان التعليم بالنسبة لهم يتعلق بمنزلة هذا الطفل في مملكة الخالق.

كانت نيوديتندورف مثلها مثل هِرنهوت مكاناً للسكينة والهدوء. أصوات الريح عوضاً عن الأجـراس كانت تكفي لدعوة الطلاب إلى صفوفهم وكانت مكاناً للطاعة التامة.

كان علـى الطلاب أن ينتظموا فـي مجموعات ثلاثية بحيث يمكـن لأحدهم أن يخبر بما دار بين زميليـه الآخرين، ولم يكن يسـمح لأي معلم بأن يعاقب طالباً وهو تحت وطأة الغضب، ذلك أن العقوبة الظالمة لا يمكن نسـيانها. أما نشـاط الطلاب فكان يتضمـن تنظيف الأرضيات، العنايـة بالحيوانات وإعداد العلف

لهـــا، لكنهم كانوا ممنوعـــين من العراك أو ممارســـة أي ألعاب تنافســـية فيمـــا بينهم. كانوا يتلقون ثلاثين ســـاعة مـــن التعليم والدروس الدينية أسبوعياً، وكان عليهم أن يخلدوا إلى النوم عند غروب الشمس ويلتزموا الصمت حتى الخامسة من صباح اليوم التالي. وبعد كل نشـــاط جماعي، كتنظيـــف أقنان الدجاج مثلاً، جـــرت العادة أن يُخرجـــوا الطاولات لإقامـــة وليمة محبة حيث يجلـــس الجميع معاً يغنون التراتيل ويتناولون كأســـاً من الكحول المحلَّى الذي كان يقدم حتى للصغار منهم.

حققت الأخت الكبرى شارلوت هاردنبرغ التي كانت تشبه أمها نتائج جيدة في بيت العذراوات. تزوجت باكراً وانتقلت للعيش في لوسيتز. أما فريتز فقد ولد حالماً وكان صبياً خجولاً. أصيب في التاســـعة من عمره بمرض خطير لكنه بعد شـــفائه أصبح ذكياً فأرسل في نفس السنة إلى نيوديتندورف.

«لكن فقط فيما دون اســـتطاعته» قال البارون بلهجة صارمة عندما استدعاه الكاهن بالنيابة عن مجلس الحكماء بعد شهرين ليأخذ ابنه.

أوضح الكاهن الذي لم يكن من عادته أن يحكم على الأطفال بشـــكل نهائي أن فريتـــز كان دائماً يطرح الأســـئلة لكنه لم يكن مســـتعداً لتقبل الإجابات عليها. «خذ كتـــاب مبادئ الدين مثلاً، يسأل المعلم: من أنت؟».

«أنا كائن بشري».

«هل تشعر عندما أمسك بك؟».

«نعم، أشعر بوضوح».

«ما هذا؟ أليس لحماً؟».

«بلى، إنه لحم».
«كل هذا اللحم الذي تملكه نسميه جسداً. ما اسمه؟».
«نعم، إنه الجسد».
«كيف تعرف أن البشر ماتوا؟».
«لا يتكلمون ويفقدون القدرة على الحركة».
«هل تعلم لماذا؟».
«لا، لا أعلم».

صرخ البارون: «ألم يستطع الإجابة على هذه الأسئلة؟!»، «ربما استطاع، لكن إجاباته لم تكن صحيحة». «صبي لم يتجاوز العاشرة من عمره ويصر على أن الجسد ليس مخلوقاً من لحم ودم بل من مادة تشبه الروح! وهذا ليس كل شيء. إنه مجرد مثال وأستطيع أن أخبرك بالمزيد».

«لم يتعلم بعد. إنه يضيع فرصته، ولن يصبح أبداً عضواً مقبولاً في نيوديتندورف». سأل البارون إن كان ابنه يتمتع بفضيلة أخلاقية واحدة، لكن الكاهن تجنب الإجابة.

أوغست المسكينة التي عاشت مع أطفالها الأحد عشر وأصبحت عليلة الجسد كان عليها أن تتوسل من أجل أن تعلم فريتز بنفسها. ولكن ما الذي كان بوسعها تعليمه؟ ربما بعض الموسيقى. كان لا بد من إحضار معلم من ليبزغ.

العم ويلهلم
(6)

لـــم يعتد آل هاردنبرغ أثناء إقامتهم في أوبرويدرســـتادت أن يدعوا جيرانهم لزيارتهم ولا أن يقبلوا الدعوات منهم لاعتقادهم أن ذلك قد يفضي إلى الاستغراق في الأمور الهامشية الدنيوية. يضاف إلى ذلك مشـــكلة المـــوارد المحدودة والغـــلاء أثناء حرب الســـنوات الســـبع؛ تلك الحرب التـــي دفعت فريدريـــك الثاني لتمويلها من ريع اليانصيب، والتي كانت آثارها مدمرة بالنســـبة لملاك الأراضي. في العام 1780 اضطر آل هاردنبرغ لبيع أربعة من بيوتهـــم الصغيرة، وكان عليهم أن يبيعوا بالمزاد كل محتويات بيتهم الرئيس الآخر، وها هو ذا لا يزال موجوداً دون ســـتائر أو أدوات خزفية أو ماشية.

فـــي الأفق القريب تبـــدو الأرض البور مهملـــة، ومن النوافذ القديمة الضيقة للمنزل الواقع في أوبرويدرســـتادت يمكن رؤية صفوف متتالية من بيوت الحمام ومزرعة كبيرة كانت فيما مضى كنيســـة للراهبات. البناء بائس بما فقد من قرميده، يبدو مرقعاً بالإصلاحات، وقد نالت منه عوامل الطقس، وتشبَّع بماء الأمطار المتسرب على مدى سنوات من المزاريب المعطلة. الكلأ كان جافاً فوق قبور ضحايا الوباء القديمة.

كانـــت الحقول مهملة بينما الماشـــية ترعى عند آخر القنوات حيث الرطوبة وبعض العشـــب الذي نما هناك. منزل شلوبن بي جينا أصغر وأكثر ألفـــة وكانت العائلة أحياناً تذهب في رحلات إليه حيث يمكن للقلب أن يجد الســـلام بين جدول الماء وشـــجر البلوط المكسو بالطحلب، كما كانت أوغست تقول بتردد. لكن لم تكن الصعوبات في شلوبن تقل عنها في أي من البيوت الأخرى. «لا شـــيء يمنح الســـلام هناك» هكذا كان يقول البارون لزوجته مبرراً رفضه لتحمل مزيد من التكاليف.

لم تكن معظم طرق كسب العيش متاحة بالنسبة للسيد لكونه ينتمـــي إلى طبقة النبـــلاء، لكنه كان يســـتطيع الالتحاق بخدمة أميـــره. في عـــام 1784 عين مديـــراً لمناجم الملح فـــي مقاطعة سكسوني بعد وفاة المدير السابق براتب بلغ 650 تالر بالإضافة إلى تعويضـــات خاصة فيما يتعلق بحطـــب التدفئة. يقع المكتب الرئيســـي لإدارة مناجـــم الملح في ويســـنفلس، وفي عام 1786 اشترى البارون المنزل في كلوســـتر غاس. لم يكن كمنزل شلوبن وقد رأت أوغســـت في ذلك فرجاً وراحة دفعها للبكاء تأثراً وهي تصلـــي؛ ألا تكون دموعهـــا جحوداً أو كفراً بالنعمـــة بينما كانت تغادر العزلة الباردة ونمط الحياة المنزلية التي عفّى عليها الزمن في منزل أوبرويدرستادت.

يقطن في ويســـنفلس ألفا نســـمة وفيها معمـــل لصنع حجر الآجر، وســـجن، ومأوى للمشردين، وقصر قديم، وسوق خنازير، وحركة المراكب في النهر والغيـــوم الكبيرة التي تنعكس صورتها على سطح الماء، وجســـر، ومشفى، وسوق خميس، ومروج وعدد كبير من المتاجر ربما يقارب الثلاثين.

ورغم أن البارونة لم يكن لها مخصصات لمصروفها ولم تدخل متجــراً من قبل ونادراً ما تغادر منزلها في غير أيام الأحد لكنها كانــت تعاني حالات من الارتباك الــذي يضرجها حمرة، حالات تشــبه سطوع الشمس المتردد في أيام الشتاء وذلك لمجرد رؤيتها كل تلك الوفرة من الأشــياء والأمكنة والناس حولها وفي متناول يدها.

في هذا المكان، في ويســنفلس ولد برنارد في شــهر فبراير القاســي من العام 1788. كان فريتز وقتها في الســابعة عشرة من عمره لكنه لم يكن موجوداً في ويســنفلس في تلك المناسبة، بــل كان عند عمه ويلهلم. لقد تجاوز الصبي قدرات معلمه الذي كان عليه أن يســهر الليل في قراءة الرياضيات والفيزياء ليتمكن مــن مجاراته. «لكن هذا فــي النهاية ليس بالأمــر الرائع» كتب العــم. «المعلمون فئة من الرجال قليلة الإلهام، وكل ما يتلقاه الآن لا يتعــدى أهمية المهارات المنزلية كالغنــاء وأعمال البيت، وهذا لا يناســب الشــاب هاردنبرغ إطلاقاً. أرسل فريتز للإقامة معي لفترة على الأقل. إنه في الخامســة عشــرة أو السادسة عشرة، لا أدري علــى وجــه التحديد. عليه أن يكتســب خبرة في تذوق النبيذ، وهذا لا يســتطيع فعله في ويســنفلس لأن العنب هنا لا يصلــح إلا لصناعة النبيذ أو الخل. وعليــه أيضاً أن يتعلم كيف يحادث الرجال في الأوساط المحترمة». كالعادة استشاط البارون غضباً من كلمات أخيه، وكان غضبه من نبرتها أكثر.

كان ويلهلم يكبره بعشر سنوات، وهو جاف كأنه خلق خصيصاً ليســتفزه، وكان رجلاً ذا شــأن عظيم -ولكن بنظر نفسه فقط كما كان البارون يرى- باعتباره مســؤولاً عن قطاع إدارة التنظيم

الألماني للنبلاء في سكسوني. في كثير من المناسبات كان يعلق في عنقه شعار التنظيم، وهو صليب مالطي فاقع كان يظهر أيضاً مطرزاً بالمخمل ومجدولاً على معطفه، وكان أولاد عائلة هاردنبرغ ينادونه بـ «الصليب الكبير» أو «صاحب العَظَمَة». لم يتزوج وكان مضيافاً وكريماً ليس فقط مع زملائه من ملاك الأراضي، بل مع الموسيقيين والسياسيين والفلاسفة، هؤلاء الذين ينبغي أن يجتمعوا إلى مائدة رجل عظيم مثله ليدلوا بآرائهم ويوافقوه على رأيه.

بعد إقامة لم تستغرق سوى شهور قليلة عاد فريتز إلى أبيه في ويسنفلس حاملاً رسالة من عمه.

لوكلوم – تشرين الأول أكتوبر 1787

يسعدني أن فريتز قد أصلح نفسه وعاد إلى الطريق المستقيم الذي لا ينبغي لأحد بعد الآن إبعاده عنه. إن حياتي هنا أكثر صخباً من أن يحتملها رأسه اليافع. لقد دُلل أكثر مما يجب والتقى بالكثير من الناس الغرباء فبات معرضاً لسماع الكثير من الأحاديث التي قد لا تناسبه أو لا يفهمها.

كتب البارون لأخيه شاكراً ضيافته. أما الثياب الجديدة، الصدرية البيضاء والبنطال والمعطف الفضفاض التي صنعها خياط العم لفريتز خصيصاً لأن ثيابه التي جلبها معه لم تكن فيما يبدو أنيقة بما يكفي لموائد العشاء فقد أرسلت للإخوة المورافيين للتبرع فيها، حيث لم يكن هناك من مناسبة لارتدائها في مكان الحياة فيه بسيطة كويسنفلس. «كم أنت محظوظ يا فريتز» قال إراسموس ابن الرابعة عشرة. «لست متأكداً من هذا يا إراسموس. للحظ قوانين خاصة بمجرد أن نفهمها لا يعود

عندئذ حظاً». «نعم، ولكن، أن تجلس كل مســاء مع أولئك الناس المهمّين إلى مائدة العشــاء وهم يســتمتعون بوقتهم ويملؤون لك الكأس مرة بعد أخرى بالكثير من النبيذ الفاخر.. لا أدري، ترى عمّ يتحدثون؟»، «عن فلســفة الطبيعة، طــلاء المعادن بالجلفنة، نظرية الطاقة المغناطيسية للحيوانات، أم عن الماسونية».

«لا أصــدق هذا! من المفترض أن المرء يشــرب لينســى هذه الأمور ولينتظر تلك المرأة الجميلة التي ستتســلل في الليل على رؤوس أصابعها بحثاً عن ذلك الشــاب البريء.. ثم تقرع الباب. أي بهجة! «لم يكن هناك نســاء، فعمي لم يكن يدعو أياً منهن». «لا نساء!» صرخ إراســموس ثم أضاف: «من كان يقوم بالغسيل إذن؟».

البارون والثورة الفرنسية
(7)

كانت الأمور في ويسنفلس تسوء عندما تصل رسالة من الصليب الأحمر أو عندما يقوم الأخ الأكبر للأم الكابتن أوغست فون بولتزيغ بزيارة للبيت. وفون بولتزيغ حارب مع البارون في نفس الكتيبة في حرب السنوات السبع، لكنه وصل في نهاية الحرب إلى نتيجة مختلفة. كان معجباً بملك بروسيا دون تحفظ ورأى أنه كان يدعم حرية المعتقد الديني بشكل مطلق وأن جيش بروسيا مقدام ومنضبط أخلاقياً. «أعرف ما الذي يجول في خاطرك» قال البارون في نبرة متفحصة. «تعني أنك توافق على استنتاجي؟» تساءل فون بولتزيغ ثم أضاف: «أنت توافقني إذن أن لا علاقة مباشرة بين الدين والسلوك القويم». «ما أراه يا فون بولتزيغ أنك أحمق كبير». كانت البارونة بينهما في ورطة وشعرت وكأنها ذرات من الطحين بين حجري رحى.

كان أحد الهواجس التي تقض مضجعها في ليالي الأرق هو أن يصل أخوها والعم ويلهلم معاً في زيارة غير متوقعة. ما الذي تستطيع فعله أو قوله للتخلص من أحدهما بشكل لائق؟ ورغم اتساع المنزل كان الزوار يشكلون لها عبئاً. هكذا، يكفي أن يقرع أحد ما الجرس فتسمع الخدم يهرعون لفتح الباب لتجد نفسها

فجــأة تنوء تحت أعباء ثقيلة حتى قبل أن تتمكن من معرفة ماذا يجري.

في العام 1790 عندما انتسب فريتز إلى جامعة جينا بدا أن قوى التاريخ نفسه تتحرك ضد أوغست، وهنا تحولت محدودية عقلها إلى ميزة إيجابية أســعفتها فلم تر في كل تلك القوى شيئاً أكثــر أهمية من أغطية النوم الدافئة أو من هرطقة أخيها. وهي فــي الحقيقة لم تر فــي التطورات المقلقة في فرنســا أكثر من وســيلة تشــبه الرياح النهرية الرطبة التي تضنــي العظام برداً، مجرد وسيلة وجدت لتثير غضب زوجها.

اعتــادت العائلة في ويســنفلس أســلوباً متقشــفاً في وجبة الإفطار. كانت قدور خزفية مــن القهوة التي يدخل في تركيبها بدافع التوفير مســحوق الجزر المحمص ترتب في صفوف على موقد غرفة الطعام في الســاعة السادســة صباحاً بينما توضع على المائدة الفناجــين والأطباق وكومة من قطع الخبز الأبيض. يتوافد أفــراد العائلة فــرادى أو أزواجاً في ثيــاب النوم كأنهم يمشون نياماً ويقبلون على قدور القهوة الكبيرة يحتسون منها ما في فناجينهم ويرشــفون ما يرشح منها من قطع الخبز المغمسة فيها.

مع تقدم الصبيان في العمر لم تكن أوغســت يعجبها مكوثهم فــي غرفة الطعام. «عما تتحدثون يا شــباب؟» كان إراســموس وكارل يتدفــؤون قــرب الموقــد. «تعلمون أن أباكــم لا يعجبه..» «لا، ســيكون على ما يرام مع الجيروندیــين» قال كارل. «لكن يا كارل هــؤلاء الناس لديهــم أفكار جديدة وهــو لا يحب الأفكار الجديدة».

في شـــهر كانـــون الأول (يناير) من عـــام 1793 وصل فريتز قادمـــاً من جينا أثنـــاء تناول العائلة وجبـــة الإفطار وهو يرتدي معطفاً أزرق بأزرار نحاســـية كبيرة وقبعة مســـتديرة. «ســـأبدل ثيابي وأعود لأجلس معكم». «هل أحضرت معك جريدة؟» ســـأل إراســـموس. نظر فريتز إلى أمه وأجاب بتردد: «أظن ذلك». قال البـــارون الذي كان يجلس في مكانه علـــى رأس المائدة: «أعتقد أنـــه عليك أن تكون متأكداً فيما إذا كنت أحضرت جريدة أم لا». أعطـــاه فريتز جريدة مطوية عدة مرات وكانت لا تزال باردة من أثر الصقيع خلال الرحلة التـــي قطعتها في جيبه الخارجي من جينا. تناولها البارون وفتحها ثم أخرج نظارته وانكب أمام أسرته الصامتة على عناوين صفحتها الأولى.

«لا أفهـــم ما أقرأ هنا! لقد أصـــدر المؤتمر مذكرة اتهام بحق لويس» قـــال فريتز بجرأة. «نعـــم، قرأت هـــذه الكلمات، لكنني لا أصدق». هل ينوون اتخاذ إجراء قضائي ضد الملك الشـــرعي لفرنســـا؟!»، «نعم، إنهم يتهمونه بالخيانـــة». «لقد جن جنونهم» استغرق البارون في لحظة صمت متأملاً أكواب القهوة ثم أضاف: «لن ألمس أي جريدة مرة ثانية قبل أن تســـتعيد الأمة الفرنســـية رشدها» ثم غادر الغرفة. صاح إراسموس وهو ينقر على صحنه: «الثورة حدث مطلق ونهائي غير قابل للتفســـير. ما هو مؤكد أن الجمهورية طريق الإنســـانية نحو المستقبل». «من الممكن تجديد هـــذا العالم أو العودة به إلى مـــا كان عليه في الماضي، فالعصر الذهبـــي كان حقيقـــة مؤكدة» قال فريتز. «يـــا إلهي! برنارد هنا تحت الطاولة» صرخت الأم ثم أضافت «لا بد أنه سمع كل شيء وأنه سينقل كل كلمة». «كلام لا يستحق الإصغاء، فأنا أعرفه من

قبل» قال برنارد وهو يخرج من وراء غطاء الطاولة. «سيقطعون رأسه، سترون ذلك». «إنه لا يدري ما يقول! الملك هو الأب والأمة عائلته».

«عندما يعود العصر الذهبي لن يكون هناك آباء» تمتم برنارد.

«ماذا يقول؟!» تساءلت أوغست المسكينة.

كانت أوغست في قرارة نفسها تعلم أن الثورة الفرنسية ستتسبب لها بمتاعب كثيرة. لم يحرِّم زوجها الجرائد نهائياً في البيت، لكن كان عليها أن تتذكر دائماً أنه يجب ألا تقع عيناه على إحداها على المائدة أو في غرفة مكتبه. كان عليه أن يشبع فضوله الكبير تجاه ما يحدث في فرنسا عبر وسائل أخرى، فضول لم يكن في الحقيقة يعني لها شيئاً على الإطلاق. كانت تعلم أنه يستمع في مكاتب ويسنفلس وفي أوساطها العلمية والأدبية إلى كل ما يدور من نقاشات حول ما يجري، لكنها كانت تعلم أيضاً -بفراسة نتجت عن عِشرة طويلة أكثر مصداقية من الحب- أنه لن يصدق أي شيء من ذلك كله إن لم يقرَأه في حروف مطبوعة على صفحات جريدة. «في المرة القادمة يا فريتز عندما تعطي معطفك للخدم كي ينظفوه حاول أن تجعل الجريدة تظهر من طرف جيبه لبضع إنشات».

«أمي، بعد كل هذه السنوات ولا تعرفين أبي؟! قال إنه لن يقرأ الجرائد، وهو لن يقرأها».

«لكن يا فريتز كيف سيطلع على الأخبار؟ الإخوة المورافيون لن يخبروه بأي شيء. إنهم لا يتحدثون معه بالأمور الدنيوية».

«الله أعلم» صاح فريتز.

في جينا
(8)

اعتقد البارون أن الأسلوب الألماني في التعليم هو الأفضل بالنسبة لابنه البكر، حيث يرسله إلى أكبر عدد من الجامعات فيقضي سنة في جينا وسنة في لايبزغ يكون إراسموس حينها جاهزاً لينضم إليه ثم سنة ثالثة في ويتنبرغ إذ يدرس القانون ليكون قادراً عندما تدعو الحاجة إلى حماية ما تبقى من أملاك العائلة في سجلات المحاكم. كان من المفترض أن يدرس وفق هذا الأسلوب أيضاً علوم الدين وقوانين مقاطعة سكسوني. لكن بدلاً من تلك المواد سجل فريتز لدراسة التاريخ والفلسفة، وهكذا حضر في أول يوم له في الجامعة محاضرة ليوهان غوتليب فيخته حول فلسفة كانط التي كان لحسن الحظ يتطور بشكل ملحوظ في معرفتها. اعتقد كانط بوجود العالم الخارجي رغم أننا لا ندركه إلا من خلال تجاربنا وحواسنا، ولم تكن هذه الأفكار بالنسبة لفيخته سوى تجلٍ لضعف رجل عجوز. إننا أحرار في تخيل ما هو العالم، وبما أننا نتخيله بطرق مختلفة فليس هناك ما يدعو للإيمان بوجود حقيقة ثابتة.

أمام عيني فيخته الجسورتين كان الطلاب ذوو السمعة السيئة بأنهم الأكثر عناداً في ألمانيا يتحولون إلى تلاميذ مطيعين.

«أيها السادة، عودوا إلى ذواتكم، عودوا إلى عقولكم».. هؤلاء المغرورون والمخمورون في أوقاتهم الخاصة يبدون أمام فيخته مطيعين وهم يخرجون محابرهم الصغيرة المثبتة بدبابيس وراء ياقات معاطفهم، بعضهم يستقيم في جلسته وينحني البعض الآخر مغمض العينين بينما ترتجف قلة منهم من فرط الحماسة. «ركزوا تفكيركم أيها السادة على الجدار» ينتبه الجميع: «هل فكرتم في الجدار؟ فليكن الجدار تفكيركم».

كان فيخته ابناً لحائك نسيج ومن اليساريين المؤيدين للجمهورية في فرنسا، صوته جهوري، «السيد هناك في المقعد الرابع من اليسار في الخلف، أنت من يبدو عليك الانزعاج»، نهض شاب بائس وأجاب: «نعم يا بروفيسور، ذلك بسبب المقاعد في قاعات هذه الجامعة، لقد صممت كلها لذوي السيقان القصيرة».

«تعييني بلقب بروفيسور لن يتأكد قبل أيار (مايو) المقبل. يُسمح لك بسؤال واحد.. هيا تكلم».

«لماذا نتخيل الجدار كما نراه وليس كشيء آخر؟».

«نحن لا نبدع العالم انطلاقاً من مخيلتنا بل انطلاقاً من إحساسنا بالواجب. إننا بحاجة للعالم كي نحصل على أكبر عدد من الفرص الممكنة لنؤدي واجباتنا. هنا تكمن جدوى الفلسفة عموماً والفلسفة الألمانية بشكل خاص».

على ضوء القناديل اجتمع طلاب جامعة جينا في ليلة خريفية عاصفة ليناقشوا نظريات فيخته، بدوا وكأنهم على وشك الجنون. في الساعة الثانية من تلك الليلة وقف فريتز فجأة بينما كان الآخرون يترنحون في مجموعات متفرقة، وقال ناظراً إلى النجوم: «لقد اكتشفت الخطأ في نظرية فيخته، لا مكان

فيها للحـــب». «أنت تقف خارج منزله. يســـكن في (12أ)، هذا عنوان بروفيسور فيختته»، قال أحد الطلاب العابرين وهو يجلس على بلاطة حجرية.

«لن يكون بروفسوراً قبل أيار (مايو) القادم، وحتى ذلك الوقت نستطيع أن نغني له. سنغني تحت نافذته: الخطأ في نظريتك أن لا مكان فيها للحب».

كان الطلاب المقيمون في جامعة جينا خليطاً من كل الفئات. الأكثر فقراً منهم يتمتعون بحق الوجبات المجانية كجزء من منحة دراسية، يمكن لهم اختيار المكان الذي يتناولون فيه طعامهم لكن بكميات محدودة، حيث كان يستعجلهم العاملون للخروج من أجل تنظيف الطاولات في مشهد يثير الشفقة وهم يتدافعون بصخب كأنهم شياطين يستجدون آخر فرصة لهم في الجحيم.

لكن رغم بؤســـهم وشـــقائهم كان لكل واحد منهم أصل ينتمي إليـــه حتى ولـــو كان هذا الأصل مجرد أراض مجهولة المســـاحة مزروعـــة بالبطاطا في المنطقة التي أتى منها. في المســـاء كانت مجموعـــات من الأصدقاء تتنقل بين الحانـــات العابقة بالدخان بحثـــاً عن أصدقاء آخرين ينتمون إلـــى مناطق معينة إما بهدف السخرية منهم وإما للحديث حول موضوع ما في فلسفة الطبيعة وإما لشرب الكحول حتى الثمالة.

كان بمقـــدور فريتز أن يقيم في شـــوبلن لـــولا أنها على بعد ساعتين، لذلك أقام في البداية عند عمته جوهانا إليزابيث التي لم تطلب منه أجرة، والتي كانت غالباً ما تشـــتكي من أنها لا تراه كما ينبغي. «كثيراً ما كنت أتمنى أن يجلس شـــاعر إلى مائدتي. أنا نفسي كنت أنظم الشعر في شبابي». لكن كان على فريتز في

ذلك الشتاء الأول له هناك أن يقضي أوقاتاً طويلة في صحبة أستاذ التاريخ البروفيسور الشهير شيلر. «إنه مريض يا عمتي العزيزة، صدره مصاب والطلاب يتناوبون على العناية به».

«أنت يا ابن أخي لا تصلح لمهمة العناية بأي أحد».

«إنه رجل عظيم جداً».

«حسناً، الاعتناء بهؤلاء هو الأكثر صعوبة».

استُدعي أستاذ الطب والطبيب المسؤول في الجامعة هوفرات يوهان ستارك وهو كمعظم زملائه من أتباع أسلوب الدكتور براون الذي عالج عدداً من المرضى برفض طريقة فصد الدم وبوصف التمارين الرياضية وممارسة الجنس واستنشاق الهواء النقي. كان يعتقد أن وجود الكائن على قيد الحياة ليس شرطاً طبيعياً، وأن الجسم يجب أن يحقق توازناً دائماً من خلال تعريضه لسلسلة من المحرضات إما بتحفيزه بواسطة الكحول وإما إخماده بواسطة الأفيون. ورغم أن شيلر كان من المؤمنين بنظرية براون لكنه لم يتناول أياً من تلك المحرضات، بل اكتفى بأن يتكئ على رأس سريره منادياً تلاميذه مع محابرهم وأوراقهم ليملي عليهم ملاحظاته: «لأي هدف يدرس الإنسان تاريخ الكون؟».

في هذه اللحظة انتهى فريتز من تنظيف إحدى الغرف القذرة، ثم استغرق في تأمل البروفيسور متكئاً على قدمه النحيلة في المكان ذاته الذي سيصفه فيه الناقد فريدريك شليغل في إحدى رسائله إلى أخيه الأكثر شهرة بروفيسور الأدب وعلم الجمال أوغست ويلهلم شليغل. عبّر فريدريك في رسالته هذه عن فخره لاكتشاف موهبة لم يسمع بها أخوه من قبل: «وضع القدر في طريقي شاباً يمكن توقع أي شيء منه، وقد عبّر لي عن نفسه

بتوقد كبير، بتوقد لا يمكن وصف حرارته. نحيل، حسـن الهيئة ويمتلـك تعبيراً جميلاً إذا ما انطلقت ذاتـه. قدرته على الكلام تبلغ ثلاثة أضعاف ما لدينا طلاقةً ومقداراً. أخبرني في أمسيتنا الأولى أن العصر الذهبي سيعود، وأن ليس هناك شر في العالم، ولا أدري إن كان لا يزال على رأيه هذا. اسمه فون هاردنبرغ».

حادثة في حياة طالب
(9)

«لن أنسى ذلك» قال فريتز وهو يفكر في ذلك الصباح الباكر من شـــهر أيار (مايو) في نهاية عامه الدراسي في جينا. توفيت عمتـــه جوهانا إثر إصابتها بذات الرئة في ذلك الربيع الذي نجا بروفيسور شـــيلر من رياحه القاسية. كان فريتز يقيم في غرفة مشـــتركة مع ابن عمه في الطابق الثاني في سكن شوسترغاس. أين كان ابن عمه هذا عندما استيقظ فريتز مسحوباً من سريره ليجد نفســـه نصف عارٍ؟ «إنه وآخرون في ســـجن الطلاب» قال الزائـــر الذي كان فريتز بالكاد يعرفه. «لقد خرجتم ســـوية ليلة البارحة». «حسناً، ولكن لماذا أنا لست معهم في القاعة السوداء؟»، «يبـــدو أنك كنت أكثر منهم حساســـية للاتجاهات، لذلك لم يُلقَ القبض عليـــك. لكن عليك أن تأتي معـــي الآن لأمر مهم». نظر فريتز بعينين مفتوحتين: «أنت ديثلمر، أنت طالب طب».

«لا، اســـمي ديتمالر. انهض وارتدِ قميصك ومعطفك»، «لقد رأيتك في محاضرة البروفيســـور فيخته» قال فريتز وهو يتناول إبريق الماء ثم أضاف: «وقد كتبتَ أغنية تقول فيها:

العذراء في الأرض البعيدة

أعشق الموسيقى، فتعالي لا وقت لدينا».

تقع جينا في وادٍ مكشوف أسفل منحدر صخري، وللخروج منها لا بد من صعود التلال مشياً. كانت لا تزال في الرابعة صباحاً لكنهما مع التقدم في السير باتجاه غالجنبرغ شعرا بأنفاس البلدة الصغيرة الساكنة كأنها بخار في الصباح الصيفي الباكر. لم تكن السماء جلية تماماً لكنها كانت قد بدأت للتو تتكشف متحولة إلى امتداد شاحب خالٍ من الغيوم. بدأ فريتز يفهم ما جرى؛ لا بد أن عراكاً أو خلافاً قد نشب البارحة وهو لا يستطيع أن يتذكر شيئاً عنه. عندما يحدث نزال أو مبارزة من هذا النوع الذي يعاقب عليه بالسجن فالأمر يستدعي وجود طبيب، وباعتبار أنه ما من طبيب محترم يمكن أن يأتي في حالة كهذه فالحل الوحيد هو استدعاء طالب طب. «هل تريدونني حكماً؟» سأل فريتز. «أجل».

في المبارزات التي تحدث في جينا يتولى الحكم مهمة القرار في قضية مستحيلة. كان السيف الذي يستعمله الطلاب في هذه المبارزات مدبباً بشكل ثلاثي في مقدمته بحيث يسبب جرحاً عميقاً بثلاث زوايا. «من منكما تحدى الآخر؟»، «جوزيف بيك. أرسل لي يقول إنه يريد القتال دون أن يخبرني من ولماذا؟».

«لا أعرفه».

كان الضباب قد انقشع وبدأ ندى الصباح يجف حين انعطفا عبر بوابة إلى حقل أُزيلت منه نباتات اللفت حديثاً، وشاهدا اثنين من الطلبة يتعاركان بعنف فوق أرض صلبة متشققة يميل لونها إلى الاصفرار. «لقد بدأا قبل أن نصل، اركض» صرخ ديتمالر.

عندما اقتربا توقف أحد المتبارزين وركض هارباً عبر بوابة في الجهة الأخرى من الحقل تاركاً خصمه الذي سقط سيفه

وبقي واقفاً للحظة ثم سقط، وقد تضرجت بالدماء يده التي بدا أنهـــا جُرحت. «لا، إصبعان فقط» قـــال ديتمالر وهو ينحني فوق الأرض التي بدأت تكتســـي بالطحالب والعشب. التقط إصبعين مبللتين بلون أحمر، القطعة الأمامية من أحدهما والأخرى كاملة يحيـــط بها خـــاتم ذهبي. «ضعهمـــا في فمك» قـــال ديتمالر ثم أضاف: «إن بقيتا دافئتين واحتفظتا بالحرارة فربما أستطيع أن أعيدهما إلى مكانيهما بالخياطة عندما نعود». لن ينســـى فريتز ذلك الإحساس، نصف إصبع وأخرى كاملة ناعمة وصلبة بخاتم ذهبي تخفقان في فمه. «الطبيعة كلها واحدة» هكذا قال لنفسه.

وجد نفسه يتحرك بعفوية دون أي إرشاد من ديتمالر ويمسك بجوزيـــف الذي كان ينتفض باكياً ومتقيئـــاً صوب مرفقه الأيمن رافعـــاً ذراعه إلى الأعلى في وضعيـــة تبقي الأوعية الدموية في مؤخرة اليد فارغة. في هذه الأثناء كانت السماء كلها قد امتلأت بضوء الصباح الذي انتشر على طول الأفق الممتد بين قمم التلال وبدأت الطيور تستيقظ لتبحث عن قُوّتها.

«طالما أن إبهامه ســـليمة يمكنه أن يستخدم يده» قال ديتمالر بينمـــا كان فريتز يجاهد كي لا يبتلع لعابه الممتزج بالتراب والدم وهو يفكر: «يبدو هذا مثيراً للاهتمام بالنســـبة له كطبيب، لكنه لا يعنيني كفيلسوف».

عـــادوا إلى جينـــا في عربة أحد الحطابـــين التي كانت تتجه منحدرة إلى أسفل التلال. الحطاب الذي لم يكن عادة يلقي بالاً إلى ما حوله لم يســـتطع تجاهل أنين جوزيف المسكين وصراخه. «يبدو أن الســـيد مغنٍّ؟»، «اتجه مباشـــرة إلى غرفـــة العمليات» طلب ديتمالر من الحطّاب. «إن وجدناها مفتوحة فســـأتمكن من

الحصول علـــى بعض الإبر والخيـــوط». لا يمكن الحصول على شـــراب الشـــنابس أو المخدر في وقت مبكر كهذا، لكن ديتمالر الذي يتبع طريقة براون أيضاً كان متلهفاً لإعطاء مريضه جرعات من المادتين معاً.

مسألة نقود
(10)

في عيد القديس ميخائيل عام 1791 بدأ فريتز المرحلة الثانية من تعليمه الجامعي في لايبزغ. في التاسعة عشرة من عمره كانت لايبزغ التي يبلغ عدد سكانها خمسين ألف نسمة أكبر مدينة يعيش فيها، وجد أنه من المستحيل تدبير حياته بالمصروف المرصود له. «يجب أن أتحدث إلى أبي» أخبر إراسموس الذي أجابه: «لن يسره هذا»، «ومن ذا الذي يسره أن يُطلب منه نقود؟»، «لكن ماذا فعلت بالنقود يا فريتز؟»، «حسناً، أنفقت ما لدي على ضرورات الحياة، حاجات الروح والجسد. لا بد أن العجوز كان يفعل هذا أيضاً عندما كان طالباً»، «نعم ولكن قبل أن يدركه الإصلاح» قال إراسموس بكآبة «لا يمكنك أن تتوقع منه التعاطف الآن. أعوامك التسعة عشر كافية لتعلمك الحياة».

في زيارته التالية إلى ويسنفلس قال فريتز لأبيه: «أبي، أنا شاب ومع كل احترامي لا أستطيع العيش كرجل عجوز. تحملت حالة من التقشف، ولم أشتر خلال إقامتي في لايبزغ سوى زوج واحد من الأحذية، وتركت شعري ينمو طويلاً لأوفر أجرة الحلاق، وفي المساء لا آكل سوى الخبز»، «لكن بأي معنى تجد نفسك غير قادر على أن تعيش كرجل عجوز؟» سأل البارون،

فغير فريتز من نبرته: «أبي، ليس هناك من طالب في لايبزغ دون ديون. لا أستطيع تدبير معيشتي بما تمنحني إياه حالياً، أعلم أنه لا يزال هناك معيشة ستة من أفراد الأسرة غيري، لكني أعلم أيضاً أن لدينا أملاكاً في أوبرويدرستادت وشوبلن»، «هل تظن أني نسيت ذلك؟» سأل البارون ملوحاً بيده أمام وجهه «حسناً إذن، اذهب إلى أوبرويدرستادت وقابل ستاينبرشر، سأزودك برسالة له». كان ستاينبرشر مسؤول الحسابات. «لكن أليس هو في شوبلن؟»، «إنه الآن يدير حسابات كل أملاكنا، وهو هذا الشهر في أوبرويدرستادت».

استقل فريتز عربة السفر التي انطلقت من المحطة في ويسنفلس في الرابعة صباحاً سالكة الطريق المار عبر هال وأيسلبين. كانت العربات الألمانية الأكثر بطئاً في أوروبا، حيث كان يجب إفراغ الأمتعة منها وإعادة تحميلها من جديد عند كل صعود أو نزول راكب ما في الطريق.

وفي الطريق الطويل كان معاون العربة يشرف على هذه العملية، بينما يتناول السائق مع أحصنته وجبات من الخبز الأسمر. في أيسلبين كان أحد الخدم من الفلاحين في انتظار فريتز جالساً على مقعد خشبي. «جوزيف!» ناداه فريتز الذي تذكره منذ زمن يعود إلى سبعة أعوام مضت. «دعنا نذهب إلى بقالية ما ونشرب كأساً من شراب الشنابس» أضاف فريتز الذي كان يعلم أن البارات لا تقدم كحولاً في سكسوني. «لا يا سيدي، لا أرغب في رؤية ابن أبيك يضل عن الطريق هكذا»، «لكني يا جوزيف كنت أحاول أن أغريك أنت بالضلال، لكن يبدو أنه لا فائدة». حصلا من النزل على حصانين واتجها بصمت إلى

أوبرويدرستادت، حيث كان مدير الحسابات في انتظارهما رغم حلول الظلام. أعطاه فريتز رسالة والده وانتظره ريثما يقرؤها مرتين، ثم قال بعد أن شعر بثقل الصمت: «أيها السيد مدير الحسابات، أعتقد أن والدي يكلفك في رسالته بإعطائي بعض النقود». خلع مدير الحسابات نظارتيه وقال: «لا نقود أيها البارون الشاب»، «هل أرسلني كل هذه المسافة لتخبرني بهذا؟!»، «أعتقد أنه فعل ذلك لتتذكر الأمر جيداً».

خلاف
(11)

قطع فريتز اثنين وثلاثين ميلاً في طريق عودته إلى ويسنفلس مشياً، وعندما وصل إلى كلوسترغاس كان والده قد عاد من إدارة مناجم الملح، لكنه لم يكن وحده. أخبرته سيدوني بأن حضرة العقل الكبير العم ويلهلم هنا، «الصليب الكبير» ذاته كما كانوا يسمونه. «إنهما يتناقشان في شؤونك. كيف جرت الأمور مع ستاينبرشر؟ أتعلم بماذا أفكر؟ فقط لو لم يكن بعض الناس أكبر من البعض الآخر، ولو كان الشباب أغنياء مثلهم مثل الأكبر سناً».

«لكن يا سيدوني أنا أعتقد الآن أننا أكثر فقراً مما كنا نظن».

«لكنك لا تسألني عما أعتقده أنا. أنا أقضي وقتي في المنزل ولدي فرصة للتفكير في الموضوع أكثر منك».

«إن الأمر يتعلق بنا جميعاً الآن، ويتعلق بي أنا بشكل خاص..»

بدأ فريتز بإجابتها لكن برنارد قاطعهما بظهوره المفاجئ:

«أنا أكثر من يعاني هنا. كلما أتى الصليب الكبير تحضرني أمي إليه متخيلة أني المفضل لديه، بينما هو في الحقيقة لا يحب الأطفال، ولا يحبني أنا بالذات»، «إنه يتوقع أن يُقدم له نبيذاً أفضل وضيافة أكثر حفاوة مما يراه لدينا» قالت سيدوني

ثــم أضافت: «لقد أشــار إلى ذلك بنفســه في آخــر مرة تكرم علينا بزيارة»، «في آخر زيارة له طُلِبَ مني أن أنشــد عليه بعض محفوظاتي فما كان منه إلا أن علق: لماذا جعلتموه يحفظ كل هذه الحماقات؟!» قال برنارد. «أمي ليست في الصالون. ماذا علي أن أقول لها أن تفعل؟» قالت سيدوني.

«لا شــيء» قال كارل المستلقي باسترخاء على الأريكة في وضعية توحي بالثبات والثقة قبل أسبوع واحد من التحاقه بالخدمة العسكرية كمجند متدرب في كتيبة مقاطعة سكسوني، وهذا ما جعله يحوز على رضــى عمه رغم أنه لم يُدع إلى منزله فــي لوكلوم. أما فريتز فكان شــارداً وبدا أنه مســتغرق في التفكير بأمر خاص وملح. لم تلحظ سيدوني عليه ذلك في البداية، ربما لفرحتها بلقائه، لكنها الآن ترى بوضــوح موقفه الحرج بعد أن اصطحب معه إلى البيت ضيفاً غريباً لا يزال ينتظر فرصة مناسبة ليتعرف على أفراد الأسرة.

في غرفة الاســتقبال لم يجلس العــم «الصليب الكبير» على كرســي بل كان يذرع المكان جيئة وذهاباً، وكانت الرموز الفاقعة على عباءته الكحلية اللون، تظهر كلما استدار نحو الغرفة.

أما البارون فقد جلس في كرسيه العريض بعد يوم متعب من العمــل وهو يفكر بأن أخاه طالما لــم يخلع عباءته حتى الآن فإن ثمة أملاً في رحيله قريباً.

«لكن أين زوجتك؟ أين أوغست؟» سأل ويلهلم.

«لا أظن أنها تستطيع القدوم الآن».

«لماذا؟ يجب ألا تخشى مني. أنا لست شبحاً».

«كل ما في الأمر أنها تحتاج إلى بعض الراحة. هي حساســة بعض الشيء».

«إذا ما واظبت المرأة على العمل المتواصل فلن يصيبها التعب».

«أنت لم تتزوج من قبل يا ويلهلم.. لكن ها هو فريتز».

دخل فريتز بوجه شاحب كقطعة من الطين، وبعد أن ألقى التحية على أبيه وعمه بفتور بدأ الكلام بنبرة عالية: «أريد أن أخبرك بأنني قررت ماذا سأفعل في حياتي. خطر لي ذلك وأنا في طريق عودتي من أوبرويدرستادت»، «كم أنا محظوظ لأكون هنا في هذه اللحظة، تماماً في أكثر الأوقات حاجة لمشورتي».

«خلال دراستي في جامعة جينا والآن في لايبزغ كنتَ يا عمي تنظر إلى رغبتي كخطيئة لأني أفضل دراسة الفلسفة والتاريخ على القانون. وأنت يا أبي كان يزعجك أن أقول إنه بالنسبة لي حتى القانون هو أفضل من دراسة علوم الدين. لكني الآن أريدكما أن تتخلصا من هذا القلق نهائياً، أن تنفضاه عنكما كما تفعلان بغبار الأرض. أنا الآن أرى واجبي في الحياة أن أكون جندياً، كل شيءٍ يشير لدي إلى هذا الاتجاه، وفي هذه الحالة لن أكلفك شيئاً. ما أحتاج إليه الآن هو الانضباط. لدي ميول رومانسية، لكن حياتي في الثكنات ستقوم بإصلاح هذه الميول من خلال واجباتي العملية والرومانسية، هناك حجرة الفضلات وجناح الحمى والمسير وفحص الأقدام. فيما بعد عندما أواجه التجربة لن أخشى شيئاً لأن الحياة هدف وليست معنى. لقد عزمت على التقدم بطلب انتساب إلى مكتب أمير المقاطعة»، «أغلق شدقيك» قال العم. «هذه ليست طريقة تخاطب فيها ابني أو ابن أي رجل محترم آخر» رد البارون. «ألا تراه كيف يتفوه بالحماقات!»، وهنا تدخل فريتز: «لكن كارل..»، «كارل شاب ذكي يتوق لمباشرة حياته معتمداً على نفسه»، صرخ العم «أما أنت؟!

لقد سمعتك تقول على مائدتي عندما كنتَ في عمر كارل الآن إنه من الأفضل أن تكون الحياة حلماً، وأنها ربما تصبح كذلك. أين هي إمكانياتك العملية؟ إنك حتى لم ترَ رجلاً جريحاً في حياتك». غادر فريتز الغرفة. «أياً كان موضوع حديثكم فقد كنت قاسياً أكثر مما ينبغي في التعبير عن رأيك» قالت سيدوني وهي تقترب مع خادمتين تحملان قهوة مع الزبدة والخبز، أشار لهما العم بقرف أن يبتعدا.

«لقد اتفقا على الأقل. كلاهما يرى أني غير كفوء وربما جبان».

ضغطت سيدوني على ذراعه بتعاطف، لكنهما استطاعا من خلال باب الصالون المفتوح رؤية الأب والعم وهما يتواجهان في جدال حاد.

«دع هموم ابنك لي، أنت لا تفهم في هذه الأمور شيئاً البتة».

«أنسيت أني خدمت سبع سنوات في جيش هانوفر؟!» صرخ البارون.

«لكن دون أن تكتسب أي قدر من الكفاءة العسكرية».

اصطحب كارل وسيدوني فريتز المكتئب إلى البستان عبر الحديقة. «سيكون لدينا محصول وفير من الكمثرى والخوخ هذه السنة» قالت سيدوني. «من أين أتيت بهذه الفكرة الحمقاء، ما الذي يجعلك تعتقد أنه بوسعك أن تكون جندياً؟!» قال كارل ثم أضاف:

«أين إحساسك؟».

«لا أدري، قل لي يا كارل، ما الذي يجعل من الرجل جندياً؟».

«بالنسبة لي أرغب في أن أكون مجنداً في خدمة أميري،

وأريد أيضاً أن أبتعد عن البيت».

«ألن تشتاق لنا يا كارل؟» سألت سيدوني.

«لا أملـــك رفاهية التفكير في مثل هذه الأمور. ســـأكون أكثر فائدة لكم جميعاً وأنا بعيد، ثم إنك يا ســـيدوني ستتزوجين يوماً ما وستتسين إخوتك».

«لا، أبداً» صرخت سيدوني.

الإحساس بالخلود
(12)

ما إن تخلص من العم وحاشيته المرافقة من الخدم والطباخين الذين احتلوا المطبخ حتى قام البارون يون هاردنبرغ باستدعاء ابنه الأكبر وإخباره بأنه بعد سنة دراسية في لايبزغ وسنة إضافية أخرى في ويتنبرغ لدراسة الكيمياء والجيولوجيا والقانون عليه أن يكون جاهزاً ليبدأ تدريبه ككاتب في مديرية مناجم الملح. أما إراسموس فعليه أن ينتقل من لايبزغ إلى هيوبرتوسبرغ ليدرس في مدرسة علوم الغابات حيث الحياة حالة صحية مفتوحة على الهواء الطلق رغم انعدام أي ميول من ناحيته نحو حياة كهذه. كان كارل قد تعرض لتجارب الحرب وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره حين كان مع كتيبته في معركة تحرير مدينة ماينز من الفرنسيين. كانت زياراته إلى منزل أهله متوقعة دائماً فلم يكن من الصعب الحصول على إجازات، ذلك أن إجازات العسكريين لم تكن مدفوعة الأجر، وهكذا كانت الكتيبة توفر المال عندما يتغيب الضباط والجنود.

لم يكن فريتز يستقل عربة نقل المسافرين أو يمشي لمسافات طويلة لكنه لم يكن يملك حصاناً قوياً، وكانت المناسبات النادرة التي يستطيع فيها أن يستأجر أو يستعير حصاناً يُعتمَد عليه

أحداثاً مهمة يسجلها في يومياته. حصانه الأول كان اسمه غول يتذكــره منذ كانوا في أوبرويدرســتادت، لكنــه كان صغيراً فلم يســتطع ركوبه حتى انتقلوا إلى ويســنفلس. كم كان عمر غول؟ لقد منحه التقدم في السن المكر بدلاً من الحكمة، فكان يصل مع ســيده في أوقات محسوبة بدقة وفي خطوات متفق عليها كأنها صفقة تحــدد له متى يبطئ الخطو ومتى يســرع ومتى يتوقف. لــم يكن فريتز يلقي بالاً إلى مظهــره أو إلى رثاثة حصانه طالما أنه يســتطيع أن ينتقل معه من مكان إلى آخر. كانت حياته منذ سن السابعة عشرة كأنها حركة أبدية تشبه ما يفعله حصانه من ذهاب وإياب مستمرين لكن في منطقة ضيقة. حياة أمضاها في الوادي الذهبي للإمبراطورية الرومانية المقدسة على تخوم جبال الهارز والغابات الشاســعة التي تعبرها أنهار السال اليونستروت والهيلم والإلستر والويبر وهي تجري في انعطافات رشيقة لا تبدو ضرورية مجتازة في طريقهــا مناجم الملح والطواحين والحانات المحاذية لضفافها، حيث يجلس الزبائن لســاعات في انتظار أن تُصطاد الأسماك ثم تُشوى لهم. ريف يمتد على مساحات واسعة تتكــدس فيها درنات البطاطا واللفــت ورؤوس الملفوف البيضاء الكبيرة التي تقطع إلى شرائح بالمناشير لصناعة المخلل بين بلدة وأخرى.

تلــك البلدات توحــي بالطمأنينة لزائرها الذي يســتطيع أن يرى من مســافة بعيدة السقف الخشبي للكنيسة القديمة أو قبة الكنيسة الجديدة وأن يرى بيوتها الصغيرة المصفوفة على جوانب طرقها، فــي كل بيت حظيرة خنازير وفــرن للخبز وفي بعضها غرفة خشــبية في حديقته حيث يجلس صاحب المنزل بســكينة

تامة في برودة الليل يدخن وهو يردد بعناية حكمة يومه «كل السعادة هنا» أو «القناعة كنز لا يفنى»، وأحياناً يمكن لامرأة أن تجد وقتاً لتجلس في حديقة البيت الصغيرة. عبر فريتز هذه المناطق من ويتنبرغ جنوباً في نهاية سنوات دراسته في يوم مشرق كانت السماء فيه صافية الزرقة. كان موسم قلع البطاطا الذي غالباً ما شارك به في طفولته بحماس قد بدأ للتو وتوقف في طريقه عند ساقية ماء كي يروي ظمأ حصانه غول الذي كان عليه عادة أن ينتظر إلى نهاية اليوم ليشرب. حلَّ فريتز أربطة السرج فتنفس غول بنهم كأنه لم يعرف الهواء قبل هذه اللحظة، واهتزت الحقيبة المربوطة إلى ظهره ثم أحدث سقوطها على الأرض صوتاً يشبه قرع الطبل، عندها زفر الحصان وأحنى رأسه إلى الماء ليغوص في ضحالته الدافئة ويشرب بشراهة وحيوية لم تظهر عليه طوال رحلته الطويلة من ويتنبرغ.

جلس فريتز في هذه الأثناء على حافة الطريق فوق تربة سكسوني الرطبة التي يحبها لا شيء يعترض نظره سوى قافلة من العربات المحملة بالبطاطا وصف من شجيرات جار الماء المحاذية لمجرى نهر إلستر. لقد شارف الآن على إنهاء تعليمه. ماذا تعلَّم؟ فلسفة فيخته والجيولوجيا والكيمياء والرياضيات والقانون التجاري السكسوني. أحد أصدقائه العظام في جينا الفيزيائي يوهان ويلهلم ريتر حاول أن يبين له أن الفهم الأعمق للحياة يكمن في الكهرباء الغلفانية، وأن تبادل الطاقة بين الدماغ والجسد لا بد أن يكون مترافقاً مع ظاهرة الشحن الكهربائي. إن الكهرباء يمكن أن تكون أحياناً مرئية في الضوء، لكن الضوء ليس دائماً مرئياً وفي أغلب الأحيان هو كذلك. «علينا ألا نحكم

على ما نرى». كان ريتر مفلســاً دائماً وهو لم يذهب إلى جامعة أو إلى مدرسة أبداً، وكان مجرد كأس من النبيذ يشكل له حافزاً كبيراً ويجعله يتمدد في ســكنه البائــس ليتأمل قوانين الكهرباء كأنها غيوم من حروف هيروغليفية كتبت على سطح الكون وعلى وجه المياه التي تعج بالأرواح المقدسة.

أســاتذتي لا يتفقــون فيما بينهم، وأصدقائــي لا يتفقون مع أســاتذتي، فكر فريتز، لكن ذلك ليس إلا ظاهر الأمور المصطنع، إنهــم رجــال علم وفكــر فلأؤمننّ بهــم جميعاً. لــم يتعلم أولاد العائلات الكبيرة أن يتحدثوا إلى أنفســهم بصوت مسموع، هذا أحــد فنون العزلة الذي يتقنون، لذلك فهــم يحتفظون بيوميات مدونــة. أخرج فريتــز دفتر يومياته من جيبــه وتداعت له على الفور كلمات بعينها: الضعف، الأخطاء، الحوافز، الكفاح من أجل الشهرة، مقاومة التحطم، الشــروط البرجوازية البائسة للحياة اليومية، يأس الشباب.. بعد ذلك كتب: لكنـي لا أستطيع إنكار أن لدي إحساساً لا يمكن التعبير عنه بالخلود.

عائلة جوست
(13)

«سمعتني أتحدث من قبل عن كرايسامتمان كويلستين جوست من مدينة تنستيدت»، قال البارون. خمن فريتز أنه سمع ذلك. «إنه بالطبع القاضي المحلي المسـؤول، لكنه بالإضافة لذلك المشرف على جباية الضرائب في مقاطعته. لقد اتفقنا أن تدرس الإدارة معه في تنستيدت، وأن تتعلم الإدارة العملية للمكاتب وهي أمور لا تعرف عنها شيئاً». سأل فريتز فيما إذا كان عليه أن يجد سكناً هناك. «لا، ستقيم مع عائلة جوست نفسها. لدى كرايسامتمان ابنة أخ تدعى كارولين، وهي فتاة مستقيمة تقيم معه وتدبر له شؤون المنزل، وهو بالإضافة لذلك تزوج في السادسة والأربعين من أرملة الراحل كريستيان نيرنبرغ أستاذ علم التشريح والنبات في جامعة ويتنبرغ. من المحتمل أنك التقيت بها هناك».

كارولين جوست كانت ترى نفسها في المرآة امرأة في السابعة والعشرين، نعومتها يشوبها بعض الشحوب وبحواجب داكنة بشكل ملحوظ. تعمل في إدارة منزل عمها منذ أربع سنوات، ولم تتخيل يوماً أنه يمكن أن يتزوج، لكنه فعل ذلك وتزوج قبل ستة أشهر. «عزيزتي، ستكونين سعيدة من أجلي ومن أجلك أيضاً» قال لها في أحد الأيام. «وإذا ما حدث يوماً وواجهت فيه

مسألة أن تصنعي بيتاً خاصاً بك فلن تشعري في هذه الحالة بأنك تهجرينني». «لكن لم يحدث بعد أني واجهت هذه المسألة» قالت كارولين التي لم تكن في الحقيقة تملك مكاناً آخر تذهب إليه سوى بيت أبيها الذي يعمل مديراً لمدرسة الكاتدرائية في مرسبرغ، ولم يكن عمها يرى في ذلك مشكلة لأنه كان يعتقد أنها مرحب بها في أي من المكانين. كان العم يهنئ نفسه ليس لأن راحيل زوجته امرأة ألمانية قديرة وأرملة بروفيسور فقط، بل لأنها في التاسعة والثلاثين قد بلغت سن النضج مما يجعلهما قادرين على الحياة معاً دون منغصات، فهم يقولون الآن في تنستيدت إنه يعيش مع امرأتين تحت سقف واحد. من في هذه الحالة ستصدر الأوامر وستكون مسؤولة عن إنفاق أموال كرايسامتمان؟

أما فيما يتعلق بالساكن المنتظر فقد تم شراء سرير جديد من أجله. كانوا يعلمون أنه في الثانية والعشرين من عمره.

جرت العادة في الجامعات أن يقوم الأساتذة بتزويج بناتهم من أفضل طلابهم، وفي كل مكان كان النجارون وحرفيو الطباعة والخبازون سعداء لتزويج بناتهم أو قريباتهم من أحد العمال المتدربين لديهم. أما كرايسامتمان فليس أستاذاً ولا حرفياً، إنه قاضٍ ومفتش جباية الضرائب في منطقته، ولا يمكن لتدبير كهذا أن يخطر في باله، لكنه الآن رجل متزوج ولديه كما يقال من يقوم بمهمة التفكير عنه.

وصل فريتز ماشياً متأخراً يوماً واحداً عن موعد قدومه في وقت كان فيه كويلستين في مكتبه. «ها هو الذي انتظرناه طويلاً هنا» قالت راحيل لكارولين. ما زالت تذكره جيداً من أيام ويتنبرغ، لكنها شعرت بالضيق لرؤيته وهو أشعث هكذا.

«هل تجد الرياضة مفيدة للصحة يا سيد هاردنبرغ؟» سألته راحيل بقلق وهي تقوده إلى داخل المنزل. نظر فريتز إليها بشرود لكن بابتسامة مشرقة: «لا أدري يا سيدة راحيل، لم أفكر في ذلك من قبل. لكن سأفكر في الأمر». وما إن أصبح داخل غرفة الاستقبال حتى استغرق في تأمل ما حوله وكأنه في حالة إلهام: «جميل، جميل جداً». «ليس جميلاً إطلاقاً» قالت راحيل، مضيفة: «أهلاً وسهلاً بك هنا، أتمنى أن تنسجم مع الآخرين وأن تكوِّن ما يروق لك من الآراء، لكن غرفة الاستقبال هذه ليست جميلة».

استمر فريتز في تأمل ما حوله. «هذه كارولين ابنة أخ زوجي». كانت كارولين ترتدي شالاً ومريلة المطبخ. «أنت جميلة يا آنستي اللطيفة». «انتظرناك البارحة، لكن كما ترى نحن أناس صبورون» قالت راحيل بجفاف، ثم أضافت عندما غادرت كارولين إلى المطبخ: «تعلم أننا نعرف بعضنا منذ زمن والتقينا مرات عديدة في الجامعة، أتذكر دعوتي لك إلى مسرحية شكسبير؟ لهذا أسمح لنفسي بأن أطلب منك ألا تتحدث إلى كارولين بهذه الطريقة. أعلم أنك لا تعني ذلك، وهي لم تعتد على هذه الطريقة». «لكني كنت أعني ما أقول» قال فريتز ثم أضاف: «منذ أن دخلت إلى بيتك رأيت كل شيء يتألق، كل شيء، إبريق النبيذ، الشاي، السكر، الكراسي وغطاء الطاولة الأخضر الداكن ذو الحواف كثيفة الشراشيب». «كل شي عادي. لست أنا من اختار هذا الأثاث، لكن..» حاول فريتز أن يشرح أنه لا يرى مظهر الأشياء المعتاد بل روحها. لم يكن يعلم في الحقيقة متى تتملكه هذه الحالة من التجلي، لكن عندما تأتي هذه اللحظة فإن العالم بالنسبة له يوجد حالما يصبح الجسد تابعاً للروح. شعرت

راحيل بجديته رغم أنها تساءلت في سرها فيما إذا كان يتناول جرعات كبيرة من المخدر لسبب صحي كألم الأسنان مثلاً، كما يفعل الجميع وكما فعلت هي بالطبع.

لكنها اكتشفت بعد فترة وجيزة أنه لا يأخذ سوى ثلاثين قطرة كحد أقصى كمزيل للتوتر عندما يكون دماغه في حالة عالية من التنبه، أي نصف الكمية التي تتناولها هي في حالات الألم والصداع التي تصيب النساء عادة.

فريتز في تنستيدت
(14)

وصلت أمتعة فريتز في اليوم التالي في عربة نقل المسافرين وكانت في معظمها كتباً؛ مئة وثلاثة وثلاثون عنواناً ضرورياً أقدمُها مسرحيات وشعر وقصص فلكلورية، والأحدث تتعلق بدراسة النبات والمعادن والطب والتشريح ونظريات الحرارة والصوت والكهرباء والرياضيات وتحليل الأرقام اللامتناهية، كله معرفة. «كل المعرفة الإنسانية واحدة» قال فريتز وهو يدفئ يديه فوق شمعة في غرفة العلّية الباردة التي يقطنها في تنستيدت. الرياضيات هي المبدأ الذي يجمع بين كل ذلك، كما تربط الكهرباء بين الجسد والعقل. الرياضيات منطق الإنسان نفسه في شكل يفهمه الجميع. لماذا لا يكون الشعر والمنطق والدين أشكالاً راقية من الرياضيات؟ لا يحتاج الأمر سوى لقواعد تضبط لغتها المشتركة، وإذا كانت الرموز طريقة التعبير عن المعرفة فما عليه سوى أن يجلس ويجرب كل الطرق الممكنة لصياغة المعادلات. «أي انتصار!» صاح فريتز مبتهجاً في صقيع غرفته الباردة. لا أحد ممن عرفهم في حياته لم يجرب العمل أو النوم في غرفة شديدة البرودة كهذه.

تضمن القسم الثاني من كتبه كتاب «أسس المناجم واستخراج الملح» لفرانس لودفيغ كانسرينوس. في الجزء الأول أقسام في

مواضيع متنوعــة: مكونات المعادن، مكونات التجارب، خصائص ومكونات التربة الســطحية، خصائص التربة العميقة، مكونات علم بناء المناجم.

أخبر الخدم راحيل بأن فريتز يتحدث إلى نفســه في غرفته، فقالت لزوجها: «إنه يصعد إلى هناك بعد الفطور مباشرة ليدرس، وكما رأيتَ بنفســك هو يدرس بعد العشاء أيضاً». جوست سأل كارولين فيما إذا كان بإمكانهم أن يأخذوا قســطاً من الاسترخاء في سماع الموسيقى في إحدى الأمسيات.

«عليك أن تشعري بالإشفاق على هذا الشاب» قال جوست لكارولــين فأجابتــه: «ليس لدي فكرة عــن متاعبه». وجدت نفسها مشغولة بأعمال الشتاء، تحضير النقانق، تجهيز نبات الكتــان وذبح الإوز الذي كان قد نُتِف ريشــه حياً مرتين مما جعله وجبة إجبارية لأسبوع كامل. لكنها كانت تجلس بمكانها في غرفة الاســتقبال في ذلك المســاء الذي هبط فيه فريتز مــن غرفته بدعــوة من راحيل وهو يحمل ما بــدا لهم كتاباً، لكنه كان في الحقيقة ملفاً من المخطوطات. كانت راحيل قد سألته أن يقرأ لهم. «أرجو ألا يخطر في بالكم أني كتبت هذا من أجل إنسان محدد. لقد كنت في جينا في سن أصغر مني الآن».

«تقبَّلي مني الكتاب، تقبَّلي مني قوافيَّ الصغيرة
اعتني بها إن استطعتِ ثم دعيها تمضي
هل تريدين المزيد؟
ربما قلبي، ربما حياتي؟!
اللذَان في حوزتك منذ زمن بعيد».

«هذا يستحق أن يدوَّن في دفتر امرأة شابة» قالت راحيل ثم أضافت: «لكن أخشى يا عزيزي أننا لا نملك شيئاً كهذا في بيتنا». مزق فريتز الورقة التي كان يقرأ منها، ووضعت كارولين من يدها غطاء الوسادة الذي كانت تصلحه وقالت: «أرجوك اقرأ المزيد، أرجوك تابع». كان عمها كويلستين في هذه الأثناء يتأمل اللهب في الموقد الذي تُرك بابه موارباً.

لقد سمع من قبل أن فريتز شاعر ولكنه لم يتوقع أن يسمعه يلقي شعره علناً. لا يستطيع أن يضع نفسه في موقع الحكم على ما سمع، فالشعر أمر مختلف بالنسبة له عن الغناء. كان جوست ككل من يعرف يغني ويشارك في ناديين للغناء ويستمع للغناء في حفلات داخلية في الشتاء وفي الهواء الطلق والغابة والجبال والشوارع في الصيف. في حفلة زفاف إحدى صديقات كارولين وهي مغنية سوبرانو ذات صوت جميل لبى جوست دعوة الحضور للغناء أمام وجهاء تستيدت فظهر في هيئة بائع طيور عجوز يحمل أقفاصاً طُلِيت باللون الذهبي ليؤدي أغنية ريفية فكاهية تستعطف العريس كي لا يأخذ معه طائر العندليب. أجل، كانت تلك إلزا وانجل، ثلاث سنوات مضى على زفافها وهي الآن لا تكاد تمر من الباب لفرط بدانتها. اقتربت منه كارولين وقالت بتودد: «لماذا تتحدث عن إلزا وانجل؟»، «لم أنتبه يا عزيزتي أني كنت أتحدث بصوت مسموع. أستميحكم عذراً جميعاً، اغفروا لرجل عجوز».

في سن السادسة والأربعين كانت الكآبة الناتجة عن هاجس الموت ما دفع جوست لاستدعاء ابنة أخيه ومن ثم الزواج في الوقت المناسب. «عمي، أنت لم تكن تصغي ويبدو أنك لم تفهم شيئاً».

جوستن
(15)

تضمنت مسؤوليات كارولين وفق التوزيع الذي وضعته راحيل بحرص ولباقة إدارة مصروف البيت التي تتضمن تحصيل الدفعة الأسبوعية من فريتز لقاء إقامته والعناية بحصانه غول الذي وصل من ويسنفلس. لكن في السبت الأول حصل إشكال. «آنسة كارولين، كان من المفترض أن يرسل لي محاسب والدي المصروف إلى تنستيدت من الآن حتى نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، لكنه يبدو أنه أخطأ وأرسله بدلاً من ذلك إلى أوبرويدرستادت، وأخشى أني مضطر لسؤالك أن تنتظري أن أسدد ديوني». «لا أعتقد أننا نستطيع الانتظار، لكني سأتدبر الأمر من مصروف البيت في الوقت الراهن». تغير لونها على غير العادة عندما أحست بإحراجه. «كيف سيتدبر أمره» سألت راحيل التي أجابت: «أخشى أنه رغم دراسته في ثلاث جامعات لم يتعلم كيف يتدبر أموره. هو الابن الأكبر الذي لا يستطيع حماية نفسه».

لم يمنع وصول المحاسب في اليوم التالي كارولين من الإحساس بأنها قد اتخذت موقفاً ما ضد فريتز، لكن في الواقع لم يكن ذلك الإحساس صحيحاً، فهي لم يكن لديها أي اعتراض على الشاب هاردنبرغ خصوصاً بعد تلك الأمسية الشعرية، حيث أخذ فريتز

يمنحها ثقتــه الكاملة. أصبحت صديقته، أمــر لم تكن تتوقعه. «أستطيع العيش دون حب لكني لا أستطيع العيش دون صداقة» هكذا كان يبوح لها في أحاديث لا تتوقف رغم انشــغالها بأعمال التحضير للشــتاء، ولم يكن تقطيع النقانــق أو الخياطة يثنيانه عن الاسترســال. وبينما تنهمك في تقطيع النقانق تتعلم كارولين مــن محدثها أن العالم لا يمضي نحو الفنــاء بل نحو الديمومة، وتســتمع إلى نقاط الضعف في فلسفة فيختة، وتعلم أن لفريتز أخاً صغيــراً كالعفريت وعماً فظيعاً يتجــادل مع أبيه دائماً كما يفعل معهم كلهم. «ومع أمك أيضاً؟»، «لا، لا». «آســفة أنك لست سعيداً في بيتك». فوجئ فريتز بكلامها وقال: «لا، لقد أعطيتك فكــرة خاطئة. هناك حب في بيتنا، وكل منا مســتعد لمنح حياته للآخر»، وأضاف أن أمه لا تزال شــابة ويمكنها إنجاب المزيد من الأطفال، وأن من واجبه أن يســعى لكسب الرزق في أسرع وقت ممكن. عاد إلى موضوع فيختة وهو يســتعرض دفتر ملاحظاته صفحة تلو صفحة في مجموعات ثلاثية أمام كارولين.

«نعم، هذه بعض من ثلاثيات فيختة، لكني سأخبرك الاكتشاف المفاجئ الــذي أذهلني منذ أن جئت إلى تنســتيدت. يمكنك أن تقولــي إنه يمثلنا كلينا. أنت الفرضيــة، هادئة، واهنة، محدودة ومكتفية بذاتــك، وأنا التناقض، مضطــرب، متناقض، انفعالي وأتــوق للانعتاق من ذاتي. علينا أن نتســاءل الآن: هل ســيؤدي التفاعــل بيننا إلى التناغم أم إلى احتمــال جديد لم نكن لنحلم بــه؟»، أجابت كارولــين بأنها لا تحلم كثيراً. أما بشــأن الدكتور براون، مادة الحديث التالية، فكانت تعلم بعض الأشياء عنه لكنها لم تكن تعلم أن براون إســموس، كان تطوراً مهماً بالنسبة لكل ما

سبقه في نظريات الطب، وأن براون نفسه كان يحاضر أمامه وهو يحتسي الشراب من كأس، ومنقوع المخدر من كأس أخرى، ليدلل على التوازن المحكم، بل لم تكن في الحقيقة تدري ما هو الشراب. أخبرها فريتز أيضاً أن النساء بنات الطبيعة، لذلك فهي الفن الذي يبرعن فيه. «عليك أن تقرئي ويلهلم مايستر يا كارولين». «بالطبع، لقد قرأت ويلهلم مايستر». صمت فريتز شارداً للحظات فوجدت كارولين وقتاً لتضيف: «لقد وجدت ميغنون مثيرة للاستفزاز». «إنها مجرد طفلة» صاح فريتز ثم أضاف: «إنها روح أكثر مما هي طفلة وتموت فقط لأن العالم كان أقل سمواً من أن يستوعبها». «لا، تموت لأن غوته لم يجد لها ما تفعله في الرواية».

«أنت قاسية في حكمك» قال فريتز وجلس ليكتب بعض أبيات الشعر حول الموضوع. كانت كارولين مع خادمة المطبخ تجمع حلقات من التفاح المجفف عبر تمرير حبل فيها. «ما هذا؟ إنك تكتب عن حواجبي يا سيد هاردنبرغ!».

«لدى كارولين جوست حاجبان داكنان
ومن حركة حاجبيها
أستمد ما يرشدني.

علي أن أجد لك اسم دلع. أليس لديك اسم كهذا؟ عادة ما يطلق على كارولين في شمال ألمانيا أسماء دلع مثل لين وليلي ولولي أو كارولينيشين». هزت كارولين رأسها: «لا، لم يحدث أن كان لي اسم دلع». «سأسميك جوستن إذن» قال فريتز.

حلقة جينا
(16)

تتمتع تنستيدت بموقع ذي فائدة من وجهة نظر جوست، فكونها تبعد أكثر من خمسين ميلاً عن جينا يجعل الشاب هاردنبرغ بعيداً عن كثير من الصداقات التي لا يزال يحتفظ بها هناك. فالفيزيائي يوهان ويلهلم ريتر على سبيل المثال كان يتوجب من أجل مصلحته الحجّر عليه في مصح. لكن ريتر كان بريئاً، والذي صدم جوست في الحقيقة كان سلوك نساء جينا تحديداً. كان فريدريك شليغل أحد أقدم أصدقاء هاردنبرغ معجباً بكارولين، وكانت زوجة أخيه أوغست معجبة بمدير المكتبة جورج فورستر. أما زوجة فورستر تيريز فقد هجرته من أجل أحد الصحافيين متذمرة من أنه عندما مات طفلهما مصاباً بمرض الجدري فإنه لم يواسها بل سعى للبحث بجلافة عن بديل. فريدريك شليغل من جانبه عاش مع امرأة تكبره بعشر سنوات، دوروثيا ابنة الفيلسوف موسيس مندلسون وهي امرأة لطيفة ذات طبيعة أمومية لكنها كانت متزوجة من مصرفي لا يتذكر اسمه ولم يكن بالحقيقة يبالي بوجوده.

كانوا جميعاً مثقفين وثوريين، لكنّ كلاً منهم مشغول بمشاريعه الخاصة التي لم يتحقق أي منها. كانوا يتحدثون دون توقف

أي مــكان وتابعوا حياتهم في جينا، وكان الســبب المعلن لهذا أن المعيشة في جينا تبقى رخيصة مقارنة مع أي مكان آخر.

شــكل فريتز ما يشبه الظاهرة في أوســاط جينا. شاب من الريــف في مرحلة النمو والتطــور، طويل القامة وصعب المراس يمنحه حماسه القدرة على تجاوز المألوف. كان فريدريك شليغل يــرى فيه عبقرياً، وكثيراً ما كان يقول لأصحابه: «يجب أن تروه. لكن لن تفهموا أي شيء مما يكتبه حتى تجلسوا معه مرة لتناول الشــاي». «حســناً، عندما تكتبــين له – قالت كارولين شــليغل الطائشة لابنة حميها دوروثيا- أخبريه بأن يأتي فوراً وسنقضي سوية الوقت في التفلسف والحديث حتى مطلع الفجر». «أجل...» أجابــت دوروثيا ثم أضافت: «ســندعو كل الجماعة إلى غرفتي ذات يــوم ولــن يهدأ لي بال حتى يحدث هــذا. لكن لماذا يمضي هاردنبرغ وقته يحوم كمراســل حول ذلــك القاضي المضجر؟!»، «أوه، هــذا القاضي لديه ابنة أخ» قالــت كارولين. «كم عمرها؟» سألت دوروثيا.

ما المعنى؟
(17)

بعد أن وجد الحصان غول مكاناً له في إسطبل عائلة جوست أصبح بإمكان فريتز أن يرافق قاضي المقاطعة في جولاته ككاتبه العدلي، وأن يكتسب من ذلك مهارات المهنة كما أراد والده. وعلى الرغم من زيِّه الرزين الذي اشتراه من مخزن للملابس المستعملة لم يكن مظهر فريتز مناسباً ولم يكن يشبه أي نوع من الكتبة، وحتى حصانه غول كان يستدعي تعليقات قاسية. لكن القاضي فتح له قلبه من اللحظة الأولى لرؤيته، وكان الشيء الوحيد الذي أراد الاطمئنان إليه قبل أن يرافقه في أعماله الرسمية هو: هل كان فريتز يدرك طبيعة الأحداث التي تجري في فرنسا؟ «لم تؤدِّ الثورة الفرنسية إلى النتائج التي كنا نطمح إليها» هكذا قال لفريتز. «لا يبدو أنها ستؤدي إلى عصر ذهبي». «لا، لقد حولوها إلى مسلخ جزار، أؤكد لك ذلك» قال فريتز، ثم أضاف: «لكن روح الثورة كما بدأت وكما سمعنا بها في البداية يمكن الحفاظ عليها وإحياؤها هنا في ألمانيا. يمكن نقلها إلى المخيلة وقيادتها من قبل الشعراء».

«يبدو لي أنه بعد أن تستقر في مهنتك عليك أن تتفرغ للسياسة» قال جوست.

«السياسة هي آخر ما نحتاج إليه. هذا ما تعلمته من الإخوة في نيوديتندورف. الدولة يجب أن تكون عائلة واحدة يجمعها الحب».

«لا يشبه هذا الحالة في بروسيا» أجابه القاضي.

كتب جوست للبارون يون هاردنبرغ أن العلاقة بينه وبين ابنه الذي ائتمنه عليه ناجحة للغاية. لقد أظهر فريتز الكثير من الإمكانات، فمن كان يتوقع من شاعر أن يتحول دون عناء كبير إلى رجل أعمال ينكب على عمله ويعيد تنفيذ مهمة ما مرتين أو ثلاثاً، ويستغرق في البحث عن التشابهات والاختلافات بين الكلمات في عالم الصحافة المتخصصة في المال والأعمال ليتأكد من قدرته على الحكم على ما يقرؤه من مقالات بدقة، وكل هذا يفعله بذات الدأب والمثابرة التي يقرأ بها الشعر والعلوم والفلسفة. «إن ابنك يتعلم بسرعة تفوق مرتين سرعة البشر العاديين. ومما يثير الفضول أنه وفي الوقت الذي يفترض بي أن أعلمه فإني أتعلم منه أموراً لم تخطر لي من قبل، وأتخلص من خلال ذلك من ضيق أفق رجل عجوز. لقد نصحني بقراءة روبنسون كروزو وويلهلم مايستر، وقد أخبرته بأنني لم أشعر من قبل بأي ميل لقراءة عمل أدبي».

«لكن ما تلك الأمور التي تعلمتها منه ولم تخطر لك من قبل؟ أخبرني من فضلك مثالاً واحداً عنها»، كتب البارون لجوست متسائلاً. أجاب جوست بأن فريتز هاردنبرغ قد أخبره عن حكاية قرأها في أعمال الفيلسوف الهولندي فرانز همسترهويس حول مشكلة اللغة الكونية في زمن تتحدث فيه النباتات والصخور والنجوم فيما بينها مع الحيوانات والبشر، حيث تتحدث الشمس

مع الحجارة التي تدفئها على سبيل المثال. لقد عرفنا هذه اللغة مـــرة من قبـــل وعلينا أن نتعلمها من جديد بمـــا أن التاريخ يعيد نفسه. أخبرته أن ذلك ممكن بمشيئة الله. أجاب البارون أن ابنه لا يحتـــاج إلى أي لغة غير الألمانية ليقـــوم بواجباته كمفتش في مناجم الملح في المستقبل.

اعتاد جوســـت وكاتبه المتدرب أن ينجزا ما عليهما من ســـفر قبل حلول الشتاء الذي يؤدي إلى قطع الطرق. «لكني كتبت شيئاً آخر أود لو أقرؤه لك عندما يتوفر لي الوقت، شـــيء لا يمكن أن يتحقق وجوده إلا إذا اســـتمعت له» قال فريتز لكارولين. «هل هو شعر؟».

«نعم شـــعر، لكنه ليس أبياتـــاً منظومة». «أهـــو قصة إذن؟» تساءلت كارولين. «أجل قصة». «حسناً، سننتظر عودة راحيل من قداس المساء إذن». «لا، إنها من أجلك فقط» قال فريتز.

«كان أبوه وأمه نائمين في فراشـــهما بينما دقت الساعة على الحائط برتابة وصفرت الريح وراء النافذة التي كانت ترتج. بين لحظـــة وأخرى يتســـلل ضوء القمر إلى الغرفة فيبدد شـــيئاً من العتمة. اســـتلقى الشاب قلقاً في سريره مستعيداً ذكرى الغريب وقصصه. ليســـت حكاية الكنز ما يوقظ هـــذا الحنين الجارف داخلي، هكذا قال الشاب لنفسه. «ليس لدي توق لأن أكون غنياً، لكني أتشـــوق لرؤية الوردة الزرقاء. إنها تســـكن قلبي دائماً ولا أســـتطيع أن أفكر أو أتخيل شيئاً سواها. لم يتملكني شعور كهذا مـــن قبـــل، كأن كل ما جرى كان حلمـــاً أو كأن النوم قد أخذ بي بعيداً إلى عالم آخر، فمن ذا الذي سيشـــغل نفســـه بالورود في العالم الذي أعيش فيه حيث لم يسمع أحد عن شغف حاد كهذا

قبل رجــلا كهذا. لا أدري في الحقيقة كيــف أني الوحيد الذي أُخذتُ وتملكني ما قاله لنا؟! لقد ســمع الجميع ما سمعته، لكن دون أن يسترعي انتباه أحد منهم».

«هل قرأت هذا لأحد آخر يا سيد هاردنبرغ؟».

«أبداً، وكيف أفعل وقد كتبته للتو! ولكن ما أهمية هذا؟».

«مــا معنى الوردة الزرقــاء؟» أضاف فريتــز، وكانت كارولين تعلم أنه لن يجيب على هذا الســؤال، فقالــت: «على الرجل أن يتــرك بيته ويمضي للبحث عنها. إنه يريد فقط أن يراها، لا أن يمتلكها. لا يمكن أن تكون شــعراً فهو يعلم ذلك جيداً، ولا يمكن أن تكون السعادة لأنه سعيد في بيته».

تبددت الخصوصية غير المتوقعة التي منحتها القراءة، وشعرت كارولين التي بدا عليها الهدوء والشحوب بالقلق يجتاحها. كانت تفضــل قطع يدها على أن تشــعره بالخيبة وهــو جالس يحدق بعينيه البنيتين الواســعتين بثقة وانتباه باحثاً عن إشــارة توحي بالتفهم. وما أثــار ضيقها أنه وبعد فترة قصيرة من الانتظار لم يبــدِ أي امتعــاض ولم يتفاجأ بل أغلق دفتــره وقال: «لا بأس يا جوستن، ما من مشكلة».

آل روكنثاين
(18)

اصطحب كرايسامتمان في تشرين الثاني (نوفمبر) فريتز في سلسلة من الجولات على مكاتب الضرائب المحلية التي بدا أصحابها الناعسون غارقين في حياة بطيئة بالنسبة لزائرهم الشاب المتقد حماسة لتعلم كل جديد بأقصى سرعة ممكنة. قال السيد جوست لفريتز إن إدارة المكتب ليست بالأمر بالغ الصعوبة. «يتلخص الأمر عموماً بأن تعرف أولاً ما الذي يصل من واردات، وثانياً ما الذي لم يُعالج منها بعد، وثالثاً ما الذي انتهى العمل به وأصبح جاهزاً ليُرسَل في الصادرات، ورابعاً ما الذي تم الانتهاء منه وإرساله بالفعل. كل شيء ينبغي أن يكون في إحدى هذه المراحل الأربع، وهكذا تزول أي حجة لفقدان الأوراق. كل عملية إرسال يجب أن تُوثَّق في السجلات، وبهذا التوثيق تتمكن من العثور على أي ورقة. إن العالم المتحضر لا يمكن أن يوجد دون الكَتَبة الذين يوثقون وينسخون، ووجود هؤلاء مرهون بوجود الحضارة التي تعتمد على كل هذا العدد الكبير من الأوراق». «لا أعتقد أني أستطيع احتمال هذه الحياة ككاتب ديوان» قال فريتز ثم أضاف: «مهنة كهذه يجب ألا توجد في الحياة».

«لن تستطيع الثورة التخلص منهم» قال كويلستين جوست ثم أضاف: «ستجد أن هناك كاتب ديوان حتى أمام المقصلة».

تجمعت قطرات الماء وهما يتقدمان سوية بخطو متثاقل ثم انسابت ببطء من حواف قبعتيهما ومن أنفيهما ومن الأطراف المشعرة لآذان الأحصنة التي حركتها الحيوانات إلى الخلف كأنها تحتج على الطقس. غالباً ما يصعب التمييز بين التربة والهواء اللذين يختلطان في رطوبة الخريف، وقد بدا في عصر هذا اليوم أن الصباح قد انقضى دون حلول ظهيرة يمكن الانتباه لها، فكانت المصابيح تشع عبر النوافذ منذ الساعة الثالثة. كان أحد أيام العطل الرسمية الثلاثة عشر في السنة حيث توقفت حتى صناعة الخبز في سكسوني وثورينجيا، لكن جوست كان قد طلب من رئيس كتبة الضرائب في غريوسن أن يفتح المكتب لساعة أو أكثر في الصباح. كان فريتز يشرح كيف يمكن للكيمياء أن تجعل من نسخ الأوراق عملية تلقائية. تنهد جوست: «إياك أن تقترح أي تطوير هنا». «لا يبدو أن مديري المكاتب يرحبون بزيارتنا» قال فريتز وهو يفكر أن هؤلاء لا يزالون نوعاً غريباً من الكائنات بالنسبة له.

بعد عبورهما غريوسن وغريونينغن قال جوست لكاتبه الشاب المتدرب إنه من الممكن أن يقبلا قليل من الضيافة إذا ما قُدمت لهما. غادرا البلدة منعطفين في درب تحفها أشجار تعصف فيها الريح ومرا على الماشية التي غرقت في الماء حيث تصاعدت أعمدة رفيعة من دخان فواح الرائحة ينبعث من عمليات إحراق الأعشاب في موسم الخريف.

«هذا بيت سيد غريونينغن. نحن ذاهبون إلى صاحبه الكابتن روكنثاين». كان بيتاً كبيراً بني حديثاً وطليت جدرانه الخارجية

بطبقة صفراء من الإسمنت. «من هو كابتن روكنثاين؟»، «إنه ذلك الرجل الــذي يترك بابه مفتوحاً». نظر فريتــز فرأى أن البوابة المفضية إلى الفناء تحت القوس الحجري الأصفر وأبواب المدخل الكبير فــي الجهة الجنوبية من المنزل كلها مفتوحة. كانت نوافذ المنزل العالية ينبعث منها الضوء بسطوع يوحي بالبذخ، مما جعل فريتــز يظن أن من في البيــت كان في انتظارهما، ولم يتســن فــي الحقيقة لفريتز أن يتأكد من ظنه هــذا أبداً. خرج رجلان وأخذا حصانيهما ثم توجها إلــى داخل البيت صاعدين درجات المدخــل الثلاث. «إن كان روكنثاين في البيت فلا بد أن تسـمعه يضحك» قال جوســت وهو ينصــب قامته متحفــزاً، وفي هذه اللحظة بينما تناهى صوته وهو يصيح على أحد الخدم بألا يهتم للأمر ظهر روكنثاين فاتحــاً ذراعيه العريضين مرحباً بهما وهو يضحك: «كويلستين جوست، صديقي القديم، يا أعز أصدقائي». «لا أستحق كل هذا» قال جوست. «ولكن لماذا لم تحضر معك ابنة أخيك العزيزة كارولين؟».

«لقــد أحضرت معي هذا الشــاب الــذي أدربه علــى إدارة الأعمال. ســيادة يوهان رودولف يون روكنثاين، سابقاً كابتن في جيش ســمو الأمير شــفارزبرغ سونديشوســين. هل تسمح لي بأن أقدم لك جورج فيليــب فريدريك يون هاردنبرغ». «صديقي الشاب» صاح روكنثاين فاتحاً ذراعيه مرة أخرى في حركة جعلت قماش سترته الفاخر يصدر حفيفاً مسموعاً. «لن تشعر بالغربة هنا، أؤكد لــك». تناهى صوته واضحاً وهــو ينطق العبارة رغم ضجيــج الكلاب التي كانت تقف في القاعة متأهبة للانقضاض على أي شــيء يؤكل قــد يُلقى لها من الداخلــين أو الخارجين.

«ابتعدي!» صرخ الرجل في كلابه لتهدأ.

وقفوا في قاعة الاستقبال التي يدفئها موقدان كبيران يشتعل فيهما خشب الصنوبر وشجرة البيسية.. بدت القاعة كمزاد علني لبيع الأثاث لكثرة الكراسي والطاولات فيها. من كل هؤلاء الناس وهؤلاء الأولاد؟ روكنثاين نفسه بدا أنه لا يعلم على وجه الدقة، لكن بطرافة بدت منسجمة مع كل ما قاله في هذا اليوم بدأ يعدد على أصابعه: «صغاري جيت ورودي وميمي». «لا يستطيع تذكر أعمارهم» قالت امرأة شقراء جاوزت سن الشباب تستلقي بهدوء على الأريكة. «حسناً، أعمارهم، هذا من اختصاصك وليس من اختصاصي. هذه زوجتي العزيزة ويلهلمين وهنا بعض أولادها، جورج فون كاين، هانس فون كاين ولا بد أن صوفي في مكان ما».

جال فريتز بنظره حولية متنقلاً بين الجميع، انحنى للسيدة روكنثاين التي ابتسمت له دون أن تنهض بينما تابع زوجها بحبور تقديم زواره، سيدة فرنسية قالت إنها نسيت كيف تتحدث الألمانية «وطبيبنا الدكتور يوهان لانجرمان الذي لا يجد فينا لسوء حظه أي أمراض»، هرمان مولر وزوجته السيدة مولر، اثنان من الوكلاء القانونيين المحليين ومدرس من مدرسة لوثر العليا. كل هؤلاء اجتمعوا فيما يبدو في هذا المنزل دون دعوة واضحة في بلدة لا مكان يذهبون فيها إليه.

عاد جورجٍ الصغير الذي خرج من الغرفة حال تقديم الضيوف متجهاً إلى فريتز وأمسك بكم قميصه: «لقد خرجت ورأيت حصانك في الإسطبل. انظر يا سيد هاردنبرغ، إنه ليس حصاناً جيداً، لماذا لا تشتري واحداً أفضل؟»، لم يعر فريتز انتباهاً لجورج أو للآخرين الذين كانوا يتوافدون كالمد والجزر

علـــى شـــاطئ ضحل في موجات ينحســـر حضورها ويتلاشـــى لصالح موجة من قادمين جدد يســـتحوذون على الاهتمام، لكنه بقي ســـاكناً يحدق بانتباه في أرجاء الغرفة مما دفع كويلســـتين للتساؤل: «أين ذهب سلوكه اللبق؟».

في خلفية الغرفة وقفت فتاة صغيرة داكنة الشـــعر وهي تنقر على زجاج النافذة بشكل منتظم كأنها تحاول لفت انتباه أحد ما فـــي الخارج. «صوفي، لماذا لم يرتب أحد ما لك شـــعرك؟ ولماذا تنظرين من النافذة؟» قالت الســـيدة روكنثايـــن من مكانها على الأريكة بصوت ودود خلا من أي نبرة آمرة.

«أتمنى أن تثلج يا أمي لنستمتع جميعاً».

«ليت الزمن يتوقف ريثما تلتفت» قال فريتز بصوت مسموع.

«ربمـــا لو مر الجنود من هنا نســـتطيع رميهـــم بالثلج» قالت صوفي.

«إنـــك في الثانية عشـــرة ولا تســـتطيعين في هذا الســـن أن تلاحظـــي أن لدينـــا ضيوفاً!» قالـــت الأم، وعندها فقط التفتت الفتاة كأنها طفلة واجهت هبة ريح مفاجئة «أنا آسفة، آسفة».

ربع ساعة
(19)

لم يكن لروكنثاين يوماً هيئة رجل تعود له ملكية البيت الكبير في غريونينغن أو أي بيت آخر. كان في الأربعين ضخماً ومتقلباً بطباع متنافرة تجمع بين كرمه وغرابة أطواره وهو يتنقل كحيوان الغريـــر في ممرات البيت الكبير في غريونينغن. بني هذا البيت قبل خمســـين عاماً، وبناه والد الـــزوج الأول لزوجته يوهان فون كاين. وهكذا فإن روكنثاين لم ينتقل إلى هذا البيت إلا بعد زواجه عام 1787، لكنه لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يشـــكل لهم الانتقال إلى مكان جديد حدثاً يؤدي إلى تغيير في ســـلوكهم بل إنه لم يشعر بالإحراج عندما وجد نفسه مسؤولاً عن عدد كبير من الأشخاص في مسكنه الجديد الذي أقام فيه مكتب ضرائب المقاطعة في غرفة صغيرة نسبياً إلى اليسار من المدخل. لم يكن روكنثاين يتسم بالضعف لكن طبعه الملول منعه من الاستقرار في أي مكان لفترة طويلة.

اســـتغرق جوست بسرعة في العمل بصحبة أحد الكتبة. قال فريتز: «لقد حدث لي شـــيء ما»، فأجابه جوست بأنه مهما كان هذا الشـــيء فإنه يجب أن يحدث لاحقـــاً لأن من واجبه الآن أن يأتـــي إلى المكتب حيث اعتاد المســـتأجرون في الأيام الماضية أن

يتوافـدوا حاملين غلاتهـم من الذرة والحطـب والإوز ليطالبوا بالمـال كتعويض عـن أعمال الحقل التي لم يعـودوا يقومون بها لصالح أمير سكسـوني. «لقد وصلنا في الوقت المناسب يا سيد هاردنبـرغ لكـن علينا أن نباشـر عملنا فوراً. سيسـتغرق ذلك الصباح كلـه بالتأكيد، لكن لا تقلق، فربمـا نحظى بوجبة غداء جيدة ثم نقضي بعدها وقتاً نروح فيه عن أنفسنا ونفصح بحرية عما يجول بخواطرنـا، وبعد ذلك وقت لقيلولة ما بعد الغداء ثم علينا أن نتابع العمل من السـاعة الرابعة حتى السادسة. «شيء ما حدث لي» قال فريتز مرة أخرى.

كتب فريتز من فوره رسالة إلى إراسموس في مدرسة الغابات في هيوبرتوسبرغ وأرسـلها على وجه السرعة في عربة البريد. أجاب إراسـموس: «أدهشتني رسالتك في البداية، لكن بما أنهم قتلوا روبسـبير في باريس، صرت معتاداً على الأحداث الغريبة فاستفقت سريعاً من دهشتي. تقول إن ربع ساعة قررت مصيرك! كيف لك أن تفهم صبية عذراء في ربع سـاعة؟! كنت سأتفهمك لو أنك قلت ربع سنة وكنت سأعجب بقدرتك على اكتشاف قلب امرأة. لكن ربع ساعة؟! أرجو أن تفكر بهذا».

«أنت شـاب متوقد العاطفـة، والصبية لا تـزال في الرابعة عشـرة من عمرها، متوقـدة العواطف أيضـاً. كل منكما كائن بشري شهواني، وستأتي تلك السـاعة الحميمية التي ستقبلان فيهـا بعضكمـا بكل ما فيكمـا من جوارح، لكن سـتمضي هذه اللحظـة لتجد نفسـك تفكر بأنهـا مجرد صبيـة كغيرها من الصبايا. ولنفتـرض أن الأمور تطورت دونما أي عوائق ووجدت نفسـك متزوجاً. عندها ستتشـبع رغباتك كما لم تفعل من قبل،

لكن الإشباع لا يؤدي سوى إلى الضجر، وهكذا ستجد نفسك تنتهي إلى الحالة التي كنت دائماً تخاف منها؛ السأم».

لم يعتد فريتز أن يخفي عن أخيه شيئاً، لهذا وجد نفسه مضطراً ليعترف له بأن صوفي لم تكن في الرابعة عشرة من عمرها بل في الثانية عشرة فقط، وأنه لم يكن هناك ساعة حميمية كما قال له، كل ما في الأمر ربع ساعة جمعته بها بين الآخرين وهي تقف أمام نافذة الصالون الكبير في بيت شلوس في غريونينغن.

«أنا فريتز فون هاردنبرغ» هكذا قدم لها نفسه في ذلك الوقت. «أنت الآنسة صوفي فون كاين. في الثانية عشرة من عمرك، هكذا سمعت أمك العطوف تقول». وضعت صوفي يدها على شعرها: «يجب أن يُرفع إلى الأعلى». «بعد أربع سنوات ستفكرين باختيار ذلك الرجل المحظوظ الذي سيكون زوجك. لا تقولي إن عليه أن يطلب يدك من زوج أمك؟!» «لا أدري ماذا سأكون بعد أربع سنوات».

«تقصدين أنك لا تعلمين ماذا ستكونين؟»، «لا أريد أن أكون». «ربما أنت على حق». «أريد أن أكون لكن دون أن أفكر في ذلك». «لكن يجب ألا تبقي طفلة». «أنا لست طفلة الآن». «صوفي، أنا الآن شاعر، لكني بعد أربع سنوات سأصبح موظفاً إدارياً وأتقاضى راتباً، عندها يجب أن نتزوج». «أنا لا أعرفك». «لكنك رأيتِني، أنا ما ترين». ضحكت صوفي. «هل من عادتك دائماً أن تضحكي من ضيوفك؟»، «لا، لكننا في غريونينغن لا نتحدث بهذه الطريقة». «لكن هل يسعدك أن تعيشي معي؟» ترددت صوفي ثم أجابت: «أنت حقاً تعجبني».

لم يفلح فريتز في طمأنة إراسموس الذي كتب: «ولكن ما الذي يضمن إن كانت الآن نقية السريرة أن تبقى كذلك عندما تخرج إلى العالم وتجرب الحياة بين العامة؟ ستقول لي إن أمكنة العامة ليست دائماً على خطأ. لكن بما أنها جميلة جداً كما قلت وستكون بالتأكيد مرغوبة من آخرين كثر ما أدراك أنها ستبقى صادقة معك؟ الفتيات في سن الثالثة عشرة يتصرفن بدافع الفطرة (لا يزال غير مصدِّق أنها أصغر سناً) لكنهن في الثالثة والعشرين يصبحن أكثر دهاء منا. تذكَّر ما كنت تقوله لي غالباً حول هذا الموضوع، منذ شهرين فقط في ويسنفلس. هل نسيت بهذه السرعة؟»، ومضى إراسموس ليوضح أن أكثر ما أثار قلقه في رسالة فريتز هو ذلك الإصرار البارد في نبرته، لكن إن كان مصمماً على المضي فيما هو فيه فإنه يستطيع الاعتماد على إراسموس في أي مساعدة يحتاج إليها لأن حبه لأخيه ثابت لا حدود له سوى الموت. أما بشأن الوالد فنحن نعلم مدى صعوبة الأمر لكننا كثيراً ما ناقشنا موقع أبينا في سياق شؤوننا. وأضاف إراسموس: «بالمناسبة، ما أخبار صديقتك كارولين جوست؟ وداعاً. صديقك وأخوك المخلص إراسموس».

طبيعة الرغبة
(20)

سأل فريتز فيما إذا كان بوسعه قضاء عيد الميلاد في تنستيدت. «بالتأكيد يمكنك ذلك إن لم يكن لدى عائلتك مانع» أجابته كارولين ثم أضافت: «سيرحب بك عمي وخالتي بحرارة، وسنقوم بالطبع بذبح الخنزير». «جوستن، شيء ما حدث لي». لا بد أنه مريض، هذا ما كانت دائماً تخشاه. «أخبرني، ما المشكلة؟»، «قد يقول الناس يا جوستن إننا لم نعرف بعضنا إلا منذ فترة قصيرة، لكن كيف أصف صداقتك؟ أشعر بأنك قريبة وحاضرة دائماً في ذاكرتي حتى عندما أكون بعيداً عنك. كأننا ساعتان مضبوطتان على ذات التوقيت، وبمجرد أن نرى بعضنا مرة أخرى نعود لندور سوية بإيقاع واحد». فكرت: «لا أستطيع إضافة أي شيء على ما قاله. لقد قرأ علي مطلع الوردة الزرقاء، لكن الحمد لله، يبدو أنه لا يذكر ذلك».

«لقد وقعت في الحب يا جوستن».

«لا تقل لي في غرينينغن؟!».

شعرت بجسدها يتداعى بينما ارتبك فريتز. «من المؤكد أنك تعرفين العائلة جيداً. لقد رحب السيد روكنثاين بعمك كصديق قديم».

«نعم أعرفهم، لكن لا أحد من فتيات العائلة الشابات تقيم في البيـــت حالياً. هناك فقط صوفي». كانت قد فكرت بهذا عندما علمت أن عمها اصطحبه إلى غريونينغن.

نظر إليها فريتز برباطة جأش. «إنها صوفي من يستحوذ على قلبي».

«لكنهـــا يـــا هاردنبرغ ليســـت أكثر من..» قالـــت وهي تجهد لتضبط انفعالها ثم أخذت تضحك.

«يبدو أنك يا جوستن لم تفهمي سوى بمقدار ما سمعتِ، لكن مـــن الخطأ أن أطلب منك أكثر مما يجب. أهم ما في الأمر كما أرى أنك لا تستطيعين إدراك طبيعة الرغبة بين الرجل والمرأة».

لم يكن بوســـع كارولين أن تعلم حينها ولا في أي وقت آخر ما الذي جعل من المستحيل بالنسبة لها أن تتجاوز ذلك وتدعه يمر. ربما غرورها الذي لم يكن يخلو من الإثم أو إحساســـها الموحش بالخـــوف من أن تفقد ثقتـــه إلى الأبد. قالت: «لا يســـتطيع كل إنســـان الإفصاح عما يعانيه. هناك من يُقـــدَّر له أن يُحرم ممن يحب لكنه يجد نفسه مضطراً للصمت». لم يكن هذا كذباً، فهي لم تشر إلى نفسها، لكن عواطف فريتز الجياشة وشعوره المتدفق بالارتباط آلمها بشدة.

أي قوة جعلت صوتها يخبره بشـــيء لم يكن في نهاية المطاف ســـوى كذبة، بل كان في الحقيقة مقصـــوداً ليكون محض كذب! مضـــى فريتز يتحـــدث عن العوائق في وجه الســـعادة برقة لكن بحماسة، ولم يكن في قرارة نفسه يطمح لأكثر مما قالته كارولين، كان فـــي كلامها ما هو مقدس بالنســـبة له وتحولت تلك العوائق إلى رابـــط جذبهما إلى بعض، وكانت هي تـــرى كيف أن كينونة

جديدة غير مرغوبة خُلقت بينهما من لا شــيء. إنهم الآن أربعة، فريتز الشــاعر، صوفي التي تقهقه ضاحكــة، هي مدبرة المنزل الرزينة وعاشــقها المجهول المُحبَط الذي سيكون بلا شك موظفاً رســمياً في المناجم تجاوز الثلاثين يرتدي ملابس وقورة ومتينة ولا بــد أن يكون متزوجاً كما كان يرتســم فــي مخيلتها بوضوح متزايــد، أو ربما يكون قســاً. بدا لها حقيقياً فــي تلك اللحظة لدرجة أنها كانت تســتطيع لمسه بيدها، وقد وُلد من ذلك الجرح الــذي خلفه فريتز فيها حين قال إنها لا تســتطيع إدراك طبيعة الرغبة بين الرجل والمرأة.

«لقد خُلقــت الكلمات لنتواصل فيما بيننــا حتى وإن لم يكن بشكل كامل» تابع فريتز كلامه بانفعال.

«ولكتابة الشعر أيضاً».

«أجل، تماماً يا جوســتن، ولكن يجــب ألا تتوقعي الكثير من اللغة. لا معنى للغة خارج ذاتها وهي ليســت دليلاً إلى أي شــيء خارجها. اللغة تتكلم لأن الكلام متعتها ولا تســتطيع فعل شــيء آخر».

«في هذه الحالة قد تكون هراء» قالت كارولين معترضة.

«ولم لا؟ ليس الهراء سوى لغة أخرى».

ثلج
(21)

اضطر فريتز في نهاية المطاف لقضاء عطلة عيد الميلاد في ويسنفلس. كتبت له سيدوني أن الأمر لا يتعلق فقط ببرنارد الذي سيصاب بالخيبة إن لم يأتِ، بل إن عليه القدوم لرؤية أخيه الجديد أيضاً. استمرت الطبيعة في عطائها في دفء الفراش الكبير المحشو بريش الإوز في المخدع الأبوي المسدل الستائر في ويسنفلس فوُلِدت أميلي في السنة الماضية، ووُلِد كريستوف هذه السنة. لم يرق ذلك لبرنارد «هناك اثنان أصغر مني ولن أحظى بعد الآن بالاهتمام الكافي». «لكنك تحب كريستوف الصغير يا برنارد» قالت سيدوني بصبر. «أنت أيضاً طفل يا برنارد وما زلت في أيام الدلال». «عموماً أنا أكره كريستوف الصغير. متى سيأتي فريتز؟ هل سيقضي ليلة الميلاد هنا؟».

في تستيدت قامت راحيل وكارولين باستخراج الملفوف المخبأ تحت الرمل في قبو المؤونة والبطاطا المدفونة في تربة الفناء.

كان فائض المؤونة قد رتب داخل خزانة في المطبخ مع حصص مضاعفة من شراب الشنابس الذي يضمر في مذاقه عزاء عن حرارة الشمس المفتقدة في كل وجبة. ولم يرد ذكر فريتز إلا في تعليقات أسفت فيها المرأتان من أنه لم يتمكن من قضاء عيد الميلاد معهم.

تأخر فريتز في الطريق إلى ويسنفلس. كان قد عزم على قضاء بضع ساعات في بيت شلوس في غريوناينغن، لكن في تلك الليلة بدأ الثلج بالتساقط في جميع أنحاء مقاطعة سكسوني وثورينجيا وغطت الرياح الشمالية الشرقية كل العربات والأغصان ورؤوس الملفوف بكساء بلّوري من البياض ما لبث أن تحول إلى عمى أبيض غطى كل شيء كأنه ينهض في نفس الوقت من الأرض ويتساقط من السماء الملبدة. وبينما كانت كارولين تحاول فتح ممر نحو مضخة الماء خارج البيت وصلت رسالة فريتز من غريونينغن. «يبدو أنه لم يمضِ أبعد من ذلك». قال فريتز في رسالته بطريقة تعوزها الحنكة إنه بعد أن تقطعت به السبل يشعر أنه ينام ويأكل في ضيافة أكثر البيوت كرماً في العالم. أكد لها أن الثلج كثيف بحيث لا يمكنه الخروج دون التعرض للخطر وأن المجازفة ليست من شيم رجل عاقل. علي أن أبقى هنا، لا بد من ذلك، فمن يستطيع أن يفعل شيئاً في مواجهة القدر. لقد قررت أني قدريٌّ. أجل، ربما لا يكون القدر رحيماً مرة أخرى.

«في ذلك البيت الكبير لا بد أن أحداً ما يستطيع تنظيف ممر العربات» قالت كارولين لنفسها. «لكنه كثيراً ما يتفوه بالهراء. عندما قدم إلى هنا قال إن يديَّ جميلتان وكذلك غطاء الطاولة وطقم الشاي، واقتبس أبياتاً من الشعر:

دعيني أسترق نظرة إلى المستقبل

لن تكون قلوبنا حينها مثقلة بالقلق واليأس

وسيكافئنا الحب والقدر أخيراً لتضحياتنا، بينما يصخب وراءنا محيط الشباب الهائج.

فـــي يوم ما من منتصف حياتنا ســـنجلس إلى طاولة، كل منا تزوج وإلى جانبه من يحب.

عندها سننظر وراءنا، كيف كانت البداية؟

من كان يحلم بهذا؟! أبداً لا يتنهد القلب عبثاً!».

كانـــت كارولين تعلم أن «أبـــداً لا يتنهد القلب عبثاً» عبارة من ذلك النوع الذي يكتب علـــى البطاقات، لكنها مع ذلك أوجعتها. فها هو عاشقها المجهول ينبثق من تعاستها في جلسة تضمهم هم الأربعة. لكن شاعرها كان لها وحدها فقط.

والآن دعني أعرفها
(22)

خــلال اليومين اللذيــن قضاهما مع عائلــة روكنثاين دُهش فريتز للفوارق التي لاحظها في الحياة اليومية في كل من كلوستر غاس في ويسنفلس وشــلوس في غريونينغن. لم يكن هناك في غريونينغن اســتجوابات أو مواعيد صــلاة أو قلق أو مواعظ أو خوف. أما الغضب إن حدث لأمر ما فإنه يتلاشى خلال لحظات وكان هنــاك الكثيــر من الأمور التي كانت تعتبر في ويســنفلس هدراً للوقت. وفي وقت الإفطار لم يكن أحد في غريونينغن يردد أي عبارات وهو يضع فناجين القهوة على المائدة. وكانت الحركة الدؤوبة حول الســيدة روكنثاين التي كانت مثل السيدة هاردنبرغ تعتني بطفل رضيع تشــبه صورة حدث يتكرر بشكل أبدي، وكأن الزمن هنا ليس عدواً.

لــم تكن الأخبار المتداولة حول ما يفعله الفرنســيون تثير أي اســتياء في غريونينغن، كذلك عندما قام جورج بارتداء ســترة غريبــة فإن هــذا مر دون أن يهمس أحد متفاجئــاً. قارن فريتز بألم بين جورج الصاخب والبسيط وبين شخصية برنارد الغريبة.

وبدت له زيارات العم ويلهلم إلى ويسنفلس مناسبات مزعجة يتمنى المرء فيها رحيله. أما هنا في غريونينغن فإن العلاقات بين

الأصدقاء أكثر بساطة حيث يتلقى بالجميع الحفاوة ذاتها، حتى أولئك الذين كانوا في زيارة البارحة يتم اســتقبالهم كأن شهوراً عديدة مرت على رؤيتهم.

«في أيــام الصيف نتنــاول الحلوى في الخــارج تحت زهور الليلــك. عندهــا يجب أن تقرأ علينا شــيئاً ما» قالت الســيدة روكنتاين لفريتز فتذكر أنهم كانوا في ويســنفلس ينصرفون عن المائــدة بمجرد انتهائهم من ترديد الدعاء، ولم يكن في الحقيقة متأكــداً فيما إذا كان هناك أزهار ليلك في الحديقة أم لا، وكان يرجــح أنه لم يكن هناك من ليلك. تســاقط الثلج ليوم أو يومين ففكر فريتز أن عليه اســتثمار وقته بحكمة. «لديك الآن أمنية يا آنســة صوفي» قال وهو يراقبها أمام النافذة ذاتها في الصالون، فمها الطفولي الوردي مفتوح ولســانها يمتد قليلاً دون أن تدري كأنه يتــوق لتذوق نثرات الثلج الكريســتالية على ســطح زجاج النافــذة. في هــذه الأثناء دخل روكنتاين مع جــورج وهانز وبدأ بســؤال فريتز عن دراسته كما اعتاد أن يفعل مع الآخرين، حيث كان يســألهم باهتمام عن أعمالهم، عادة اكتسبها خلال خدمته مع أمير سشــوارزبرغ كمسؤول تعبئة. تحدث فريتز بحماس عن الكيمياء والجيولوجيا والفلســفة وأشار إلى فيختة. «لقد أوضح فيختة أن هناك ذاتاً مطلقة واحدة، هوية واحدة لكل الإنسانية».

«إن فيختــه هذا محظوظ» قال روكنتاين «لدي في هذا البيت اثنتــان وثلاثون هوية عليّ الاعتراف بها». قال جورج: «أبي ليس لديه اهتمام بالعالم، فبينما كان رئيس المزارعين يبحث عنه اليوم لأمــر طارئ يتعلق بالأقنية المســدودة كان هــو يصطاد في هذا الطقس المثلج». أجاب الرجــل: «مهنتي كانت في الجيش وليس

في زراعة الخضار» ثم أضاف: «أما الصيد فليس من هواياتي. لقد خرجت في الصباح الباكر أصطاد في الثلج بحثاً عن قوت عائلتي»، ثم وبحركة تشبه ما يقوم به لاعب السحر والخفة أخرج من كيسه الذي بدا أنه قد نسيه حتى اللحظة مجموعة من الطيور الميتة التي ربطت من أعناقها إلى حبل.

«طيور التفاحي! لن تستطيع الطيران بعد الآن» صرخ جورج.

«الجميع يعتقد أنه ليس لدي ما أفعله» قال روكنثاين ثم أضاف: «بينما في الحقيقة هذه الفترة من أكثر الأوقات انشغالاً، حيث علي أن أتحمل مسؤولية تنظيم مهرجان عيد مجيء المسيح».

«أين هذا المهرجان؟» سأل فريتز فأجابت صوفي: «في غروسن على بعد ميلين من هنا، وهو الحدث الوحيد الذي يحدث هنا، عدا مهرجاني الصيف والخريف».

«ألم تذهبي إلى مهرجان لايبزغ من قبل؟» سأل فريتز.

لا، لم تكن صوفي يوماً في لايبزغ، وبمجرد ورود هذا الخاطر لها التمعت عيناها وتباعدت شفتاها. تساءل فريتز من أو ماذا تشبه بشعرها الكثيف وجمال أنفها الطويل؟ لا تشبه أمها أبداً ولا حتى بحاجبيها المقوسين. في المجلد الثالث من كتاب لافاتر «مقالات في علم الفراسة» هناك رسم يأتي بعد نموذج طباعي من تصميم يوهان هاينرش ليبس لصورة رافائيل في سن الثانية والعشرين. هذه الصورة تشبه صوفي. لا يمكن بالطبع تمييز لون ورونق بشرة الوجه في الصورة المطبوعة، لكن يمكن رؤية الروحانية الإنسانية وعينين سوداوين كالليل.

في ربع الساعة الأولى التي رأى فيها فريتز صوفي قرب نافذة الصالون تملكت قلبه، وفكر أن عليه الآن أن يتعرف عليها

جيداً. كم سـيكون هذا صعبـاً. «إن كان علينا أن نقضي حياتنا سـوية فعلي أن أعرف كل شـيء عنك». فكر فريتز أنه لا بد من المحاولة رغم أنها مـن الممكن أن تفضل اللعب مع أخيها وأختها الصغيرين اللذين يلعبان في الشـرفة الكبيرة الواصلة بين البيت والحديقة.

«أخبريني الآن، ما رأيك في الشعر؟».

«لا أفكر فيه البتة» قالت صوفي.

«لكنك لا تجرحين شعور شاعر».

«لا أحب أن أجرح شعور أي أحد».

«دعينـا نتحدث عن أمر آخـر. ما أكثر ما تحبـين؟ الطعام مثلاً؟».

«حساء الملفوف وسمك الأنقليس المدخن».

«ما رأيك بالنبيذ والتبغ؟».

«أحب التبغ والنبيذ أيضاً».

«هل تدخنين إذن؟».

«نعم، عمي أعطاني غليون».

«والموسيقى؟».

«نعم، أحبها. قبل بضعة شهور عزف بعض الطلبة في المدينة مقطوعات من موسيقى السريناد».

«ما الذي عزفوه؟».

«عزفـوا أغنيـة مـوزارت عندما يكـون الحب فـي عينيك الزرقاويـن. لا يمكن أن تكون هذه الأغنية لي بالطبع فأنا عيناي سوداوان، لكنها كانت جميلة جداً».

كانت تهوى الغناء والرقص بكل تأكيد، لكن لم يكن مسـموحاً

لها ارتياد الحفلات العامة قبل أن تبلغ الرابعة عشرة.

«هل تتذكرين سؤالي لك عندما التقيت بك لأول مرة عند النافذة؟».

«لا، لا أذكر».

«سألتك فيما إن كنت فكرت بالزواج».

«أنا أخاف هذا..».

«لم تقولي هذا عندما سألتك قرب النافذة».

«أنا أخاف هذا..».

سألها عن إيمانها فأجابت بتلقائية أنها تذهب إلى الكنيسة في أيام الآحاد لكنها لا تصدق كل ما يقال هناك، وأنها لا تؤمن بالحياة بعد الموت.

«لكن يا صوفي لقد عاد يسوع إلى الأرض».

«نعم، هذا حسن. أنا أحترم الدين لكن سيكون من السخف أن أعود لأتكلم وأمشي بعد أن أموت».

«ماذا يقول لك عمك عندما تخبرينه أنك لا تؤمنين؟».

«يضحك».

«لكن ماذا كان معلمك يقول لك عندما كنت أصغر؟ من المؤكد أنه كان لديك معلم».

«نعم، كان لدي معلم حتى سن الحادية عشرة».

«من كان هذا المعلم؟».

«الأستاذ كيجل من المدرسة المحلية هنا في غريونيننغن».

«وهل كنت تنتبهين إليه؟».

«لم يكن يصدق أن لدي قدرة محدودة على فهم بعض الأمور».

«وما الذي كان يصعب عليك فهمه؟».

«النماذج والأرقام».

«ليست الأرقام أكثر صعوبة من الموسيقى».

«كم كان مؤلماً. كان كيجل يضربني».

«لا غير ممكن».

«نعم كان يضربني».

«لكن ماذا كان يقول عمك عن هذا؟!».

«كان الأمر صعباً بالنسبة له. لكن لا بد من طاعة المعلم».

«وماذا فعل الأستاذ كيجل؟».

«قبض أمواله المستحقة وغادر المنزل».

«ولكن ماذا قال؟».

«وداعاً يا آنسة».

«لكن ألم يرجع بعد ذلك؟».

«لا، وأنا الآن كبرت على تعلم أي شيء».

نظرت إليه بشيء من القلق ثم قالت: «ربما إن رأيت معجزة كما كان يحدث في الأزمنة القديمة فسأتمكن من الإيمان أكثر».

«المعجزات لا تدفع إلى الإيمان» صاح فريتز ثم أضاف: «الإيمان ذاته هو المعجزة». نظر إليها وقد اعترتها الحيرة ثم قال: «اسمعي يا صوفي. سأخبرك بما شعرت عندما رأيتك لأول مرة بجانب تلك النافذة. عندما تقع أعيننا على أناس معينين، على أشكالهم ووجوههم، خصوصاً على عيون بذاتها وتعابير وحركات، عندما نسمع كلمات ما أو نقرأ نصاً ما فإن التأمل والتفكير يطغى على الإحساس بالوحشة، وتتعتق الذات في لحظتها من عبء التحول. هل تفهمينني؟».

هزت صوفي برأسها: «نعم أفهمك. لقد سمعت بهذا من قبل.

هناك بشر يولدون من جديد مرات عديدة في هذه الحياة».

تابع فريتز: «لا، لم أقصد هذا، رغم أن شليغل أيضاً كان مهتماً بتقمص الأرواح. هل تحبين أن تولدي من جديد؟» فكرت صوفي قليلاً ثم أجابت: «أجل، إن كنت سأولد بشعر أشقر».

ألح روكنثاين على الشاب هاردنبرغ ليبقى أكثر. لم يكن يعلم أن هذا الشاب سليل العائلة العريقة يحاول كسب مشاعر ابنة زوجته، أمر لم يكن ليعارضه البتة وهو رجل لم يكن مزاجه ليتعارض مع أي أمر بهذا الخصوص.

كانت السيدة روكنثاين تبدو في مزاج رائق وصحة جيدة رغم أنها تتكئ على عدد كبير من الوسائد. قالت وهي تهز رأسها بلطف إن ابنتها الأكبر فريدريك يون ماندلسلو ستأتي في زيارة طويلة قريباً.

«فليأتوا جميعاً إلينا» قال روكنثاين ثم أضاف «الفراق مؤلم.. أليس هذا ما يغنونه في جينا عندما يرحل الطلاب في آخر العام؟»، «أجل» أجاب فريتز، فبدأ روكنثاين بصوت عميق بدا أنه يأتي من أعماق منجم للنحاس بترديد الأغنية الحزينة بمرح لا يتناسب معها.

«يتوجب علي قبل أن أغادر بيتك المضياف أن أطلب منك الإذن بكتابة رسالة لابنة زوجتك صوفي». قطع روكنثاين غناءه مستعيداً ما تبقى من إحساسه بالمسؤولية عمن حوله: «لا اعتراض على ذلك بشرط أن تقرأ أمها الرسالة أولاً». «بالطبع، وأنا أرغب لو تعطون إذناً لها بأن تكتب لي جواباً إن رأيتم هذا ملائماً». «إذن؟ إن كان هذا كل ما يحتاج إليه الأمر فأنا أعطيها الإذن».

لا أستطيع أن أستوعبها
(23)

كتب فريتز في مفكرته: «لا أستطيع أن أستوعبها، لا أستطيع الوصول إلى كنهها، أنا أحب ما لا أستطيع إدراكه. لقد تملكتني لكنها غير متأكدة أنها تريدني. زوج أمها يؤثر عليها، وكثيراً ما كان المرح قاسياً كالتقوى. نعم، لقد أخبرتني بأنها تود لو تراني دائماً مرحاً، لكن ذلك الرجل أعطاها غليوناً. لقد كتب أوغست شليغل: إن الشكل ظاهرة ميكانيكية لأنه يتجلى بفعل قوة خارجية كنتيجة عرضية بصرف النظر عن نوعيته، كما يحدث على سبيل المثال عندما نشكل مادة هلامية فتحافظ على نفس الشكل بعد أن تتصلب. هذا تماماً حال صوفي. أنا لا أريد تغييرها لكن تتملكني الرغبة بأن أكون قادراً على ذلك عندما أريد. لكن إرادتها تشكلت خلال سنوات عمرها الاثنتي عشرة، التي لم تكن تدرك وجودي خلالها، وسأكون أكثر سعادة إذا ما رأيت بارقة أمل، مجرد بارقة تجعلها تشعر بوجودي. لكنها لتقرر أنها لا تؤمن بالحياة القادمة، أي تعجرف وأي فظاعة! صحيح أنها قالت لي: أنت تعجبني، لكنها تريد إرضاء الجميع ولن يغير هذا من طبعها. وجهها، جسدها، متعة الحياة وصحتها، هذا كل ما تريد الحديث عنه بالإضافة إلى كلابها الصغيرة. هل تعافى

مزاجها؟ خوفها من الأشـــباح، عاداتها في شـــرب النبيذ ويدها على خدها!».

فـــي البيت كانت أم فريتز ما تزال مســـتلقية في الفراش بعد ولادة كريســـتوفر الذي كان ينمو ببطء رغم وجود مربية ضخمة أحضروهـــا له من إحدى القرى. عدم التذمر عادة الأم الدائمة، لكنها كانت فـــي هذه الفترة قلقة على رضيعهـــا وبرنارد فقط. أخشى أن أحداً ما يكشف له السر ويجعله يفقد إيمانه بكنيشت روبـــرت. هكذا كانت تفكر دائماً في عيـــد الميلاد. «لا أذكر أبداً أن برنارد آمن بكنيشـــت روبرت. كان يعلم أنه مجرد رجل عجوز من المخبز بلحية مزيفة» قال فريتز لســـيدوني. لقد اعترف بهذا الســـر فقط لجاكلين جوست ولإراسموس وسيدوني التي وافقت أن إخبار أمها بهذا سيثير غضبها.

فريتز ســـحب سيدوني إلى غرفته وأخرج لها أحد المجلدات: «انظـــري، هذه لوحة تصور رافاييل. ولكن، كيف لفتاة في الثانية عشرة من عمرها أن تشبه عبقرياً في الخامسة والعشرين؟!».

«الجواب سهل، لا يمكن أن تشبهه». «لكنك لم ترها من قبل». «صحيح، لكني عندما أراها سأقول لك الشيء ذاته». أغلق فريتز المجلد وقال: «جيوبي مليئة بأشياء اشتريتها»، ثم أخرج كمية من كعـــك الزنجبيل وعلب الدبابيس والألعاب الصغيرة. «أين أضعها يا ســـيدوني؟ لـــو تعلمين كم كانت تضايقني فـــي جيوبي!». «في المكتبة، هناك ســـأقدم الهدايا». رغم أن ســـيدوني كانت متنبهة دائمـــاً لأي طلب أو نـــداء مهما كان خافتاً يأتـــي من غرفة أمها لكنها كانت تتحكم بالأمور جيداً. كانت قد أمرت عمال الإسطبل بإحضار أغصان أشجار التنوب التي قامت بتكديسها في المكتبة.

كان مفتاح هذه الغرفة في حوزتها وكانت كلما فتحت بابها فاحت روائـــح الخضرة النفاذة في الممـــر وكأن غابة كاملة قد اجتاحت البيت. «لقد اشتريت كل هذه الأشياء من فريبرغ في طريقي إلى هنا». قال فريتز ثم سأل: «أظنك كعادتك مازلت تستيقظين قبيل الفجر لتقومي بأعمالك؟».

«لا، أكـــره الحياكة. لكن نعـــم، علي أن أقـــوم بذلك» أجابت سيدوني. «أين كان إراسموس؟ كان كارل قد وصل وأنطون هناك والبـــارون قد غادر مضطـــراً إلى مناجم الملح وســـيعود في ليلة عيد الميلاد». «هذا غريب جداً يا فريتز. لقد قال إراسموس إنه سيســـافر راكباً إلى غريونينغن للقائـــك». «راكباً؟ ماذا يركب؟». «لقـــد أحضر كارل حصاناً ثانياً معـــه». «هذا حظ جيد». «ليس حظاً جيداً بالنســـبة لإراســـموس لأنه لا يســـتطيع التحكم بهذا الحصـــان فقد وقع عن ظهـــره مرتين حتى الآن». «ســـيجد من يســـاعده، الطرقات تعج بالناس بعد أن ذاب الثلج». «ولكن لماذا يذهـــب إلى غريونينغـــن؟». «حماقة!»، أعادت ســـيدوني ترتيب الأشـــياء البراقة التي أحضرها فريتز معـــه. «أظن أنه يريد أن يرى بنفسه كيف هي صوفي».

الإخوة
(24)

حظي إراسموس بأخيه عند المدخل الأمامي للبيت ثم جرى صاعداً خلفه درجات الجهة اليمنى متجاهلاً لوكاس خادم البيت ومكنسته. «لقد رأيتها يا فريتز. نعم، لقد كنت في غريونينغن. تحدثت مع صوفي خاصتك ومع أصدقائها وعائلتها». تجمد فريتز في مكانه كقطعة جليد، لكن إراسموس صاح: «إنها لا تنفعك يا أعز إخوتي». احتضن أخاه الأطول منه قامة بيديه ثم أضاف: «لن تنفعك مطلقاً يا فريتز. صحيح أنها إنسانة جيدة لكنها ليست في مستواك الثقافي. أنت شاعر وفيلسوف يا عزيزي فريتز». اختفى لوكاس مع مكنسته مسرعاً إلى المطبخ ليثرثر بما سمعه. «من أعطاك الإذن بالذهاب إلى غريونينغن؟»، سأل فريتز محافظاً على هدوئه حتى اللحظة. «صوفي غبية يا فريتز». «أنت مجنون يا إراسموس».

«لا، لست مجنوناً يا فريتز».

«سألتك من أعطاك إذناً بالذهاب إلى غريونينغن؟».

«عقلها فارغ».

«الأفضل لك أن تصمت».

«فارغ كإبريق جديد يا فريتز».

«اصمت!».

تشبث إراسموس برأيه بعناد، وبدا الأخوان أمام مدخل البيت في عراك بدا للناس فضيحة ذكرتهم بحادثة برنارد الذي كاد يغرق في النهر. الولدان الأكبران من عائلة هاردنبرغ، فخر البارون وعزوته يتعاركان الآن أمام الناس وإراسموس أصغرهما يبدو الأكثر غضباً حيث اندفعت أنفاسه في هواء الشتاء البارد كبخار حار يتصاعد من قدر يغلي. تمكن فريتز بسهولة وهو يحاول كظم غيظه من إحناء إراسموس مسنداً إياه على الدرابزين الحديدي. «هل كنت تعني ذلك حقاً؟ أثق أنك كنت مدفوعاً بمشاعر الأخوة لقول ذلك. هل تظن أني خدعت بمجرد وجه جميل؟!». «لا» قال إراسموس محتجاً. «أعتقد أنك تورطت لكن ليس بوجه جميل، إنها ليست جميلة يا فريتز، بل إنها ليست جذابة». «أقول لك ثانية، صوفي هذه ليست فارغة الرأس فقط بل لديها ذقن تبدو كبيرة بشكل مضاعف بالنسبة لطفلة في الثانية عشرة من عمرها».

«يا آنستي الكريمة، أخواك سيحطمان أسنان بعضهما هناك عند المدخل الأمامي». أعلن لوكاس ثم أضاف: «السلام والتآخي في غلوستر غاس يختفيان». «سأسرع إليهما على الفور» قالت سيدوني. «هل أخبر البارونة؟». «لا تكن أحمق يا لوكاس».

تلقى إراسموس في غريونينغن استقبالاً دافئاً رغم زيارته المفاجئة. رُحِّب به إكراماً لأخيه، وكانت البارونة تعطف بشكل خاص على الشباب الصغار والضعفاء اعتقاداً منها أنها

بتقديم الكثير من الطعام لهم تستطيع تحويلهم إلى رجال طوال القامة ومتيني البنية. لكن ما أثار ذعره أنه لم يرَ في صوفي سوى صبية صغيرة كثيرة الضجيج ولا تشبه أخواته في أي شيء. خلال زيارته الخاطفة التي دامت ساعتين رافق صوفي وصديقة لها من جيت غولداكر للمشي على التلة المطلة على النهر بما أنه لم يكن من المسموح لهما بالخروج وحدهما للتفرج على الفرسان السكارى وهم يتساقطون عن أحصنتهم مع قائد كتيبتهم في مشهد تملؤه الفوضى. نبهت الصديقة صوفي إلى أحد الفرسان برتبة عريف وهو يخلع ثيابه لكنها لم تعر ذلك انتباهاً. كانت صوفي تلفظ الكلمات بشكل خاطئ، لكن إراسموس لم يكن ليلقي بالاً إلى ذلك فهو ليس هنا ليعلمها الكلام. إنها المرة الأولى التي يرى فيها صبية من عائلة محترمة تتصرف بكل هذه اللامبالاة.

لا بد أن فريتز فقد صوابه. «إنها حالة من الثمالة. فكر بنفسك كمصاب بحالة سكر. سيزول ذلك بطبيعة الحال وتتعافي مع مرور الوقت».

توقف الجدل بينهما بسبب أجواء العيد ولأن البارون قد يعود في أي لحظة، وفي كل الأحوال لم يكن العراك بينهما بسبب الحقد إنما بسبب الحب، رغم أن ذلك لا يكفي وحده لتعود الأمور إلى طبيعتها. إنها هدنة.

كتب فريتز: «أعلم بأني أتلقى تعاطفاً أخلاقياً. كيف يمكن لذلك أن يكون حالة من السكر!

هل سأبقى بعيداً عنها إلى الأبد؟

هل الأمل بأن نلتقي

فيما نعتقد أنه لنا
لكن دون أن نمتلكه كلياً
هل ذلك ما يدعى ثمالة؟!
ستصبح الإنسانية كلها بالنسبة لي ما هي صوفي الآن، كمالاً إنسانياً وسمواً أخلاقياً
عندها لن تختلط معاني الحياة النبيلة بالأحلام الثملة».

عيد الميلاد في ويسنفلس
(25)

«ماذا يقول الصبية» سـألت البارونة بشك. كان قد سُمِحَ لها بالخـروج من غرفة الزوجية الكبيـرة والقديمة وكذلك الصعود مـع الطفـل إلى مكان آخر أكثر صغراً، مكان أشـبه بـ سـندرة (علّية البيت)، كان في وقت ما يسـتعمل لتخزين التفاح، ولم يكن على الرغم من البرد قد فقد رائحة التفاح الحلوة المرة المشـبعة بالكسـل. صعدت الممرضة وخادمة السـيدة -التي قدمت معها مـن البيت القديم عندما تزوجت- الدرجات بتثاقل، انبعث منها صوت يشـبه الصرير بالإضافة طبعاً إلى سيدوني التي صعدت بخفة.

«أوه عزيزتي سـيدوني اعتقدت أنني سمعت أصواتهم ترتفع علـى الرغم من أنها لم تكـن عالية اليوم كما كانـت البارحة.. أخبريني ما الذي يتحدث عنه فريتز؟».

«عن النعمة الأخلاقية يا أمي».

«وأنـت هل تأكدتِ أن غرفة المكتبة جاهزة؟ تعلمين أن والدك يحب أن..».

«بالطبع، بالطبع» ردت سيدوني.

«أخبريني إن كنت تعتقدين أن الصغير كريستوف قد تحسن».

أزاحت سيدوني كأنها خبيرة العديد من طبقات الأغطية، حدقت عن قرب بوجـــه أخيها الضعيف الذي نظـــر إليها بدوره مقطباً بوجـــه رجولي ثم أجابت بابتهاج: «نعـــم في الحقيقة، إنه أفضل بكثير».

«الشـــكر لله. يجب ألا أقول ذلـــك، فهي روح نصرانية أخرى، لكنني لم أحب هذه الممرضة الخاطئة إطلاقاً».

«ســـوف أتحدث إليها على الفور» قالت ســـيدوني «وأرسلها ثانية إلى إيلســـتردورف». اعتقدت سيدوني للحظة أن أمها قلقة بشأن إيجاد البديل، لكنها استدركت أن هذا ليس السبب.

«أنت تفكرين بشـــأن العودة إلى الطابق السفلي. لا، لا أعتقد أنك قوية بالقدر الكافي لمثل هذا. سوف أطلب لك القهوة».

تتبـــع عائلة البـــارون العرف القديم الـــذي تخلت عنه معظم عائلات ويسنفلس بشأن تصفية حسابات عيد الميلاد.

تحدثـــت الأم إلى بناتها وتحـــدث الأب لأبنائه وأخبراهم أولاً عن الأمور غيـــر المفرحة وبعدها عن الأمور الأكثر إســـعاداً في ســـلوكهم وتصرفاتهم خلال السنة الفائتة. طُلِبَ من شباب عائلة هاردنبرغ بالإضافة إلى ذلك أن يقدموا اعترافات بكل ما يتوجب عليهم إخبار والديهم به لكنهم لم يفعلوا.

اعتقد البارون أنه ســـيصل في وقت متأخر عما كان متوقعاً، لكنه وصل تماماً في الوقت الذي كان قد حدده.

كانت عشـــية الميلاد مشـــرقة وهادئة دون ريـــاح. تردد صدى مقرعـــة باب المطبخ في كل الفناءات على مـــدار اليوم، فلا أحد ممن طلبوا مســـاعدة أو صدقـــة من بيت هاردنبـــرغ كان قد رُدَّ خائباً علـــى الإطلاق. لكن في هذا اليوم بالـــذات كانوا يتوقعون

شـيئاً ما أكثر جوهريـة وأهمية. كان الضغط علـى العائلة في أوبرويدرسـتادت أكبر بكثير، فالبيت شديد القرب من الحدود، وكثيرون ممن لا يُسـمح لهم بالعبور إلى بروسيا خصوصاً أولئك الأشـخاص غير المرحب بهم في أي من الولايات مثل المتشردين، السـكيرين، الجنود القدامى، الفرق المسرحية الجوالة والبائعين المتجولين.. هؤلاء كان يرمى بهم كالطمي عند تخوم البلاد كأنهم قمامة تطفـو على ضفاف الأنهار. اجتمع في ويسـنفلس فقراء المدينة ومجانينها وبعض الفتيات الحوامل غير المرغوب بحملهن واللواتي لم يتمكنَّ من توفير النقود من أجل الحصول على خدمات محترف الإجهاض في الشـوارع الخلفية. أولئك الفتيات لا يأتين عادة إلى باب المطبخ لطلب المساعدة حتى يحل الليل بشكل كامل.

في المكتبة جُمعَت الشـموع ليتم إشعالها لاحقاً بأحد أغصان شجر التنوب المكدسة. أما الطاولات فقد غُطيَت بأغطية بيضاء وخُصصت طاولة لكل فرد من الأسرة وُضِع عليها اسمه المصنوع مـن عجينة اللوز المشـوية بُنيَّة اللون. لم يتـم تحديد الهدايا أو تسـمية مقدميها، وكان على كل شخص أن يخمن دون أن يعرف من قدم الهدية.

«ما المتوقع أن نغني في ليلة الميلاد؟» سأل كارل.

«لا أعـرف». أجابت سـيدوني. «أبي يحب أغنية ريتشـارد مرحباً وداعاً للأحزان».

قـال كارل: «برنارد يتوجب عليك ألا تأكل الأحرف المصنوعة من عجينة اللوز».

جُـرح برنارد وقد مضى الآن ما يقارب العامين منذ آخر مرة اهتم فيها بالحلويات. «أسـتطيع القول وبجرأة إن هذه هي المرة

الأخيرة التي سأنضم فيها لغناء إفرادي». قال برنارد ثم أضاف: «بوبيسينس يقف على الباب».

«ما أود معرفته» صرخ إراسموس، «أود أن أعرف منك يا فريتز ماذا ستقول عندما يسألنا أبي عما فعلناه خلال العام. تعلم أني كتبت لك أنك تستطيع الاعتماد عليَّ في كل شيء. لكن هل ستقوم بإخباره كما سبق أن أخبرتني، ليس بأنك وقعت في الحب، وهذا لا يحتاج إلى تبرير أكثر مما يحتاج إليه طائر ليبرر طيرانه، بل بأنك ألزمت نفسك بفتاة صغيرة في الثانية عشرة من عمرها تضحك من خلال أصابعها لترى مخموراً في الثلج؟».

«لم تقل لي شيئاً بهذا الخصوص» قال كارل بما يشبه التوبيخ أو اللوم. رغم ارتباط برنارد الشديد بفريتز كان في لحظات الابتهاج الغامر يتوقع أو يدرك وجود عوائق من مختلف الأنواع.

«لن أخبره بأي شيء غير ذي قيمة بخصوص صوفي» صرخ فريتز «إن اسمها يعني الحكمة، بالنسبة لي هي حكمتي، هي حقيقتي».

«الأضواء يا سيدتي!» صرخ لوكاس مخاطباً سيدوني وهو يسرع إلى الداخل. «والدكم المحترم قادم إلى المكتبة».

«حسناً، ساعدني إذن يا لوكاس». ترك الباب مفتوحاً فظهر أفراد الأسرة مجتمعين في الخارج، مآزرهم البيضاء تبدو كأنها بقع بيضاء في ضوء القاعة الشاحب. في داخل المكتبة ألقت بقع الضوء النارية المشعة في فضاء الغرفة بظلال كبيرة لأغصان شجر التنوب ليس على الجدران وحدها، بل على السقف أيضاً. عبقت الغرفة في الدفء بروائح الخضرة والراتنج النفاذة، بينما انعكس الضوء على الطاولات الممتلئة بحبات الجوز المطلية

باللون الذهبي وطيور في أقفاصها والزغبة في أعشاشها والعديد من الدمى المصنوعة من الخبز الأبيض بالإضافة إلى مجموعة من زجاجات المشروب الصغيرة ومنسوجات صنعتها سيدوني وما أحضره فريتز من علب الدبابيس وسكاكين الجيب الصغيرة وأشكال صُنِعت من قضبان الصفصاف ومقصات وعدد من الغليونات والملاعق الخشبية ذات المقابض الغريبة بشكل يجعلها غير صالحة للاستعمال. في هذا الإشعاع الدافئ بدا وجه البارون وهو يدخل هزيلاً رغم استدارته. توقف عند الباب وأعطى بعض التعليمات للوكاس بينما كان فريتز يقول لكارل: «يبدو عجوزاً لكني لا أستطيع أن أسهِّل الأمور عليه». دخل البارون وجلس على غير عادته على كرسي ذي مساند فنظرت إليه أسرته بفزع. كان من عادته في ليلة عيد الميلاد أن يقف خلف طاولة المكتب الكبيرة المكسوة بالجلد والتي تبقى فارغة من الهدايا والشموع في وسط غرفة المكتبة.

«لماذا يفعل ذلك؟» همس إراسموس فأجاب فريتز: «لا أدري. أخبرني شليغل بأن غوته اشترى كرسياً كهذا لكنه كان كلما جلس عليه فقد القدرة على التفكير».

عندما بدأ الوالد بالحديث كان يضرب بيده بانتظام على مسند الكرسي وكأنه يشير إلى مرور الزمن. «تتوقعون أن أقيِّم ما فعلتموه خلال العام المنصرم، كل محاسنكم وذنوبكم. تتوقعون أن أسأل عن كل ما أخفيتم عني. تتوقعون ذلك، ومن المؤكد أن من واجبكم الإجابة بصدق. نعم، تتوقعون ذلك لا شك، لكنكم مخطئون. في ليلة عيد الميلاد هذه في عام 1794 لا أريد اعترافات ولن أقوم بأي استجواب. ما سبب هذا؟ حسناً، تلقيت

رسـالة من صديق قديم بمناسـبة عيد الميلاد قال لي فيها إني بلغت الخامسـة والسـتين وإن ما تبقى لي في هذه الدنيا ليس كثيراً. لقد جعلني صديقي أنتبه إلى أنه على كل الرجال والنساء علـى هـذه الأرض أن يكونوا في ليلة كهـذه لا أكثر ولا أقل من أطفـال. لذلك -قال وهـو ينظر حوله ببطء إلـى ما يلمع على الطاولات وحبات الجوز الذهبية والملاعق الخشـبية- أنا نفسي أصبحت بشكل تام طفلاً».

أي شـيء أقل طفولة مـن وجه البارون الواسـع ذي الملامح الجلديـة القاسـية وعينيه المرتبكتين حد الوجـع تحت حاجبيه الثقيلـين كان ليبدو بالكاد قابلاً للتخيل. يبدو أن صديق البارون لم يحاول تخيل ذلك.

نظـر البارون من وراء طاولة المكتب وقال: «ألن نسـتمع إلى الموسـيقى؟» أصيب برنارد بالحيرة لما بدا مـن أبيه من رقة لم يعتدها، لكنه بدا سـعيداً لهـذا التغيير، فاعتلى درجات سـلم المكتبـة الصغير الذي يسـتخدم من أجل الرفـوف العليا وبدأ بالغناء. بصوت طفولي خالص البراءة: «لقد وُلِد فدعونا نحبه». كان الصوت الملائكي بمثابة إشارة لأفراد الأسرة المنتظرين بفارغ الصبر إلى الدخول مصطحبين معهم إميلي ذات السـنتين التي تقدمت بجرأة وفضول تجاه ما تراه وكريسـتوف الرضيع ملفوفاً في قماطه.

انبعثت من الشموع أصوات هسيس وروائح عطرة بينما كانت سـيدوني تخمدها بهدوء. تراقصت في أجـواء الغرفة الأضواء والظلال بينما كان كل يبحث عن طاولته. وقف إراسموس بالقرب من فريتز وسأله: «ماذا ستقول لأبيك الآن؟!».

ماندیلسلوه
(26)

لا شيء، قد يتقبل فريتز كل ما يجلبه القدر والحظ ولن يقول شـيئاً تجاه ذلك مطلقاً. لقد كانت المسافة بينه وبين إراسموس موجعة ومحبطة أكثر بكثير من أي شجار مع والده. تعلم في نيوديتندورف احترام المورافيين للحظ حتى في ذلك الوقت الذي ظن فيه نفسه أنه يرفض التعلم. فالحظ أحد تجليات القدرة الإلهية ولو كان قد أقام بين الإخوة المورافيين لكان من الممكن أن تكون حتى زوجته من اختيار كثيرين غيره. والحظ جلب له رسالة بريغيدر بأسرع مما هو متوقع، وأعطته إمكانية تأخير أو تأجيل مناقشة موضوع زواجه من صوفي إلى وقت ما، يكون فيه قادراً على كسب ما يكفي معيشته. لكن وكما كان يعرف يمكن للحظ وفي أي لحظة أن يعيد والده إلى حالته المعتادة، من نفاد الصبر، فقد تحدث بعد كل هذا عن أنه كان مبتهجاً ومسروراً ليوم واحد فقط.

تلقى فريتز بعد ستة أيام من عيد الميلاد رسالة من صوفي:

«عزيزي هاردنبرغ

في البداية أشكرك على رسالتك. أشكرك ثانياً من أجل قصائدك، وثالثاً من أجل دبابيس الحياكة التي أسعدتني

ومنحتني الكثير من البهجة. قد تسألني إن كان من حقك أن تكتب لي؟ تستطيع أن تكون مطمئناً بأنه يسعدني في كل الأوقات أن أقرأ رسالة منك. وأنت تعرف عزيزي هاردنبرغ يجب ألا أكتب لك أكثر.

صوفي فون كوهن».

«إنها الحكمة بالنسبة لي» قال فريتز.

بالعودة إلى يوم الزيارة إلى غريونينغن في رأس السنة من عام 1795 سأل فريتز هوشر روكنتاين: «لماذا يتوجب عليها ألا تكتب أكثر؟ هل أنا بهذه الخطورة؟».

«عزيزي هاردنبرغ، عليها ألا تكتب أكثر لأنها بالكاد تعرف الكتابة، بإمكانك أن ترسل إلى معلمها في المدرسة وتسأله! بكل تأكيد كان يتوجب عليها أن تدرس أكثر، ها ها، بعد ذلك يمكنها أن تكتب رسالة بشكل صحيح لحبيب القلب».

«أنا لا أتوخى الصحة في الكتابة لكن أريد أن أحب هذه الرسائل إلى حد أطول» قال فريتز.

جرت رسالته التالية من صوفي على النحو التالي: «لقد أعطيتني بعض الخصلات من شعرك وأنا قمت بلفها بشكل أنيق في ورقة صغيرة ووضعتها في درج الطاولة. منذ بضعة أيام عندما أردت إخراجها من الدرج لم أرَ الشعيرات ولا حتى قطعة الورق الصغيرة. لذلك أرجوك الآن أن تقصي شعر رأسك ثانية».

في زيارته الثانية لغريونينغن دخلت إلى الغرفة سيدة شابة شقراء وقوية تحمل بيدها دلواً. «فليساعدني الرب، لقد نسيت ما كان علي أن أفعله بهذا» قالت ذلك وهي تضرب بالدلو بعنف على الأرضية الخشبية المطلية.

«هـــذه أختي الكبـــرى فريدريك» قالت صوفـــي بلهفة. «إنها مانديلسلوه زوجة الملازم».

لا تشبه أمها وبالتأكيد لا تشبه أختها كما فكر فريتز.

«يريد مني أن أكتب له رسالة أخرى يا فريك».

«كلا يا زوجة الملازم» قال فريتز «أريد منها أن تكتب لي مئات الرسائل».

«حســـناً يجب أن تبـــدأ بالمحاولة» قالت ماندبلســـلوه «لكنها ستحتاج لبعض الحبر».

«ألا يوجد أي حبر في المنزل؟» سأل فريتز.

«هكذا حالنا، فنحن غالباً ما ينقصنا الصابون أو بعض السلع الأخرى».

«هنا يوجد الكثير من كل شـــيء» قالت ماندبلســـلوه. «كذلك يوجـــد حبر في غرفة المكتب الخاصة بزوج أمي وفي العديد من الغرف الأخرى. في كل مكان من البيت يمكننا أن نحصل على ما نريد، لكن الحبر لا يُستخدَم كل يوم».

كانـــت صوفي قد ذهبت فبقيت ماندبلســـلوه وحدها مع ذلك المخلوق ذي العظام الكبيرة والشـــعر الفـــاتح. تبع فريتز غريزته والتفـــت نحوها في الحال طالباً النصيحـــة: «هل تنصحينني يا زوجة الملازم بســـؤال زوج أمك فيمـــا إذا كان يوافق على خطبة بيني و...».

«لا أســـتطيع أن أنصحك بخصوص ذلك على الإطلاق» ردت عليه بهدوء.

«يجب أن تختبر مدى شجاعتك، فالصعوبة ليست فيما تطلب من الناس بل في اختيار الوقت المناســـب. أعتقد أيضاً أنه يجب

أن تأخذ بالحسبان وجود والدك».

«هو كذلك إذن» قال فريتز.

«حسناً، قد يجلس الاثنان معاً بشكل مريح يستمتعان بتدخين نوع فاخر من تبغ الغليون». حاول فريتز تخيل ذلك لكنه فشل. «بهذه الطريقة كل شيء يمكن أن يستقر دون دموع. كان زوجي يتيماً ولم يكن لديه أحد يرافقه عندما حضر لمناقشة مثل هذه الأمور مع زوج أمي عدا أخته العازبة والتي كان عليه رعايتها بالطبع».

«أنا أشكرك لهذه النصيحة» قال فريتز. «في الحقيقة أنا أعتقد أن لدى المرأة فهماً وإدراكاً أكبر فيما يخص أمور الحياة منا نحن الرجال. قد نكون نحن أفضل منهن أخلاقياً، لكن بإمكان النساء وصول الكمال الذي لا نستطيعه نحن. هذا كله على الرغم من حقيقة أنهن يخصصن بينما نحن نعمم».

«لقد سمعت هذا من قبل. هل هناك ضير في التخصيص؟ شخص ما يجب أن يهتم بهن».

خطا فريتز في الغرفة. كان للمحادثة أثر كبير عليه أشبه بوقع الموسيقى.

«أعتقد أنه بالإضافة إلى ذلك لدى كل النساء ما يراه شليغل مفقوداً لدى معظم الرجال وهو الروح الجميلة والتي غالباً ما تكون خفية أو مخبأة».

«هذا شيء مرجح فعلاً». قالت مانديلسلوه «ماذا تعتقد فيما يخصني؟».

حالما قالت ما قالته بدت جفلة وكأن شخصاً آخر قد تكلم بالنيابة عنها. توقف فريتز الذي كان قد وصل لنقطة أكثر قرباً منها ومن دلوها وركز عليها نظرة محدِّقة نصف مستسلمة.

«لا تبـــدو في غاية المتعـــة» صرخت «أنا مملَّـــة جداً وزوجي أيضـــاً. نحن الاثنان مملان. لم يكن علـــيٍ أن أذكر كلينا، فحتى مجرد التفكير بنا سوف يجعلك تقطر مللاً».

«لكن لا أجد..» وضعت يديها على أذنيها «كلا، لا تقلها، نحن المملون المتبلدون قبلنا بهؤلاء الناس الأذكياء لقيادة العالم. والكل يحب أن يعمل ســـتة أيام في الأســـبوع من أجل استمرارهم. لو فقط انقلبت الأمور لأدركوا ماذا يفعلون».

«أنا لا أتحدث عن نفســـي» صرخ فريتـــز. «نحن نتحدث عن شخصيكما سيدتي زوجة الملازم».

عـــاودت صوفي الظهور دون قلم أو ورق أو حبر. بدت وكأنها كانت تلعب مـــع بعض القطط المولودة حديثـــاً في غرفة المؤونة الخاصة بالخادمة. «إذن ها هم هناك» قالت مانديلســـلوه. لقد تذكـــرت الآن أنها أحضـــرت دلو الماء من أجل إغـــراق القطط، فالخدم كانوا جبناء بالنسبة لما يجب فعله بهذا الخصوص.

كانـــت فريدريك فون مانديلســـلوه تعيش فـــي منطقة الموقع العســـكري التابعة للانغينســـالزا مع زوجها وهو الملازم أول في فوج الأمير كليمنز. عادت إلى موطنها في غريونينغن الذي يبعد حوالي عشـــرة أميال لأن زوجها قد أُرســـل إلى فرنسا مع القوة العســـكرية لحملة رينفلد. كانت دائمـــاً تندب حظها لأنه لم يكن بإمكانهـــا العيش لفترة طويلـــة تكفي في أي مكان من أجل وضع سجادة على الأرض بشكل جيد، ولاسيما أنها تملك سجادة تركية كبيرة. فيما بعد أصبحت زوجة رجل عســـكري، وعلى الرغم من كونها ليســـت على وفاق مع هوشـــر روكنثاين لكنها ومن بين كل الجيل الأصغر كانت المفضلة لديه.

على الرغم من طريقتها الفظة ونصف العسكرية في التعامل مع الناس اســـتطاعت فريدريك أن تطور نفسها منذ أن تزوجت في السادسة عشرة من عمرها لتصل إلى نفس طريقة أمها في الثقة بالنفس وأســـلوبها في الرصانة والرزانة، وبدا كأن تمتعها بعينـــين زرقاوين - صينيتين قد فرض عليها ذلك. «أنت الأفضل بـــين الجميع. لم يكن يتوجب عليك ترك المنزل». يعتقد روكنثاين بأن من حق أي رجل أن يســـتأثر بالحضور والســـلطة في بيته. مانديلســـلوه كانت بدورها تتفقد وتحصـــي زجاجات النبيذ في بيـــت المؤونة، تقوم بإعداد حســـاباته أو تحمم القطط الصغيرة. تستطيع فريدريكا تحمل المسؤولية لكن ليس كما كانت سيدوني تفعله في بيتها، بل بدافع الشـــفقة، والاضطراب المؤلم. تستطيع ذلك ببســـاطة بســـبب مقدرتها على فرض ابتســـامة أمها على نفسها.

منذ أن ولد كونـــدز ومنذ أن ارتبط هاردنبرغ مع صوفي فإن التصـــرف الإيجابي الوحيد في حياة الســـيدة روكنثاين كان أنها جعلـــت فريدريـــكا تعود إلى المنزل. فيما عدا ذلك لا شـــيء كان ضرورياً بشكل فعلي.

إراسموس يزور كارولين جوست
(27)

لم تلتقِ كارولين بإراســـموس أبداً، لكنها عرفت أنه هو عندما وقـــف أمام الباب حتى قبل أن تعلن الخادمة قدومه. كان قصيراً وهزيلاً، وجهه مدور وعيناه ليستا بالكبيرتين ولا بالبراقتين، لكنه كان أخاً لفريتز. كذلك عرفت مما كانت قد سمعته عنه أنه عليه أن يعود أو ربما تأخر بالعودة لإتمام الفصل الدراسي القادم في هيوبرتوسبرغ.

كان كويلســـتين وراحيــل خارج المنزل، فهما مشـــغولان حالياً بشـــراء قطعة أرض لحديقة يمكنهما الوصول إليها مشـــياً على الأقدام من شارعهما. سوف يقومان بزراعة الهليون، نعم وكذلك البطيخ، سوف يبنيان بيتاً في الحديقة، إنها الجنة على الأرض. خرجا الآن لاحتســـاء القهوة مع الجيران ومناقشة المشروع الذي بات يعرفه كل شـــخص. بالطبع كانت كارولـــين مدعوة للخروج كثيراً في هذه الأيام.

«أنا آســـفة، لا يوجـــد أحد غيـــري هنا ليرحب بـــك» قالت لـــه. «بالطبع لا يـــزال أخوك يقيم معنا لكنـــه الآن في زيارة إلى غريونينغن».

أتى إراســـموس على موجة من الضعف والرقة أو بدافع من

ضميــر نحو كارولين أو بالأحرى نحــو كارولين كما تخيلها، وهو شـــيء أحس به أو وصله من خلال فريتــز. احتاج هو أيضاً لأن يتشـــارك بفزعه وهلعه تجاه تطفل شخص مثل صوفي مع أحد ما يســتطيع تفهمه. وفي الوقت ذاته تمنى أن يكتشف أو يعرف أشياء أكثر عنها ولاسيما أنه منذ نزاعه الأخير مع أخيه لم يعد بإمكانه مناقشة أي موضوع معه حتى عن طريق رسالة.

«كارولـــين أنـــا أتحدث إليك بـــكل إخلاص». طلبــت منه أن يدعوها كارولين. «لا بد أنك تعرفين ســكلوس غرينينغن جيداً، أليس كذلك؟ عمك يذهب إلى هناك عادة وربما اصطحبك معه يوماً ما». «نعم لقــد فعل» قالت كارولين ثم أضافت: «ماذا تريد أن تعرف عنها؟»، لكن إراســموس اقتحم الحديث: «ماذا تعرفين عنها؟ من هي حقيقة؟»، «لقد كنت بشــكل طبيعي صديقة أختها الكبرى التي تزوجت الآن وتركت المنزل».

«حدثيني بصراحة كارولين». ســألته: «ألم تقابل صوفي فون كوهن قبل الآن؟».

«لقد التقيت بها. ذهبت إلى سكلوس غرينينغن وطرقت الباب كما طرقت بابك. لم يعد لدي أي ســلوك لائق أو حتى أي تبرير لتصرفي. ربما جننت».

«إذن فقد رأيتها. هي ناضجة بالنسبة لعمرها».

«بطريقة أو بأخرى هي تمشي برشاقة، لها شعر جميل أسود، وهذه نقطة جيدة». للمرة الأولى بدت صريحة تجاه إراسموس.

«كيف استطاع ذلك؟».

«أود لو أنك تســتطيعين الإجابة على هذا السؤال. لقد أتيت إلى هنا على أمل أن تخبريني أنت بذلك وكذلك لأنه....».

استجمعت كارولين نفسها لكي تتمكن من قرع الجرس. «سأطلب منهم أن يحضروا بعض الأطعمة المنعشة التي لم نعد نريدها». «بالطبع لا نحتاج». قال إراسموس الذي عندما وصلت المقبلات أكل كميات كبيرة من الزوبياك وشرب الكثير من النبيذ. يبدو كشخص في العشرين من عمره، فكرت في نفسها. يشفق علي. أبداً، لن يحدث هذا ثانية، لن يحظى بأي تعاطف. لم تكن ترغب بأن يشفق عليها. «انتظر لحظة». تركته يجلس هناك غير متأكدة ماذا ستفعل -بالنسبة له لم يكن يحب أن يستمر بالأكل بينما هي خارج الغرفة- وعادت ثانية تحمل أبيات الشعر التي كان هاردنبرغ قد أرسلها لها:

«يوماً ما في أوج الحياة سنجلس كلانا في الظهيرة على مائدة
كل منا سيكون متزوجاً برفقة من يحب
عندها سوف نعاود النظر إلى ما كان عليه الوضع في الصباح
من حلم بهذا؟ لا تطلق تنهيدة القلب في الخواء...».

جلس إراسموس يفكر بما وراء الكلمات مهاناً ومحرجاً «أنتم الأربعة إذن كارولين».

«أنتم الأربعة تجلسون حول المائدة! إذن هناك شخص ما تعرفينه وتهتمين لأمره». «هذا ما تقوله القصيدة». قالت له كارولين بحذر واحتراس: «تستطيع أن تقرأها بنفسك إن أحببت». أعطته الأبيات الشعرية التي كانت قد كتبت على عجل على طول صفحتين كاملتين. «هدر كبير جداً، لم يستخدم ظهر الورقة».

«هو دائماً يكتب بهذه الطريقة».

«هل اعتقدت بأنني مغرمة بهاردنبرغ؟».

«فليسامحني الرب، اعتقدت ذلك» قال إراسموس في النهاية.
«لقــد تكلم عنك مراراً. أظن أني معجب بأخي كثيراً لدرجة أني أخادع نفســي بالتفكير بأن كل شــخص يجب أن يشــعر تجاهه بنفس الطريقة. أنا ســعيد في الحقيقة لأني كنت مخطئاً. لكن سنســتمر نحن الاثنان بالشــعور بنفس الطريقة، أليس كذلك؟ لا تفكــري بأني لن أكون منصفاً لشــابة مثلــك. كذلك يجب أن تفهمي أني وعلى الرغم من مشاركتي الدائمة لحياة فريتز لطالما علمت بأن الوقت الذي سأخســر فيــه جانباً كبيراً منه لا بد أن يأتي. كم تمنيت أنه عندما يأتي هذا الوقت ســتكون لدي القوة الكافية لإقناع نفسي بما تبقى لي. لكن يا كارولين يجب أن يكون لخيبة الأمل حدود، فنحن ســوف نســتمر وبكل تأكيد بالشعور بنفس الطريقة».
غطت كارولين وجهها بيديها: «كيف يمكنه؟ كيف يمكنه؟».

من مفكرة صوفي 1795
(28)

يناير 8

اليوم مرة أخرى، كنا وحيدين ولم يحدث الشيء الكثير.

يناير 9

اليوم أيضاً كنا وحدنا ولم يحصل الشيء الكثير.

يناير 10

حضر هاردنبرغ في منتصف النهار.

يناير 13

اليوم خرج هاردنبرغ ولم يكن هناك ما يسليني.

مارس 8

اليوم قررنا كلنا الذهاب إلى الكنيسة لكن منعنا الطقس من ذلك.

مارس 11

اليوم كنا كلنا معاً وحيدين ولم يحدث شيء يذكر.

مارس 13

كان يوم التكفير وهارتتبر كان هناك.

مارس 14

اليوم هارتتبر تسلم رسالة من أخيه.

قراءة ثانية

(29)

صادف عيد ميلاد صوفي الثالث عشر في السابع عشر من مارس 1795. قبل يومين من هذا الموعد وعدت فريتز بأنها سوف تتزوجه. في السادس عشر من يوليو أرسل كارل اللطيف والميال للمساعدة زوجاً من الأقراط الذهبية من لوتزن إلى أخيه الذي كان يقيم في تنستيدت.

كتب مرة ثانية من لوتزن في الحادي والعشرين من أغسطس:

«أرسل لك رِكاب السرج مع حزامه وكذلك قبعتَي القش التي تركت على إحداهما شريطة تتماشى مع آخر موضة. أما بالنسبة للقبعة الثانية فيمكن أن تُلبس حسب الذوق».

إحدى هاتين القبعتين كانت لإراسموس ليرسلها لكارولين والأخرى لصوفي، وتوزيعهما كان قد ترك لفريتز. بالإضافة إلى ذلك فقد كان هناك علبة لأدوات الشغل للأم وأقراط فريتز الذهبية التي كان قد تم إرسالها إلى لوتزن نقشها بناء على طلبه بالحرف (ص). مثل هذا النقش لم يكن ممكناً أن يتم من قبل أي صائغ في تنستيدت، المكان الصغير جداً الذي لا يعرفون فيه الزي السائد فيما يخص قبعات القش.

فـــي الحقيقة لم يكـــن لديهم أصلاً أي قبعات قـــش للبيع كما كان الحال في ويســـنفلس حيـــث ارتداؤها ســـيكون مدعاة لإثارة الملاحظـــات والتعليقـــات. لم يُطلب مـــن البارون فـــون هاردنبرغ الموافقة، بل حتى اســـم صوفي فون كوهـــن لم يُذكر له. من ناحية ثانية فإن آل روكنثاين لم يبالوا بالسؤال فقد كانوا مبتهجين للغاية بســـبب السعادة الجديدة التي حلت على المنزل. طُلِب من فريتز أن يكون كفيل كونـــذر الصغير في العمادة، وكان جورج قد أخبره بأن عليه أن يشتري حصاناً جديداً إن كان ينوي الزواج. بدا من المدهش إلى حد ما ألا يعتبر هوشـــر أن هناك أي إساءة في فكرة أن عائلة روكنثاين قد لا تكون جيدة كفاية بالمقارنة مع عائلة هاردنبرغ. «هي صغيرة جداً لكي تتزوج الآن. لا أدري إن كانت دورتها الشهرية قد انتظمت أم لا. في الوقت الذي ســـتتم به الخامســـة عشرة سوف نكون قد وجدنا الطريق للتخلص من خلافاتنا».

اعتقد فريتز بأن كويلستين جوست صديق والده الصدوق في موضع ثقة يمكنه من لعب دور الرسول بين ويسنفلس وغرينينغن. «لا أعتقد أن هذا ســـينفع أو يفيد بشيء». قال السيد روكنثاين بود: «ربما لاحظتم أن كرايسامتمان يعتقد أنني أبله».

قدم لها فريتز الخاتم، وبما أن صوفي لا يمكنها وضعه بشكل علني فقد علقته في رقبتها.

طلب فريتز أن يقرأ لها الفصل الافتتاحي من الوردة الزرقاء. «إنهـــا المقدمة» قـــال لها. «القصة لا يمكـــن أن أكتبها حتى الآن فلست أعلم بعد كيف ستكون. ابتكرت قائمة من الوظائف والمهن وكذلـــك من النماذج النفســـية، لكن ربما بعـــد كل ذلك لن تكون رواية. هنـــاك حقائق أخرى ربمـــا أعثر عليها فـــي حكايات أو

أساطير الشعوب». «نعم أنا أحب هذا» قالت صوفي «لكن ليس عندما يتم تحويل الناس إلى أشخاص تافهين. عندها لن يكون الأمر مسلياً».

«سأقرأ مقدمتي بصوت عال ويجب أن تقولي لي ماذا تعني». أحست صوفي بشكل جلي بأن مثل هذه المسؤولية قد أثقلت كاهلها وأصابتها بالكآبة. «ألا تعرف نفسك؟» سألته بشك. «في بعض الأحيان أعتقد أنني أعرف»، «ولكن ألم يقرأها أحد ما؟». بحث فريتز في ذاكرته... «نعم، كارولين جوست». «أوه إنها ذكية».

دخلت مانديلسلوه وقالت إنها تحب هي الأخرى أن تستمع، وأعطت صوفي حصتها من خياطة اليوم. حتى في هذا البيت المنعم والمترف يقومون بطي الملاءات والوسائد بشكل يبقيها صالحة لعشر سنوات أخرى.

كانت صوفي قد شردت للحظات مع علبة الدبابيس خاصتها. «أنت أعطيتني هذه عزيزي هاردنبرغ».

كان أبوه وأمه نائمين في فراشهما بينما دقت الساعة على الحائط برتابة وصفرت الريح وراء النافذة التي كانت ترتج.

بين لحظة وأخرى يتسلل ضوء القمر إلى الغرفة فيبدد شيئاً من العتمة. استلقى الشاب قلقاً في سريره مستعيداً ذكرى الغريب وقصصه. ليست حكاية الكنز ما يوقظ هذا الحنين الجارف داخلي، هكذا قال الشاب لنفسه. ليس لدي توق لأن أكون غنياً، لكني أتشوق لرؤية الوردة الزرقاء. إنها تسكن قلبي دائماً ولا أستطيع أن أفكر أو أتخيل شيئاً سواها. لم يتملكني شعور كهذا من قبل، كأن كل ما جرى كان حلماً أو كأن النوم قد

أخذ بي بعيداً إلى عالم آخر، فمن ذا الذي سيشغل نفسه بالورود في العالم الذي أعيش فيه حيث لم يسمع أحد عن شغف حاد كهذا بالورود؟! لكن من أي مكان أتى هذا الغريب؟ لم يرَ أحد منا من قبل رجلاً كهذا. لا أدري في الحقيقة كيف أني الوحيد الذي أُخذتُ وتملكني ما قاله لنا؟! لقد سمع الجميع ما سمعته، لكن دون أن يسترعي انتباه أحد منهم.

كم سيستغرق هذا الرجل في القراءة؟ لم تكونا متأكدتين. جلست المرأتان بصمت مع ما تخيطانه في حضنيهما. بدت صوفي شاحبة، لون فمها زهري فاتح. أجمل تداخل ممكن بين لون الوجه ولون الفم المفتوح قليلاً، الناعم والنضر والممتلئ والباهت كأنه لم يُمَس، وشعرها الداكن بلونه الطبيعي وقوته الكاملة.

أما مانديلسلوه التي كانت قد استغرقت في القراءة فقد قالت: «هذه فقط بداية القصة. كيف ستنتهي؟».

«أتمنى أن تخبريني أنت بهذا» أجاب فريتز.

«تبدو لي في حدود ما سمعت قصة أطفال».

«هذا ليس شيئاً ضدها» صرخت صوفي.

«لماذا تعتقدين أن هذا الرجل لا يستطيع النوم؟» سألها بإلحاح «هل هو القمر أم أنها دقات الساعة؟».

«لا، هذا لا يمكن أن يبقيه صاحياً، هو فقط ينتبه إلى صوت الساعة لأنه ليس نائماً».

«هذا صحيح» قالت مانديلسلوه.

«لكن هل كان بوسعه النوم جيداً لو أن ذاك الغريب لم يتكلم عن الوردة الزرقاء؟».

«ولماذا عليه أن يهتم بوردة؟» سألت صوفي «إنه ليس امرأة وليس بستانياً!».

«أوه، لأنها زرقاء، ولأنه لم يرَ إطلاقاً شيئاً كهذا من قبل» قالت مانديلسلوه. «أعتقد أنها من خيوط الكتان. نعم من بذور الكتان. نعم وأزهار أذن الفأر وكذلك القنطريون العنبري. لكن هذه كلها معروفة ولا علاقة لها أبداً بهذه الوردة. الوردة الزرقاء شيء مختلف كلياً».

«هاردنبرغ، ما اسم هذه الوردة أرجوك؟» سألته صوفي.

«سمعت باسمها مرة» قال فريتز. «لقد نسيه، وهو على استعداد لأن يخسر حياته مقابل تذكر الاسم».

«لا يستطيع النوم لأنه وحيد» تابعت مانديلسلوه.

«لكن هناك أناس كثيرون غيره في المنزل» قالت صوفي.

«لكنه وحيد في غرفته يتوق إلى وجود رأس آخر عزيز على مخدته».

«هل توافقينني الرأي؟» سأل فريتز ملتفتاً نحو صوفي.

«بكل تأكيد أود أن أعرف ماذا سيحدث» قالت ذلك بشيء من الشك.

قال: «حين تبدأ قصة ما بالنتائج فسوف تنتهي بالبحث».

لا تمتلك صوفي الكثير من الكتب. كانت تحتفظ بكتاب التراتيل وكتاب التبشير المسيحي خاصتها وقائمة ملفوفة بشريطة عن كل الكلاب التي كانت تملكها عائلتها على الرغم من أن بعضها كان قد مات منذ زمن بعيد وهي لا تتذكرها. أضافت الآن إلى مجموعتها الفصل الافتتاحي لقصة الوردة الزرقاء الذي كتبته كارولين جوست بخط يدها كما قامت بكتابة كل ما يخص فريتز.

«تحب صوفي سماع القصص» كما كتب فريتز في دفتر ملاحظاته. «لا تريد أن تبدو محرجة من حبي. حبي يوقع في نفسها أثراً كبيراً. تهتم بالآخرين ومشاعرهم أكثر مما تهتم بمشاعرها الخاصة. لكنها باردة عموماً».

«ما كتبته عنها ليس له أي معنى». قال لماندليسلوه «لكل شيء نقيض. أود أن أسألك أنت أن تكتبي لي وصفاً لها لأنك عرفتها طيلة حياتك، صورة عنها كما ترينها كأخت».

«هذا ليس ممكناً» قالت ماندليسلوه.

«هل أطلب منك الكثير؟».

«كثير جداً، أكثر مما ينبغي».

«أليس لديك مفكرة؟» سألها.

«وماذا لو كان لدي؟ أنت نفسك لديك دفتر لتدوين اليوميات، لكن هل تستطيع وصف أخيك إراسموس؟».

«هو يصف نفسه» قال فريتز والضيق بادٍ عليه.

لم يكن هناك أي شبه ملحوظ بين صوفي وأي أحد في البيت فيما عدا المنحوتة المصغرة الهزيلة التي ظهرت فيها عيناها كأنهما متورمتان وناتئتان مثل حبات الزبيب أو مثل عيني فيخته. فقط شعرها الذي كان ينساب على فستانها الأبيض المصنوع من الموسلين ما كان يستحق المشاهدة. لقد كلف هذا النحت المصغر كل العائلة، وصوفي أكثر من الجميع، عناء أن تضحك بتكلف ودون اعتدال.

طلب فريتز من هوشر لو كان بإمكانه أن يجد له رساماً ليأتي إلى المنزل على نفقته الشخصية من أجل أن يرسم ما يشبه صوفي كما كانت في الحقيقة. من الضروري أن يبقى

ذلك الرسام لبضعة أيام من أجل تحديد الخطوط الأولية، لكن الصورة نفسها يمكن استكمالها في المرسم.

«أستطيع القول بأن كل هذا سيتحول ليصبح على نفقتي فيما بعد». قال روكنثاين لزوجته في تلك الليلة. «لست متأكداً في هذه اللحظة من أن هاردنبرغ لا يملك شيئاً». لم يكن يملك هو نفسه أي شيء عدا أجره غير المنتظم كنقيب في كتيبة المشاة، لكنه طبعاً تزوج بشكل مضمون من زوجة لديها وحدها الكثير من الأملاك.

رسم صوفي
(30)

أراد فريتز أن يعثر على رســـام شاب. كانت رغبته أن يحظى برســـام يرسم من قلبه، واســـتقر رأيه على جوزيف هوفمان من كولن والذي رشحه له سيفرين.

وصل هوفمان إلـــى غريونينغن في أواخر الصيف، تماماً في الوقت الذي كانت فيه أضواء الطرقات في المساء لا تزال جيدة. وصل حاملاً حقيبة الظهر، أشـــياءه الضرورية، حقيبة الســـفر، فراشـــي الرسم وحقيبة خاصة بالأوراق والوثائق. كان من المقرر أن يكون أجره ســـتة تالر، وقد قرر فريتـــز أن يدفعها له من بيع بعـــض كتبه. لم يكن فريتز موجوداً فـــي غريونينغن لكونه فرض على نفسه العمل بجد رغم أنه كان ينوي القدوم حالما يتمكن من ذلك.

وصل الرســـام متأخراً لأن الحافلـــة تأخرت. في هذا الوقت كانت عائلة روكنثاين قد جلست لتوها على الطاولة. قدم الجميع نفسه للرسام لكن لم يخطر ببال أي منهم أن ينتظره.

أحضر الخـــادم للتو أطباق الحســـاء. أحد هـــذه الأطباق مصنوع من الجعة والســـكر والبيض، الآخـــر مصنوع من ثمار الورد البرية الزهرية، وآخر من الخبز وماء الملفوف، أما الأخير

فمصنوع من أثداء البقر ومُنكه بجوز الطيب. كان هناك عجينة ممزوجة بزيت جوز المران ورنكة سمكية مخللة، وإوزة مطبوخة بمرق دبس السكر وبيض مسـلوق جيداً وبعض قطع الحلوى. مـن الخطير كما اتفق عليه الأطباء الألمان على الأقل ألا تكون المعـدة مليئة طوال الوقت. شـهية جيـدة. وُضِع في منتصف المائدة جبل شـاهق من البطاطا المسـلوقة تنبعث منه سـحب طويلة مـن البخار بحيث يمكن لأي من الجالسـين أن يلتقط منه بشوكته الفضية الممدودة. تحول كل ذلك بسرعة كبيرة إلى مجرد بقايا.

«لا أريدك أن تنظر إلي الآن سيد مالر» صرخت صوفي على المائدة. «لا تتفحصني الآن، أنا على وشك أن أملأ فمي».

«إطلاقـاً، لا يمكن أن أفعل مثل هـذا في الدقائق الأولى من التعارف يا آنسـتي النبيلة» قال هوفمان بهدوء. «كل ما أفعله هو أني ألقي نظرة على كل من على الطاولة وأحدد حضور أو غياب الروح الحقيقية في ملامح كل أحد هنا».

«يـا إلهي، يجب ألا أفكر في دعوتك إلى العشـاء مرة ثانية» قالت مانديلسلوه «سوف أسدي لك نصيحة» قال روكنثاين متكئاً إلـى الأمام ليتمكن من الحصول على قطعـة بطاطا: «هذه ابنة زوجتي الكبرى، لا تجبها إذا كان ما تقوله يزعجك».

«ولماذا يزعجني؟ أعتقـد أن زوجة الملازم قد لا تكون معتادة على الفنانين».

«نحن نعرف هاردنبرغ» قالت مانديلسلوه.

«إنه شاعر، وهذا تقريباً مثل فنان. حقيقة لسنا معتادين عليه حتى الآن».

كان هوشر وزوجته من الريف. أما الرسام جوزيف هوفمان فقد ولد وترعرع في شارع خلفي في كولن. كان والده يعمل صانع أحذية للنساء لكن انقياده للشراب أفقده المهارات التي تمتع بها ذات يوم. تابع هوفمان دراسته في أكاديمية دريسدن كطالب فقير ولم يكن وضعه بأفضل مما هو عليه الآن. يكسب قوته من بيع لوحات مرسومة بمادة السبيدج تصور مواضيع بعيدة ويتجول قرب النهر مع راعي ماشية موثوق. بعد تجربته في الريف سوف يسرع عائداً إلى ضغط الحياة التي ألفها في مدينته. شعر في غريونينغن أنه غريب ولا يستطيع تناول تلك الكميات الضخمة من الطعام فهو لم يعتد على ذلك، كما أنه إضافة إلى ذلك لم يستطع أن يكوّن فكرة عن معظم الناس الموجودين على الطاولة. لكنه لم يسمح لكل ذلك بأن يربكه أو يحبطه. فكر في نفسه، هذا هو وقتي، سوف أقتنص فرصتي وسيرى العالم ماذا يمكنني أن أفعل.

كان قد قرر أن يرسم صوفي واقفة في أشعة الشمس، تماماً عند نهاية مرحلة الطفولة وعلى تخوم اكتمال المرأة وابتهاجها وأن يُضمِّن في لوحته مانديلسلوه أختها زوجة العسكري والتي من المحتمل أن تكون قد ترملت وهي جالسة في الظل كضحية تجسد قدر المرأة. كما أنه عزم على الطلب منهم الوقوف من أجله بجانب أحد التماثيل الصغيرة الكثيرة على جانب الطريق مستسلمين لذاكرة ملاك الأراضي المحليين والمحسنين.

كان من الممكن للأحرف الموجودة على التماثيل أن تُرى لكن وبسبب الطريقة التي كان يسقط فيها الضوء لم تكن واضحة. جعله الضغط الذي نتج عن هذه الأفكار المتدافعة من تلقاء

نفســـها إليه بقوة الشعر يضع شوكته وســـكينه جانباً ليقول بكل وضوح ومن دون مواربة أو أية مبالاة بالأصوات العالية من حوله: «نعم، هناك، تماماً هناك».

«أين؟» ســـألت السـيدة روكنثايـن التي كانت قـد رأته الآن كشخص مثير للتعاطف أكثر من قبل.

«أود أن أرسـم ابنتيـك بالقـرب مـن البحر تجلسـان على الدرجات الحجرية، الحجر المكسـور البالي بينما تلوح من بعيد لمحة خاطفة للبحر».

«نحن بعيدون عن البحر» قال روكنثاين متشـككاً. «أسـتطيع القول إننا على بعد مئة وثمانية أميال. سـيكون هذا إستراتيجياً إحدى مشكلاتنا».

«الإستراتيجية لا تهمني» أجاب الرسام الشاب. «إراقة الدماء لا تهمني. عدا ذلك، ماذا يعني البحر بالنسبة لك؟ طبعاً بالنسبة للحضور المادي، فإن البحر لا يعني ولا يوحي بشـيء سـوى الماء المالح».

فـي الحقيقة لم يكن أحد منهم قـد رأى البحر من قبل عدا روكنثايـن الـذي كان قد أقام فـي الفوج الخـاص بهانوفر في راتزبورغ. قالت السـيدة روكنثاين كمن يوشـك على اقتراف إثم إنه عندما كانت شـابة كان يسـود اعتقاد بـأن هواء البحر غير صحي أبداً، لكنها ليسـت متأكدة تمامـاً مما يقوله الأطباء عن البحر في يومنا هذا.

لم أستطع رسمها
(31)

تســـاءل كل أهل البيت كيف يمكن لصوفي أن تبقى جالســـة بهدوء طوال المدة اللازمة. رســـام الصور المنمنمة وقريب العائلة العجوز لم يكن يطلب منها أن تبقى ســـاكنة إطلاقاً بل اعتاد أن يدعهـــا تتحرك وهو يرســـم ظلها على قطعة مـــن ورق الكرتون الأبيض. أما هوفمان فقد قام برسم مسودات تخطيطية مرتجلة خلال ســـفره، الآنسة كوهن تركض، الآنسة كوهن تصب الحليب مـــن إبريق. بدا بعد كل هذا بأنه ســـيعمد إلى نـــوع من التعقب وسوف يقضي وقتاً أطول في غرفته.

«أتمنى من كل قلبي لو كان هاردنبرغ معنا هنا» قال روكنثاين. «هذا الرســـام مرحـــب به بيننـــا وأعتقد أننا فعلنـــا خيراً حين أعطينـــاه واحدة من غرف التجفيف الموجودة في الطابق العلوي ليستخدمها كمرسم. لكن لا أستطيع القول بأنه يحس نفسه في بيته. على النســـاء أن يعتنين بهذه الأمور». بالطبع عنى بالنساء مانديلسلوه التي كانت ذات صبر قليل مع هوفمان.

«لقد تـــدرب على ما أعتقد لكي يكون إســـكافياً. تدرب لكي يصلِّـــح الأحذية أو ليكون جندياً يضـــرب أعداءه. عليه أن يأخذ قلمه الرصاص وفراشي الرسم ويبدأ العمل بنشاط».

«نعم ولكن ربما لا يستطيع أن يجد الشبه» قال روكنثاين «هي خدعة كما تعلمين، فأنت لا تتعلمين هذه الأشياء. يولد المرء وهو قادر على ذلك، وهذا هو الحال بالنسبة لأولئك الأشخاص -دورير، رافائيل وكل الأنداد- بهذه الطريقة يجمع أولئك نقودهم».

«لا أعتقد ذلك، فمن الواضح أن هوفمان لم يحصل على الكثير من النقود»، قالت مانديلسلوه بشيء من الشك.

«إنهم يملكون نقوداً أكثر بكثير مما ينفقون، نستطيع قول ذلك إذا ما حصلوا على الشبه».

كانت صوفي حزينة من أجل هوفمان وقد دفعتها غريزة المواساة الموجودة فيها والتي ورثتها عن أمها لأن ترى كل ما أحضره من رسومات في حقيبة الأوراق الخاصة به ولأن تمتدح كل شيء. لقد رأت كل ما شاهدته على أنه معجزات.

أخيراً تنهد هوفمان «أنت أيضاً درست الرسم، أنا متأكد من ذلك يا آنستي النبيلة. يجب أن تريني ماذا رسمتِ». «لا، لم أفعل ذلك» قالت صوفي «كنت أمزق كل شيء بمجرد أن يغادر أستاذ الرسم». لا تبدو ساذجة، فكر هوفمان.

مفكرة صوفي:

الثلاثاء 11 سبتمبر

في هذا اليوم لم ينزل الرسام من غرفته صباحاً من أجل الإفطار. أرسلت له زوجة أبي القهوة مع أحد الخدم، لكنه قال من وراء الباب إنه يتمنى لو تترك له فرصة للتفكير.

الأربعاء 12 سبتمبر

بدأنا بتخليل توت العليق.

الخميس 13 سبتمبر

اليوم كان الطقس حاراً وكان هناك رعد ولم يحدث أي شيء وهاردنبرغ لم يحضر.

الجمعة 14 سبتمبر

اليوم لم يأت أحد ولم يحصل أي شيء.

السبت 15 سبتمبر

لم ينزل الرسام من غرفته لاحتساء مشروب الشنابس معنا.

الأحد 16 سبتمبر

لم يأت الرسام لحضور قداس الرب معنا.

الإثنين 17 سبتمبر

قال زوج والدتي: «هل ما زال ذلك الرسام في الغرفة العلوية؟ لنتمنى ألا يكون قد اصطحب إحدى الخادمات معه إلى السرير».

مدفوعاً بفضوله لمعرفة فيما إذا كان هذا هو الحال فعلاً جلب جورج سلماً من الإسطبلات وأسنده إلى نافذة غرفة الرسام المفتوحة لالتقاط أي نأمة في الخارج. كان من المستحيل تخيل مثل هذا الفعل في ويسنفلس بالإضافة إلى أن جورج على عكس برنارد لا يمكن أبداً أن يفتش في أمتعة أي زائر.

طلب من أحد صبيان الإسطبل أن يمسك بالسلم ويثبته ثم تسلق إلى الأعلى.

«هل ترى أي شيء» صاح الصبي الذي يشاركه جورج كل نشاطاته.

«لست متأكداً فهناك ظلام في الداخل. انتظر قليلاً يا هانسل، أعتقد أنني أستطيع أن أسمع نوابض السرير تصطك».

لكن هانسل فقد أعصابه ولم يمسك بالسلم جيداً فمال ببطء جانباً في البداية ثم سقط. رفع جورج صوته عالياً طالباً المساعدة في اللحظـة التي تمكن فيها من القفز، لكنه وقع وارتطم الجزء الخلفي من رأسـه على أحجار الرصيف. أصدرت أزرار سترته النحاسـية صوتاً تبعه بعد لحظة صوت ارتطام رأسه بالأحجار كأنه سـقوط طرد غير مرغوب بـه. كان محظوظاً فقط لأنه لم يُكسر له سـوى عظم الترقوة، ولم يكن موجوداً في اليوم التالي عندما غادر الرسام غريونيننغن.

اسـتقل هوفمان وحيـداً الحافلة مع متاعـه، حقيبة أوراقه وفراشـي الرسـم وكل أدواته، ومرة ثانية كان روكنثاين في غاية الرقة معه وقال مودعاً: «أنا آسـف لأنك لم تجد الظرف مناسباً للقيام بعمل أكثر سـيد مالر. يجب أن تسـمح لي بأن أدفع لك مقابل الوقت الذي قضيته».

«لا، أجري مدفوع من قبل هاردنبرغ، وأنا سـوف أشرح له كل ما يخصني». قال الرسام ثم أضاف بحزم «في كل الأحوال، يجب ألا تعتقد بأنه ليست لدي موارد».

توافق هـذا مع قناعة روكنثاين بأن الرسـامين في الحقيقة يعرفون حيلة أو اثنتين وأحس بأنه أكثر ارتباكاً. «أنا آسـف لأنك اضطـررت للبقاء كل هـذا الوقت في الغرفـة العلوية. لكن ألم يرسلوا لك كل ما أردت؟ ألم يطعموك؟».

«لقـد حظيت بضيافة كريمة» قال هوفمـان. «أتمنى لجورج الشفاء العاجل».

غادر جورج الفراش سريعاً وعاد إلى حياته، لكنه كان غاضباً لأن هانسـل وفي الوقت الذي كان يرقد فيه مريضاً، قد تعرض للضرب

من قبل المسؤول عن سائقي المركبات وكان على وشك أن يصرف من الخدمة. لم يكن بإمكان أحد حتى هوشر أن يحتج أو يتذمر ضد أي من قرارات رئيس السائقين. «لا يوجد عدالة في هذا البيت» صرخ جورج. «لقد فشل هذا الرسام تماماً في أن يرسم أختي ومع ذلك لم يتلقَ سوى الإطراء والمديح بينما هانسل يفعل ما يُطلب منه».

«لم يطلب منه أحد أن يفلت السلم» قال هوشر.

كانت ويسنفلس في طريق عودة هوفمان إلى دريسدن. أحس بالحاجة إلى منشـــط على الرغم من أنه لم يعتد الشراب كثيراً، وعندما توقفت الحافلة نزل وذهب إلى محل وايلدمان حيث وجد فريتز.

هـــذا ليس ما أردته، فكر بنفســـه، لكن لا بـــد من أن أوضح نفسي في وقت ما. عانقه فريتز: «رسام الصور».

«أتيـــت إلى هنا لأني فكرت أنك إن كنت في ويســـنفلس فلن تكون سوى في بيتك، وكنت أخشى لقاءك».

«لا تكن بائساً إلى هذا الحد يا هوفمان، لقد وصلتني رسالة من صوفي نفسها، وأنا على علم ليس فقط بأنك لم تنهِ اللوحة، بل بأنك لم تبدأ بها أيضاً. هل أطلب لك شنابس؟»

«لا لا، كأس مـــن البيـــرة الخالصـــة لو تكرمـــت». لا يتعاطى هوفمان أي مشروب قوي خشية أن يتبع خطا والده.

«حسناً، دعنا نتحدث. بالتأكيد قمت بإعداد المخططات؟».

«نعم قمـــت بإعدادها، وهي لـــك إن أردت لكنني غير مقتنع بها».

«من الواضح أنه لم يكن من السهل أن ترسم صوفي. لكن هل تعرف ذلك النقش الموجود على اللوحة الشـــخصية لرفائيل في

الجزء الثالث من كتاب لافاتر علم الفراسة؟».

«نعم أعرفه».

«ألا تعتقد بأن صورة رفائيل هي صورة صوفي خاصتي؟».

«كلا» قال هوفمان. «عدا العيون التي تبدو داكنة في الحالتين. هناك شبه قليل جداً». أصبح ذهنه أكثر استقراراً بعد أن رشف رشفة من مشروب الإنفشيه الكئيب، الذي يشبه ماءً طبخت فيه الفاصولياء.

«هاردنبرغ، أتمنى ألا تشكك بمهاراتي. لقد تلقيت ثماني سنوات من التدريب في دريسدن حتى قبل أن يتم قبولي في صف التعليم. لكن الحقيقة هي أنني هُزمت بسبب الآنسة فون كوهن. في البداية كنت أكثر اهتماماً بالمكان والخلفية، لكن بعد فترة وجيزة لم يعد كل ذلك يعنيني، الآنسة المدهشة هي التي حيرتني وأربكتني».

«إن إحساس الفنان يبرر تصرفاته» قال فريتز. لا بد أن يكون هذا حقيقة لأن الفن والطبيعة يخضعان لنفس القوانين».

«هو كذلك. لا يمكن للإحساس الحقيقي الخالص أن يتناقض مع الطبيعة أبداً».

«أنا نفسي في حقيقة الأمر لا أفهم صوفي» استرسل فريتز «لذلك طلبت رسم لوحة جيدة لها، لكن ربما لم يكن من الواجب أن نتوقع أنك....».

«أوه، أستطيع أن أرى بالإجمال كيف يمكن أن تكون» قاطعه هوفمان بتهور: «فتاة محترمة من السكسوني، طيبة القلب تتغذى على البطاطا، يزهر فيها ثلاثة عشر صيفاً وتمتلئ بالوهج القاسي لثلاثة عشر شتاءً». تجاوز كل الاحتجاج الذي كان فريتز

قــد بدأه، أو بالأحــرى تجاهله في خضم رغبته في أن يشــرح نفســه. «هاردنبرغ، في كل كائن ســواء كان حيــاً أم جماداً كما نقول هناك سعي للتواصل. حتى بين الأشياء الصامتة كلياً هناك أســئلة تُطرح. هناك دائماً سؤال، سؤال مختلف لكل كائن، وهو بالنســبة للغالبية لا يُصاغ بكلمات حتى بين أولئك الذين يتقنون الكلام. ســؤال يُسأل باستمرار رغم أنه يُلحظ بصعوبة ويتناهى كتلميح مثل جرس الكنيســة الذي يُســمع عبر المروج والأسوار. من الأفضل بالنسبة للرســام حالما يرى أن يغمض عينيه، عيناه الحقيقيتان وليس عينَي الروح ليتمكن من الســماع بشــكل أكثر وضوحاً. لا بد أنك اســتمعت لذلك يا هاردنبرغ. بالنسبة لسؤال الآنســة صوفي لا بد أنك متوتر جداً لمعرفته على الرغم من أن هنــاك احتمالاً كبيراً كما أعتقد أن صوفي نفســها لا تعرف ما هو».

«أنا أحاول أن أفهمك» قال فريتز.

وضــع هوفمان يده على أذنه في حركة بدت غريبة بالنســبة لرجل شاب.

«لم أتمكن من سماع سؤالها ولذلك لم أستطع أن أرسم».

الطريق المؤدي إلى الداخل
(32)

لم يجازف فريتز باصطحاب الرسام إلى البيت حيث سيقول شيئاً بالتأكيد لأهله عن صوفي. لم يكن لديه حل غير وداعه عند محـــل وايلد مان عندما غادرت الحافلة إلى كولن. لم يكن فريتز يرغب بالذهاب مباشـــرة إلى البيت فسلك طريقاً قصيراً خارج البلدة يؤدي إلى باحة الكنيســـة التي يعرفهـــا جيداً. كان الوقت خلالهـــا قد أصبح في الجـــزء المتأخر من بعد الظهر حيث امتد الأزرق الباهت فوق الأصفر الواضح مع الوضوح المحترق في أفق السماء الشـــمالي الذي يتمدد متحولاً أكثر فأكثر إلى الشفافية حتى يصل إلى البوح والكشف.

كان المدخل إلى باحة الكنيســـة عبارة عن بوابة حديدية كبيرة تعلوها أحرف مذهبة مجدولة. كانت بلدية ويســـنفلس قد قررت أن تضع ســـياجاً حديدياً أيضاً، لكن سياج الأوتاد الخشبية كان لا يزال حتى هذه اللحظة قادراً بشكل أو بآخر على إبقاء الأبقار فـــي الفناء الأمامي لراعي الأبرشـــية، بعيدة عـــن القبور، وعلى عمـــق يغمر الركبتين من الروث المتراكم يمكنها أن تراقب المارين

دون أدنى فضول. مشى فريتز بين روابي العشب التي كانت الآن مع الممرات الخضراء بينها تقريباً غير مرئية من خلال السديم المرتفع، وكما هو الحال في معظم فناءات المقابر كان هناك العديد من الأشياء المتروكة -سلم حديدي، سلة عشاء، عفش- وكأن هناك أعمالاً معينة، دائماً تستكمل، ودائماً عرضة لأن تتوقف. ظهرت الصلبان الحديدية والخشبية وكأنها تنمو من الأرض، والأصغر منها يناضل من أجل أن يصبح بطول الصلبان الأخرى بينما وقع بعضها. لا يمكنك القول إن ساحة الكنيسة التي كانت مكاناً للنزهات العائلية في أيام العطل الرسمية قد أهملت، لكن لم يعد الاهتمام بها كما كان من قبل فهناك أعشاب ضارة، وكذلك هناك بعض الإوزات، بينما اجتمعت بعض الحشرات اللادغة من أكوام الروث ومن المساحات المجاورة على شكل سحابات انتشرت في الهواء المثير للغثيان.

يكاد الصوت الثقيل لأبقار راعي الأبرشية يُسمع من بعيد في المقبرة حيث تنفصل القبور والفضاءات الخاوية والساكنة عن بعضها الآن بسبب السديم، وقد غدت كجزر خضراء داكنة أو غرف خضراء للتأمل. على واحدة منها فقط، وعلى مسافة قليلة أمام فريتز وقف رجل شاب مازال صبياً تقريباً في شبه العتمة ورأسه محنيّ، كان متشحاً بالبياض، صامتاً وكأنه نصب تذكاري. كان المشهد بمثابة تعزية بالنسبة لفريتز الذي أدرك أن الرجل الشاب ورغم أنه حي فهو ليس ببشر، بل حتى هذه اللحظة لم يكن هناك من حدود بين الاثنين. قال بصوت عال «إن العالم الخارجي هو عالم الظلمة الجزئية. إنها تلقي بعتمتها على مملكة الضوء. كم ستكون الأشياء مختلفة عندما تنقشع

العتمة ويزول الجسد الزائف. إن الكون في النهاية في داخلنا. الطريق تؤدي إلى الداخل، دائماً نحو الداخل».

عندما عاد إلى كلوسترغاس بدافع أن يخبر أحداً ما عما رآه سألته سيدوني في الحال عن ذلك الرجل الذي كان يتحدث إليه بكل ذلك الانفعال في وايلد مان، لقد رآهما غوتفريد. «أوه، إذن هو الرسام المسكين؟»، «لماذا مسكين؟» سأل فريتز. كان غوتفريد قد قال إنه كان هناك دموع في عينيه. «حسناً، هل تمكن من رسم اللوحة؟» سأل إراسموس. «كلا» قال فريتز «لم ينجح في ذلك». لقد فعل كل ما بوسعه ليسامح إراسموس. كانوا عادة لا يناقشون أمر صوفي ضمن مجريات الحياة العادية وكان فريتز يعتبر أخاه همجياً وعنيداً.

«ألا يوجد هناك رسوم أولية؟» سألت سيدوني.

«نعم، القليل منها» قال فريتز «لكنها كانت مجرد تدوينات وملاحظات فقط. خطوط قليلة، غيمة من شعر. لقد قال إنها عصية على الرسم. ما يقلقني هو خاتمي لأنه كان من المفترض أن تُنقش عليه نسخة مصغرة من اللوحة. يجب علي الآن أن أقنع نفسي بذلك النقش المنمنم».

«لا تستطيع أن تترك الخاتم من دون شيء» قال برنارد الذي دخل بخطوات صامتة قادماً من المدرسة. «دائماً يُنقش ويعاد نقشه. يبدو أن من الأفضل تركه دون زخرفة».

«أنت لم تره أبداً» قالت سيدوني. «لم يره أي منا على الإطلاق». ابتسمت سيدوني في وجه أخيها الأكبر.

«يمكنني القول إنك في النهاية لست آسفاً لكون صوفي غير قابلة للرسم». كانت سيدوني تفكر بقلق حول غوتفريد، فربما

يُسأل عن الغريب الذي كان في وايلد مان، ولن يكون بوسعه في هذه الحال أن يفعل شيئاً، سوى قول الحقيقة للبارون. لكن غوتفريد لا يعرف أن الرجل الذي رآه هو الرسام، إضافة إلى أن سيدوني كانت مطمئنة أيضاً لفكرة أن أباها لا يركز تفكيره على أكثر من موضوع واحد في نفس الوقت. كان مشغولاً في الفترة الأخيرة براحة أمها، فقد سمح مرة ثانية بدخول صحيفة لايبزغر زايتونغ إلى المنزل وكان قلقاً في نفس الوقت لمعرفة كم من المعلومات جمع فريتز خلال زيارته إلى مناجم الملح التابعة لآرتن. بعد ذلك تمنى لو يناقش أو حتى يدلي بآرائه بشأن بونابرت الذي يعتقد أنه في المجمل أظهر ملامح من الكفاءة.

دخل فريتز إلى المنزل القديم المطلي بلون داكن حيث كان يُسمع صوت ترنيمة غناء المساء من خلف الأبواب المغلقة في أرجاء المطبخ. اتجه أولاً إلى حيث أمه والصغير كريستوف، نحيلاً كالخيال ومصاباً بحمى الصيف. «هل أنت على ما يرام يا فريتز؟ هل تحتاج إلى أي شيء؟ هل أنت سعيد؟»، كان بوده لو يطلب منها أن تعطيه شيئاً أو أن تقول له شيئاً، لكنه لم يستطع أن يفكر بأي شيء. سألته بشكل غير متوقع: «هل تخفي أي شيء عن والدك؟»، أخذ فريتز يدها: «يجب أن تثقي بي يا أمي! سوف أخبره بكل شيء»، صرخت بنشاط هادئ غير معهود: «لا بحق السماوات، مهما يكن ذلك، لا تفعل هذا!».

في جينا
(33)

ذهـــب فريتز لرؤية أصدقائه في جينا قبل أن يباشـــر العمل بشـــكل جدي بعد أن أدرك في آرتن كيف سيكون الوضع عندما يبـــدأ العمل. يمكن لغول أن يمشـــي الثلاثين ميلاً، حتى وإن كان دون حماس، فهو لم يأت لرؤيتهم منذ قرون على حد قول كارولين شليغل. «نحن نتمنى أن نسمعه يتكلم، كما كان يفعل دائماً» قالت دوروثي شليغل، «أن يقول شيئاً عن المطلق والجوهري».

ذكرهـــا جون ويلهلم ريتر وهو ضيف يتـــردد على بيتها غالباً بأنـــه لا يمكن الحكم على هاردنبرغ بأي معايير عادية، ولا حتى المعايير المألوفة في جينا. «بالنســـبة له لا يوجد عائق بين ما هو غير مرئي وما هو مرئي، فالوجود ككل يتلاشـــى بنفسه متحولاً إلى أسطورة أو خرافة».

«ولكن هذه هي المشـــكلة» قاطعته كارولين، «هو اعتاد بالطبع أن يقـــول إن العالـــم في كل يـــوم يتقدم تدريجيـــاً وباطراد نحو اللانهاية. الآن قيل لنا إنه يمتع نفســـه باســـتخراج الملح والفحم البني وتنقيتهما، وهذا لا يمكن أن يتلاشـــى إلى أســـطورة مهما حـــاول جاهداً من أجل ذلك». «لقد تعهد غوته نفســـه بأن يدير منجماً للفضة تابع للدوق ساكس فيمر» قال زوجها.

«انتهـــى منجـــم غوتـــه دون أي نجاح إلـــى الإفـــلاس، بينما أنا أعتقد بأن هاردنبرغ ســـوف يتمكن من إدارته بشكل فعال، وهذا ما لا يمكنني مسامحته عليه. سوف يتزوج في النهاية من ابنة أخت (أخ) كرايسامتمان، وبوقتٍ قصيرٍ جداً سيصبح هو نفسه كرايسامتمان».

«أنا آسف لأنه ســـمح لنفسه أن يكون موضعاً للسخرية» قال ريتر.

«لن يكون هذا على حســـاب الفلسفة أو حتى هوسه بالملح. هذا لأن له أيديَ كبيرةً جدًا وأرجلاً»، قالت كارولين. «نحن جميعاً نحبه».

«إلى حد بعيد نحن نحبه» قالت دوروثي.

في خريف جينا تمشى الأصدقاء في غابات الصنوبر المشرفة على المدينة الصغيرة، أو في الفردوس كما كان مجرى نهر السال يســـمى في جينا. كان يمكـــن أحياناً رؤية غوته الـــذي غالباً ما يقضـــي الصيـــف هنا في الفردوس يتمشـــى ويداه متشـــابكتان خلف ظهره وهو مســـتغرق بالتفكير الحالم. يبلغ الآن من العمر السادســـة والأربعين، ويُشـــار إليه من قبل نساء شليغل بسيادته العريق والجليل. لا يرغب غوته عادة بلقاء العديد من الناس في الوقت نفسه.

كلما تقدم به العمر تفرق الأصدقاء بشـــكل بارع قبل أن يُلزم نفســـه بلقائهم. أما فريتز فقد تخلف عـــن الآخرين غير آبه أو طامح لاهتمام مثل هذا الرجل العظيم.

«وعلى الرغـــم من ذلك مـــازال لديك الكثيـــر لتقوله» قالت كارولين، «تســـتطيع أن تتكلم معه كأي رجل شـــاب أو شـــاعر له مستقبل».

«ليس لدي ما هو جدير بأن يراه».

«لا تكترث لذلك» قالت له «تستطيع أن تتحدث يا هاردنبرغ، تحدث عن الملح».

كانت الأمسيات الحوارية والموسيقية في جينا مزدحمة جداً، لكن لم يكن كل ما يقال رائعاً، أو في الحقيقة ذا قيمة تذكر، وكثيراً ما وقف بعض الزوار بشكل مرتبك للتأكد من أنهم مدعوون، لكن الآن وقد وصلوا فإن أسماءهم ستبقى في الذاكرة.

«ديتمالر!».

«هاردنبرغ! لقد عرفتك حالما دخلت إلى الغرفة».

«كيف دخلت الغرفة؟».

نادراً ما أحب ديتمالر أن يقول إنك ما زلت تبدو سخيفاً ومضحكاً، وإن كل شخص مازال مع هذا يسعد برؤيتك. إنها كجرح أو كفجوةٍ لا يمكن معالجتها بين أيام الدراسة وتلك الأيام التي تلتهاً.

«هل أنت طبيب جراح الآن؟» سأله فريتز.

«ليس تماماً، لكن قريباً. ألم تلاحظ، أنا لم أبتعد كثيراً عن جينا. عندما أتخصص لن أتصرف بشكلٍ سيئ جداً. أمي مازالت على قيد الحياة لكن ليس عندي أيٍ إخوة أصغر الآن ولا حتى أخوات».

«الحمد لله أنا عندي الكثير من الإخوة والأخوات» صرخ فريتز باندفاع «تعال وأقم عندنا في ويسنفلس يا صديقي العزيز. لم لا تزورنا؟».

هكذا بدأت فكرة الزيارة التي شهد فيها ديتمالر يوم الغسيل في ويسنفلس حين قال للبارون فون هاردنبرغ بكل إخلاص إنه لا يعرف شيئاً بخصوص تورط ابنه مع امرأة شابة من الطبقة الوسطى أو مع أي امرأة أخرى.

منزل الحديقة
(34)

سمعت كارولين للتو في تنستيدت أن عائلة روكنثاين قد طلبت من فريتز أن يقف كعرّاب لغونذر، الطفل الجديد. فكرت «إنهم يحاولون أن يشدوه إليهم بروابط من حديد».

كان إراسموس الذي كتب إليها من هيوبرتوسبرغ حليفها الوحيد. «أنا جاهز كما كنت قد شرحت لك لآخذ مكاناً أصغر من ذي قبل في حياة فريتز. على الأقل لن أسمح بأن يؤخذ منا وتستولي عليه طفلة طماعة. وبالمناسبة، إنها لن تبقى كذلك وسوف تتغير، كما أني بالإضافة إلى ذلك لا أحب هذه الفكرة.

عاد فريتز إلى تنستيدت وذهب إلى المطبخ قائلاً إن غبار الطرقات الصيفية يكسوه بشكل يجعله غير ملائم للغرفة الأمامية. «أين كرايسامتمان؟ أين السيدة راحيل؟».

«وماذا يهم أينما كانوا؟» هذا ما أحست كارولين بأنها ترغب بالإجابة به «لقد غبت لفترة طويلة، والآن هذه فرصتك لتتحدث إلى شخص ما يفهمك بشكل حقيقي، ألم تقل إننا مثل ساعتين تم ضبطهما على نفس الوقت؟» قالت بصوت عال «إنهما في بيت الحديقة. نعم لقد انتهى أخيراً».

«يجب أن أراه» قال فريتز. كان يغسل يديه ووجهه تحت المضخة، لكن ما إن وضعت الشال عليها حتى أضاف بصوت فيه الكثير من الرقة «عزيزتي جوستن، لا تظني أني نسيت الأشياء التي كنا قد تحدثنا بها منذ وقت ليس بالطويل» كانت كارولين قد اعتقدت فعلاً بأنه نسي معظم الحديث الذي دار بينهما. بعد أن جفف نفسه أضاف «لا يمكن للقلب أن يتلهف أو يشتاق من فراغ، يا جوستن». لم يكن سهلاً أن تعرف إن كانت سعيدة أم لا. شيء ما في فمها طعمه أشبه بطعم ماء الموت.

كان من الممكن أن تمشي برفقته وحدهما لعشرين دقيقة في طريقهما إلى الحديقة في منطقة بالضواحي تدعى روند، وكان من الممكن أن يعطيها ذراعه، لكن كان عليهما أن يتوقفا ويتحدثا في الطريق مع العديد من الجيران أو بعض المعارف، وكلهم سيقول «أوه يا بارون، ها أنت قد عدت من جينا». «نعم لقد عدت من جينا». «نحن سعداء بأن صحتك على ما يرام. نحن سعداء بأن نراك وقد عدت من جينا». العديد من أولئك الناس قد يستيقظ في تنستيدت، وبعد ذلك قد يذهب إلى السرير ثانية في نهاية اليوم، ربما في كل ثمانية عشر ألفاً، أو في بعض الأحوال في الوقت الحاضر أو الماضي.

«كم هو جميل أن تكون مازلت على قيد الحياة» الكثير منهم قالها، «في هذا الطقس الحار».

كانت قطعة الأرض الخاصة بعائلة جوست صغيرة وليس فيها أشجار، لكنهم كانوا قد اشتروها وقاموا بحراثتها وزراعتها بالخضراوات وورود زهرة العسلة. كان بيت الحديقة

بحد ذاته واحداً من النماذج الشائعة، ويمكن طلبه من أي نجار في تنستيدت وإضافة إطار أنيق من الخشب المنقوش والمطلي بالذهب له.

جلست عائلة جوست في سحابة الدخان المنبعثة من غليون كرايسامتمان جنباً إلى جنب على المقعد عند المدخل الجديد، ولم يكن هناك مكان لأي شخص آخر. هذا أيضاً كان جزءاً من التصميم المقبول لبيت الحديقة. بدا من الخارج أنهما سعيدان وعلى وشك الاختناق بسبب روائح كرمة حشيشة الدينار، وورود زهرة العسلة والتبغ. «مرحباً أيها المباركان» صرخ فريتز من بُعد.

عرف جوست كما عرف هو نفسه أنه أصبح في الفترة الأخيرة تقريباً مستغرقاً بشكلٍ سخيف بتفاصيل التصميم والتركيب، فقد اصطحب فريتز إلى آرتن كجزء من تدريبه ليصغي إلى الطرفين المتخالفين في تجمعات صانعي الملح. وعلى الرغم من أنه طلب من فريتز أن يدون الملاحظات المهمة، لكنه عاد بعدم اكتراث للموضوع المتعلق بالمكان المناسب لرواق حديقة المنزل. في أي زاوية يمكن أن يتلقى أكبر كم من أشعة الشمس عند الصباح؟ وبالطبع كان يجب اجتناب شمس بعد الظهر.

حتى الآن وبينما كانت راحيل تستفسر عن صحة أصدقائها السابقين في جينا قام كرايسامتمان ودون مراعاة لمشاعر فريتز وبتلميح قديم لا يخلو من الحدة بإقحام موضوع الرواق.

بدا لفريتز أن كويلستين جوست عرف القناعة والرضا أكثر مما عرف العواطف، لذلك فقد كان غالباً ما يُعتبر أنه

رجل سعيد. الآن يستطيع أن يرى كم كان مخطئاً، إذ إن عدم الرضا هو الذي كان في النهاية يجعل من جوست شخصاً سعيداً بحق. فرغم أن بيت الحديقة كان يفتقر إلى الأثاث والتجهيزات وإلى إعادة البناء لكنه كان مكاناً لا يمكن عمل أي شيء بخصوصه. لا يمكن لكويلستين أن يقتنع تماماً بذلك، وهو لن يتوقف عن بنائه، وإعادة بنائه في خياله. فالكون في دواخلنا في نهاية المطاف.

صوفي تشعر بالبرد
(35)

مـــن صوفي إلى فريتـــز «... ينتابني السـعال والعطاس لكن يبدو أني أشـعر بالتحسن ثانية عندما ترد ذكراك في خاطري. حبيبتك صوفي».

فـــي خريف عام 1795 ذهب فريتـــز بتثاقل وبطء إلى غريونينغن ليجـد صوفي دون رعاية. كانت تلعب مع غونـــدر الذي كانت خبرته المحدودة في الحياة تدفعه للضحك لأي شــيء في هيئة إنسان. «إنه أقوى كثيراً من كريستوف» قال فريتز بوخزة من الندم. لا يفعل غونذر أي شــيء غير كامل، فقد التقط السعال من مدبرة المنزل لكنه يخبئه لوقت الليل حيث يسمع صداه مثل كلب كبير ينبح في الدهاليز.

«نعم هو يبتســم ويســعل في وجهنا بنفس الوقت» قال فريتز «ورغم ذلك فأنا أشـعر أن غروري يشبع عندما يحين دوري. من الممتع حقاً أن نخدع أحدهم».

«هاردنبرغ، لماذا لم تكتب لي؟» سألت صوفي.

«عزيزتي صوفي، لقد كتبت لك كل يوم هذا الأســبوع. كتبت يوم الإثنــين لأوضح لك أنه على الرغم مــن أن الله خلق العالم لكن لا يمكن أن يكون هناك وجود حقيقي حتى نتمكن من فهمه وإدراكه».

«إذن فكل هذا التشــوش غير المقــدس من فعل أيدينا» قالت ماندیلسلوه «يا له من شيء تقوله لفتاة شابة».

«ما يصيب الجســد ليس من فعلنــا» قالت صوفي «أُحس بألم في الجانب الأيســر من جســمي، وهذا لا علاقة له بما أفعل».

«حســناً، دعونا نشــتكِ لبعضنا» قال فريتز. لكن ماندیلسلوه صرحت بأنها كانت دائماً جيدة. «ألا تعلم أني ولدت لأكون دائماً بصحة جيدة؟ زوجي متأكد من ذلك تماماً وكذلك كل من يسكن هنا في هذا البيت».

«لماذا لم تأت أبكر من ذلك يا هاردنبرغ؟» سألت صوفي.

«يجــب علي أن أعمل بجدية أكثر الآن» قال لها «إذا ما أردنا أن نتزوج يجب أن أنكب على نفسي. أنا أبقى مستيقظاً لساعاتٍ طويلةٍ في الليل وأنا أقرأ».

«لكّن لماذا تقوم بكل هذه القراءة؟ أنت لم تعد طالباً».

«ليــس هناك مــن داعٍ للقراءة لــو كان مازال طالبــاً» قالت ماندیلسلوه «الطلاب لا يقرؤون إنما هم يشربون».

«ولماذا يشربون؟» سألت صوفي.

«لأنهــم يرغبون بأن يعرفوا كل الحقيقة» قال فريتز «وهذا ما يجعلهم يائسين».

استفاق غوندر الذي كان نصف نائم وبدأ بالاحتجاج.

«مــاذا يمكن أن يكلفهم ذلك؟» ســألت صوفي «أن يعرفوا كل الحقيقة؟».

«لا يمكنهم أن يحســبوا ذلك» قال فريتز «لكنهم يعرفون أنهم يستطيعون أن يسكروا بثلاثة قروش».

تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، ستصبح أربعة عشر، خمسة عشر، ستة عشـــر، لكن هذا يستغرق وقتاً، يمكن للمرء أن يقول إن الله قد أوقف ساعته.

لكنها باردة، باردة بكل كيانها.

الدكتور هوفرات إبهارد
(36)

في غريونينغن وبعدما رحل فريتز سألت مانديلسلوه لماذا ذكرت صوفي الألم بجنبها الأيسر. «قلت لي إنه يتوجب علينا ألا نبوح بأي شيء عنه».

«لن يعرف» قالت صوفي بجدية.

«إذن لماذا تكلمت عن ذلك؟».

«فقط من أجل متعة أن أتكلم عن ذلك بوجوده. هو لم يلاحظ شيئاً، أنت تعرفين يا فريك. أنا ضحكت لأنه لم يلاحظ أي شيء».

لم يكن الألم بوضعه الأفضل مع بداية شهر نوفمبر. كانت بداية مرض نبتة العسلة، في الحقيقة بداية المرض الذي أصابها. فكروا في البداية أنه من الأفضل ألا يخبروا فريتز، لكن عندما عاد في الرابع عشر من نوفمبر إلى منزل جوست في منتصف النهار قالت له الخادمة كريستال عندما أحضرت له قهوته إن هناك رسولاً ينتظره، وكان هذا الرسول من غريونينغن.

كان إحساس كريستال عن الموضوع عبارة عن مزيج من الأحاسيس لأن ما كان يهمها هو إبقاء البارون الشاب في المنزل مهما كلف الثمن. هو أتى إليهم وهي اعتبرت أنه يخصهم أو بالأحرى يخصها هي.

«لم أكن في البدايــة خائفاً جداً». كتب فريتز إلى كارل «لكن عندما سمعت أنها مريضة - أن فلسفتي مريضة- أعلمت جوست بأننا نصفّي حساب السنين، وغادرت دون تردد إلى غريونينغن».

«ماذا سأقول للسيدة كارولين» ســألت كريستال «لقد ذهبت إلى السوق».

«قولي لها ما قلته لي وسوف تحس تماماً بما أحس».

كان الألــم عند صوفي أول أعراض الورم الخبيث في مفصل الورك وهو مرتبط بالســل. من الممكن بالنســبة لمثل هذه الآلام أن تختفي من نفســها. يعتمد الدكتور هوفرات فريدريش إبهارد إلــى حد كبير على هذه الإمكانية، وعلى خبرته في نظرية براون الطبيــة. يعطي بــراون في نظريته قائمة بســرعة الاهتياج في الاختلالات الرئيســية، وقد تم تحديــد التوازن الصحيح بالرقم 40. أما بالنسبة للسل الرئوي والمرحلة الأولى من الهزال السلّي فإنه يظهر في قائمته على أنه تحســن تحت مستوى 40، لذلك ينصح براون في حالات الســل الرئوي بضرورة دعم الرغبة في الاســتمرار بالحيــاة بالصدمات الكهربائيــة والكحول والكافور والحساء الغني.

بالنسبة لإبهارد لا شيء من هذه الوصفات كان مقترحاً، لكنه لم يخطئ في التشــخيص، وهذا ليــس مفاجئاً، حيث إن واحداً مــن أربعة من مرضاه يموت من جراء الهــزال التدريجي. كانت الآنسة فون كوهن شابة لكن الشباب في مثل هذه الحالات ليس في صالح المريض.

لم تتح له فرصة لكي يســمع افتتاحية الوردة الزرقاء، لكنه لو تمكن من ذلك لاستطاع على الفور أن يقول ماذا تعني.

ما هو الألم
(37)

تفوقت صوفي بسـعالها على غونذر، فقد انتابها السعال مع دفقـات هائلة من التنفس ذكرتها بالضحك، ولولا الألم لكان من السهل أن تتغلب على ذلك.

مـاذا لو لم يكن هناك ألم؟! عندما كانـوا جميعاً أطفالاً في غريونينغن اعتادت فريدريكا قبل أن تصبح السـيدة مانديلسلوه وكأنهـا في مهمـة أن تجمع كل الأطفال معاً بعد قداس المسـاء لتقرأ عليهم قصة يوم الأحد.

«كان هناك صاحب محل شـريف لم يكن يشعر مثلنا بالألم. لم يشـعر بأي ألم منـذ أن ولد، لذلك وعندمـا وصل إلى عمر الخامسـة والأربعين لم يدرك أنـه كان مريضاً وأنه لم يفكر في الذهاب إلى الطبيب إلى أن جاءت ليلة سـمع فيها صوت الباب يُفتح، وبينما هو في سريره رأى في ضوء القمر الساطع شخصاً لا يعرفه دخل غرفته. عندها عرف أنه كان الموت».

لم تكن صوفـي قادرة على التقاط العبـرة من هذه القصة. «لقد كان محظوظاً يا فريك».

«لا أبـداً، كان يمكن للألم أن يكون تحذيراً من المرض، والذي حصل أنه لم يكن عنده أي تحذير».

«نحن لا نريـــد أي تحذيرات -قال لها الأطفال- فقد تحملنا الكثير من المتاعب».

«ولكن لم يكـــن لديه الوقت لأن يتأمل ويفكر ملياً كيف قضى حياته أو يفكر بالتوبة».

«التوبة للنساء العجائز والقذرين»، صرخ جورج.

«جورج لا أحد يمكـــن أن يتحملك» قالت فريدريك «يجب أن يضربوك في المدرسة».

«إنهم فعلاً يضربونني في المدرسة» قال جورج.

أمر الدكتـــور هوفرات بوضع كمادات من بـــذور الكتان على ورك صوفـــي وقد كانت مغليةً وســـاخنة لدرجة أنها خلفت آثاراً على الجلد لفترة طويلة. انبعثت من بذور الكتان ما يشـــبه روائح الغابة وقطع الأثاث الخشبية الصلبة وحذاء الحارس الثقيل الذي حصل عليه من مستشاري البلدة لأنه كان عليه أن يخفر الشوارع في كل الفصول وأشـــجار الأناناس والراتينجية الخضراء. بدأت صوفي بالتحسن.

«أعـــز وأفضل صديق» كتب روكنثايـــن لفريتز. «كيف حالك؟ ما زلنـــا هنا في ذات القصـــة القديمة. صوفـــي ترقص وتقفز وتغني. تطلب أن نأخذها إلى المهرجان في غروســـن. إنها تأكل مثل قاطع الأخشـــاب، تنام مثل فأرة، تمشي بشكل مستقيم مثل شـــجرة التنوب، توقفت عن أخذ مصل اللـــبن والدواء، عليها أن تحصل على مغطسين في كل يوم كجزء من العلاج، وهي سعيدة مثل سمكة في الماء».

«أتمنى فـــي بعض الأحيان لو أكون مثل هوشـــر» كتب فريتز إلى كارل من تنســـتيدت «العالم لا يشكل أي مشكلة بالنسبة له،

ورغم ذلك ما يقوله الآن حقيقة. لقد مرت فلسفتي الحبيبة بليالٍ لا نوم فيها، حمى حارقة. نزفت مرتين، وكانت واهنة جداً وأكثر ضعفاً من أن تتحرك. لقد تحدث هوفرات -وبالمناسبة من الممكن أن يكون أحمقَ- عن التهاب في الكبد، والآن منذ العشرين من نوفمبر قيل لنا إن كل الخطر قد زال».

طلب من كارل أن يرسل مع رسول جيد مئتَي محارة -ترسل مباشرة إلى غريونينغن كطعام مترف للمريضة- وأن يرسل إلى تنستيدت بنطال فريتز الشتوي والجوارب الصوفية، وأغطية العنق التي توضع تحت الصدرة وقماشاً من أجل سترة خضراء وكشميراً أبيض للصدرة والبنطال، وقبعة. أضاف أنه سوف يوضح لاحقاً ماذا يريد أن يفعل بتلك الأشياء وسوف يأتي إلى ويسنفلس ويستقر.

كارولين في غرينينغن
(38)

كان لتتستيدت مهرجانها المتخصص في كرشة الخنزير المطبوخة. تسلق آذان الخنزير وشرائح من دهن رقبة الخنزير مع الشنابص المنكه بالنعناع وتفوح من القدور الحديدية الضخمة روائح الحظائر والنعناع. كان هناك موسيقى من كل الألوان وأصحاب حظائر الحيوانات الذين أتوا من القرى رقصوا مع بعضهم ليحتفظوا بحرارة أجسادهم.

اعتادت كارولين أن تذهب إلى المهرجان في البداية مع عمها، وبعد ذلك مع عمها وزوجة عمها، وفعلت نفس الشيء مرة أخرى هذا العام. فتاة شابة لطيفة مازالت ويا للحسرة دون خطيب يصطحبها إلى مهرجان الخنزير!

قال لها عمها: «عليك الذهاب إلى غريونيننغن لتهنئتهم باستعادة ابنتهم صحتها. لماذا لا تذهبين معي الأسبوع القادم حيث علي أن أرى روكنثاين في بعض أمور العمل؟».

لم تسأله كارولين ولم تكن ترغب بسؤاله عن رأيه في خطبة هاردنبرغ على الرغم من أنه بالتأكيد عرف بها، وما هو شعوره تجاه إخفاء هذا الأمر عن البارون كل هذا الوقت.

كانت متأكدة من أن إخفاء أي شيء عن صديقه القديم يؤلمه.

لقــد وثق البارون به في أن يدرب ويراقب ابنه الأكبر، لكنها تعلم أيضــاً أن عمها مثل معظم الرجــال لا يأخذ الأمور على محمل الجدية ما لم تكن مكتوبة بكلمات.

اســتأجر كويلســتين من أجل زيارتهم إلــى روكنثاين حصاناً ومركبة ذات عجلتين. قطعوا رحلتهم في جيبيس حيث كان قصر مالــك العزبة الذي قال لكارولين عن عائلة فون أولدرشوســين، عائلــة زوجة البارون الأولى التــي ماتت: «إن أملاكهم الآن باتت حطاماً. لم يكونوا محظوظين».

في حانة بلاك بوي طلب الشنابص ونظر إلى ابنة أخيه بانتباه للمرة الأولى منذ شــهور. وبما أنه ليس أقل حباً وحناناً تجاهها مما كان عليه دائماً فإن أمور صحتها وســعادتها كانت قد تركت لراحيل. شعر بأن عليه أن يكون آسفاً على أمر ما.

«لا بد أنك يا عزيزتي متعبة جداً من الأحاديث المتواصلة عن منزل الحديقة». تبســمت، فهذه لم تكن المشــكلة. فكر بعد ذلك بأن للنساء في أعمار مختلفة مشكلات مختلفة، لكن دائماً هناك شــيء ما. «كنت قد نويت أن أخبرك بأنني رأيت ابن عمك كارل أوغست في تريفورت منذ عدة أسابيع مضت».

ردت بنفس الابتسامة.

«وأختي، عمتك لويزا وأنا...».

«أنت فكرت بأنّ كلينا قد نكون مشروع زواج محترماً».

«لكنك تعلم أنا لم أرَ كارل أوغســت منذ سنوات، وهو أصغر مني».

«لا يمكــن لأي أحــد أن يخمن بذلك يا كارولــين. أنت دائماً شاحبة، لكن...».

وضعت كارولين قطعة من السكر ومقداراً قليلاً من الماء الساخن في كأس «لا تقم بإجراء أي ترتيبات من أجلي مع العمة لويزا يا عمي. انتظر حتى تضيع كل الآمال وحتى يصخب خلفي محيط الشباب الجامح».

«هل هذا بسبب قصيدة أو ما شابه؟» سأل جوست بشيء من الشك.

«نعم، هذا بسبب قصيدة أو ما شابه. سأقول لك الحقيقة، أنا لا أحب ابن عمي».

«عزيزتي، لقد قلت بنفسك إنك لم تريه منذ زمن. أستطيع أن أقول لك تماماً متى».

في واحدة من جيوب معطفه الشتوي الداخلية احتفظ بيومياته المكتوبة دقيقة بدقيقة للسنوات الخمس الأخيرة، وبدأ الآن بضرب الجيب من الخارج وكأنه يتوقع أن ترد عليه بالجواب.

«كان ابن عمي مزعجاً جداً وسيكون مزعجاً جداً الآن أيضاً» تابعت كارولين «أنا واثقة أنه يفخر بنفسه على استقامته وثباته».

«يجب ألا تكوني صعبة جداً حبيبتي كارولين» قال عمها ببعض الضيق. أما هي فقد فكرت بأنه كان أكثر صراحة مما كان يريد، وأن عليها ألا تدعه يقلق، خصوصاً أنه ربما يفكر بأنه قد جرح مشاعرها. لكن لم يكن صعباً أن تصرف انتباهه.

«أتجرأ على القول بأن هاردنبرغ قد دللني. ربما الحديث مع شاعر قد أدار رأسي».

شعرت بالراحة في سكلوس غريونينغن، عندما وجدت أن روكنثاين قد ذهب للتو إلى مكتبه وقد تبعه كرايسامتمان. حيت كارولين ربة المنزل بكل احترام، وأبدت إعجابها بالطفل غونذر

الذي كانت قد أرسلت له حلقة تسنين من العاج. كما أحضرت علبة سكاكر من البورسلين لصوفي وخبز الزنجبيل لميمي ورودي وزوجاً من الأرانب الوحشية لأهل المنزل.

«أنت فتاة طيبة وكريمة» قالت السيدة روكنثاين. «هاردنبرغ هنا، أنت تعلمين، وأخوه إراسموس كذلك، نعم إراسموس هذه المرة. هو غالباً يحضر أحد أخوته معه».

بدا قلب كارولين وكأنه انفتح وانغلق.

«أتوقع أن هاردنبرغ سيعود معنا، إلى تنستيدت هذا المساء»..

«آه حسناً، هم الآن في غرفة الصباح. الكل مرحب به، ليس هناك من مانع وليس هناك مشكلة في من يأتي» قالت السيدة روكنثاين.

في غرفة الصباح، هاردنبرغ، إراسموس، فريدريكا مانديلسلوه، جورج الذي يبدو أنه يعزف الفلوت لأول مرة، مجموعة من الكلاب وصوفي في فستان زهري باهت. عندما رأتها كارولين في المرة الأخيرة ظنت أنها أحد الأطفال، فهي مازالت تفكر بها كطفلة. كل ليلة تصلي لعل الله يرحمها ويرزقها بأطفال، وفكرت بأنهم قد لا يكونون مثل صوفي تماماً.

كان هاردنبرغ بجانب فلسفته، ورجلاه الكبيرتان ساكنتان تحت كرسيه. أما إراسموس الذي لم يتوقع أن يراها فقد اتجه نحوها في الحال مبتهجاً. صوفي كانت مبتهجة إلى أقصى الحدود، حقيقية تماماً مع علبة السكاكر. كانت تنوي أن تُقلع عن مضغ التبغ وتتناول من الآن وصاعداً السكاكر فقط.

«سوف تسبب لك المغص» قالت مانديلسلوه.

«آه عندي مغص بكل الأحوال. أنا أقول لهاردينبرغ يتوجب

عليه أن يدعوني ثرثارته الصغيرة».

استدارت كارولين إلى إراسموس وكأنها تلتفت إلى من ينقذها من الغرق «هذا حقاً كل ما أريد»، فكرت «دقيقة واحدة فقط مع شخص ما يشعر كما أشعر». أخذ إراسموس يدها بيده الدافئة وبدا أنه على وشك أن يقول شيئاً، لكنه وبعد دقيقة أخرى استدار للوراء نحو صوفي بابتسامة متسامحة نصف فاقد الوعي أو كأنه رجل سكران.

فهمت كارولين أن إراسموس أيضاً قد وقع في حب صوفي فون كوهن.

الشجار
(39)

في قصيدته بمناسـبة عيد ميلادها الثالث عشر كتب فريتز أنه مـن الصعب عليه أن يتخيل زمناً لم يعرف فيه صوفي، زمناً كان فيه «رجل الأمس» اللامبالي، اللامسـؤول وما إلى ذلك. إن رجـل الأمس قد وجـد طريقه الصحيح وإلى الأبـد. «لكنه كان يكرهني» قالت صوفي لمانديلسـلوه «كنا قد تشاجرنا. انتهى كل شيء الآن».

كانت تترقب شجارها الأول معه، فقد قالت لها صديقتها جيته غولداكر إنها وهاردنبرغ بالتأكيد سيتشاجران. الشجار أمر طبيعي في حياة العشاق على حد قول غولداكر، لكن بعد ذلك سـوف تصبح الروابط بينهما أقوى. لكن من أجل ماذا يمكن أن نتشاجر؟ سألت صوفي. على أي شيء صغير، وكلما كان أقـل أهمية فهذا أفضل. لكـن هاردنبرغ وبعد أن جلس معهـا يتكلمان لمدة نصف سـاعة أو أقل بقليل انفجر وكأنما شـيء بداخله تمدد وأصبح فضفاضاً بشكل هدام. «صوفي عمرك ثلاث عشرة سنة كيف أمضيت هذه السنين؟ أعتقد أن سـنتك الأولى انقضت بالابتسام والرضاعة كما يفعل غونذر الصغير الآن. خلال السـنة الثانية وكمـا كل البنات اللواتي

يتفوقن علــى الصبيان تعلمتِ أن تتكلمي. ماذا كانت كلماتك الأولى؟ «أنا أريد»... وفي الثالثة أصبحتِ أكثر طمعاً وصرت تأتين على كل النبيذ الحلو في كؤوس الكبار. في عمر الرابعة بدأت بالضحك ووجدت ذلك ممتعاً فأصبحت تضحكين على كل شيء ومع كل أحد. في الخامسة بدؤوا بمحاولة تعليمك، وفي عمر الحادية عشــرة لم تتعلمي أي شيء، لقد اكتشفت أنــك امرأة. كنت خائفة -أســتطيع القول- وذهبت إلى أمك الــرؤوم التي قالت لك بــأن لا تقلقي. بعد ذلك خطر لك أن هيئتك النضرة ليست بالشــقراء تماماً ولا بالسمراء تماماً. كل هــذا جعل من غير الضروري بالنســبة لك أن تعرفي أو تقولــي أي شــيء عقلاني. والآن أنت بالطبــع تبكين وكأنك الحساسية ذاتها. دعينا نرَ كم من الوقت تستطيعين أن تبكي يا فلسفتي».

لم يكن ســلوكه جيداً، بكت صوفي. هذا ما كانوا يقولون لها عندما تفعل شــيئاً مخزياً. إنه أعنف توبيخ عرفته. أجاب فريتز بأنه ذهب إلى جامعات جينا وليبزغ وويتنبرغ ويعرف عن العادات والسلوك أكثر مما يعرفه شيء في الثالثة عشرة.

«شيء في الثالثة عشرة! هل تستطيعين تصديق ذلك يا فريك، هل تستطيعين شرحه؟».

«كيف شرحها هو نفسه؟».

«قال إنني كنت مصدر عذاب بالنسبة له».

في رســالته الثانية لصوفي وصف فريتز نفسه: غير معذور، غير مهذب، غير رؤوف، غير مؤدب، غير صحيح، غير متسامح، وقح وغير إنساني.

نصحته مانديلسلوه بأن يتوقف عن ذلك «مهما كان السبب في حدوث المشكلة فهي قد نسيت».

«لم يكن هناك من عذر» قال لها فريتز.

«هذا يجعل الأمور أكثر صعوبة، ومع ذلك فقد نسيت الأمر».

قرر فريتز أن يقدم طلباً إلى الأمير فريدريك أوغست الثالث في دريسدن لتعيينه كمفتش مأجور في مناجم الملح في مقاطعة سكسوني.

كيف تدير منجماً للملح
(40)

تضمن عمل فريتز أن يدون الملاحظات ويجمع كل ما يستطيع بصمت في اجتماعات لجنة توجيه الاقتصاد التي تعقد في مكاتب مناجم الملح في ويسنفلس، والتي يرأسها البارون فون هاردنبرغ ويساعده مدير منجم الملح بيرغراث هون ومفتش منجم الملح بيرغراث سنف. سر برنارد بهذا الاسم، مفتش منجم الملح -وهو الوحيد رغم أن الكل عرف بذلك- أشار بصراحة إلى الحادث المؤسف حيث أدى تزييف الإيصالات الخاصة بعمل البناء الرسمي وإرسال مبالغ غير مرخصة لبيته الخاص إلى الحكم على سنف بالسجن سنتين بمقتضى الحق العام، فيما بعد خففت إلى ثمانية أسابيع سجناً عادياً. «هذا مؤسف» قال برنارد «كان يمكننا التحدث إليه. كان من المهم أن نعرف معنى أن تعيش على الخبز والماء». «ربما بإمكانك أن تعيش التجربة هنا في المنزل في أي وقت ترغب به» قالت سيدوني.

كان هون شخصية مختلفة كثيراً عن سنف.

أكبر ببضع سنوات فقط من زميليه، بدا أنه شيخ عجوز وكان يشير إلى نفسه «هون العجوز، الأرشيف الحي لمناجم الملح». كثيراً ما كان شكله بمعطفه الطويل المصنوع من قماش

رديء يعشـــش فيه الغبار يشبه واحداً من أولئك البدائيين الذين يســـكنون الكهوف والأنفاق. أتت هذه الصورة بشـــكل جزئي من جلـــده المبيض، ومـــا كان يصدر عنه من أصـــوات وحركات. «إن هذا الأرشيف الحي ربما يملك لمسةً من الرومانتيزم». «لو أُعطي هـــون الوقت اللازم لـــكان بإمكانه الإجابة علـــى كل نقطة، وقد استشار الأســـاتذة ليرى إن كانوا يؤكدون التفاصيل والحسابات التي كان قـــد أعطاها». «هم طبعاً لا يتجـــرؤون على إعطاء ما يخالف ذلك،» فكر فريتز.

ســـنف، من ناحية أخرى، كان يمور بطاقة حبيســـة لشخص ذكي؛ شـــخص لـــن يكون قادراً علـــى الإفادة من ذكائه، بســـبب الحسابات الخاطئة. في مناسبات معينة كان يسمح لكل شخص يعمـــل في مناجم ومعامل الملح أن يقدم اقتراحه الخطي بشـــأن التطوير. أما فيما يخص المشـــاريع والخطط المفصلة التي مازال يتمنى أن يكون اســـمه يوماً ما مرتبطاً بها، فقد اقترح سنف أن ملح ثورينجيا وملح سكســـوني يجب ألا يتم تبخيره بعد الآن في أوانٍ معدنيـــة على نـــار الحطب في درجة حـــرارة 80 مئوية بل علىً حرارة الشـــمس فقط. بذلك تكـــون الحاجة أقل إلى عمال في المناجم. قُدمت مشـــاريعه عن الطاقة الشمسية، كذلك وضع ســـنف اقتراحاً جديداً بخصوص مضاعفة أعداد العجلات على البكرات التي تسحب الماء المالح إلى السطح.

«عندما قام المدير البارون فون هاردنبرغ بدراسة المشروع» كتب فريتز في دفتر يومياته «كان تعليقه هو التالي: أن تدير بأقل عدد ممكن. رد ســـنف مفتش منجم الملح على ذلك بجواب أكثر حرارةً بأن هذا لم يكن طريقاً للتقدم، وأن هذا يعني أن الجموع تُقاد أكثر

باتجاه الكسل والركود. بجميع الأحوال ومع قدوم القرن التاسع عشر وهو الوقت الذي تنبأ به كانط، حيث سيكون الناس في النهاية قد تعلموا أن يحكموا أنفسهم، البكرات، وعجلات الوطء، وهؤلاء من المحتمل ألا يكون لهم وجود. أشار هون مدير منجم الملح إلى أنه في هذا الوقت هم لا يحتاجون إلى إضاعة الوقت في مناقشة مثل هذه القضايا، وهنا قال المفتش سنف بأن عليه أن يقبل قرار المدير لكن لا يستطيع التظاهر بأنه يشعر بالرضى».

«لقد كيفت نفسي على كل شيء تطلبه» قال فريتز لوالده «ولسوف أستمر في ذلك بإخلاص أكثر في المستقبل. أنت لا يمكن أن تتوقع مني وخلال عدة أشهر أن أكون مثل هون العجوز».

«لسوء الحظ أنا لا أستطيع ولا أتوقع» قال البارون، «حتى وإن أعطيت حياةً طويلةً فأنا لا أتوقع بأنك حتى ستتشبه ويلهلم هون».

في السابق عندما كان فريتز يتجول على حصانه عبر المدينة كان يعجب بمنظر الجبال القديمة. أما الآن فقد نظر إلى التلال على سفح الجبل وإلى مستويات تحميل الفحم بعين خبير المناجم الذي يفتش عن النحاس والفضة والفحم الحجري. عزم على أن يكون مهندساً عملياً، وذهب إلى أبعد ما يمكن عبر مداخل المناجم في بيرغورك، مرتدياً سترة وبنطالاً رمادياً خاصاً بعمال التعدين.

«إن ابنك يحب العيش تحت الأرض» قال جوست للبارون متردداً. «بصعوبة فقط يعود إلى ضوء النهار.. لقد حذرته بالطبع من أنه يتوجب عليه ألا يصافح عمال المنجم، فقد يعتبرون أن ذلك جلب لهم الحظ السيئ. هذا خيب أمله».

غطـــى فريتز الصفحـــة تلو الصفحة من الـــورق بمخططات وهمية وغير عملية من أجل اكتشاف مساكب من الفحم وتحسين المراقبة بالنســـبة للفرن الفخاري أو التنور الكلســـي، وذلك عن طريق رصد ســـجلات الأرصـــاد الجوية التي قد تســـاعد على رفع مســـتوى تنقية المحلول الملحي إلى معيـــار أفضل، مع وضع ملاحظـــات تخص الجانب القانوني لصانع الملح. إلى جانب ذلك رأى نفســـه كعالم جيولوجيا أو عالـــم طبيعة كيفما وضعها تأتي «إلـــى أرضٍ جديدةٍ كلياً وإلى نجوم ســـوداء». بدا له أن صناعة التعدين ليســـت علماً وإنما فن، فهل بإمكان أي شخص أن يفهم العلاقـــة بـــين الصخور والكواكب مـــا لم يكن فناناً أو شـــاعراً؟ وتدرجات الجبال والسفوح الجبلية بحمولتها من المعادن الثمينة، الفحـــم والملح الصخري كلها لم تكن إلا اقتفاء لمســـارات النجوم والمجرات التي اصطدمت يوماً ما بالأرض.

«ما كان موجوداً ســـابقاً ســـيوجد مرة أخـــرى» كتب «في أية نقطة في التاريخ سيعودون للمشي بيننا كما فعلوا يوماً ما».

أصغـــت كارولـــين بصبر إلى كل شـــيء كان قـــد تعلمه وكان بحاجة لإعادته أمام مخلوق ذكي آخر. تابعت هي الخياطة بينما كان فريتز يتقدم بجهد نحو اســـتكمال التقرير حول شراء قطع صغيرة من الأراضي لتحميل الفحـــم في ميرتيندورف. «عندما يتـــم ربط البيانـــات بعلاقة متبادلة لا يمكن لأي أحد أن يشـــك بشـــأن المخططات المستقبلية للأشياء المكتسبة في السياق الذي نقـــرّ فيه بكامل الحرية بأن الفلاحين وبكل الحســـابات ســـوف يحصلون على مقادير من الســـلع أفضل إلى حد ما بالمقارنة مع الأسعار القديمة..».

«بالطبع ســوف يفعلون» قالت كارولين «لكن متى أعددت هذا التقرير؟».

«أنـــا لم أقــم بإعداده. كان قد أعد من زمــن طويل. علي أن أدرب نفســي بإعداد تقارير عــن التقارير. هذا ما علمني عمك أن أفعله».

«لقد كنت بحق تلميذه الأفضل، ولا أعتقد بأنه سيرغب بأحد غيرك أبداً».

«بالرغم من ذلك لا أعتقد بأن أبي ينظر إلي بجديةٍ على هذا النحو».

«أنت لا تأخذه على محمل الجدية» قالت كارولين.

«إنــه أبي من يجب أن يقدم الطلب إلى الإدارة للحصول على وظيفة مأجورة. ربما أتمنى في المرحلة الأولى أن أتقاضى 400 تالر». توقفت لتضع خيطاً في إبرتها «جوستن، كم مرة كان عليك أن تحسبي كيف تديرين المنزل بمبلغ كهذا!».

أدركــت أن خيالــه قد خطا إلى ما هو أبعــد من خيالها وأن الفراق القاسي بينها وبين ما لا ترغب به قد أصبح الآن هو قضية المال. من الواضح أن غير المرغوب به ليس لديه وظيفة مأجورة. هذا أغاظها. يا للحســرة، رغم أنها ندمت على كل التظاهر منذ اللحظة الأولى لكنه كان لها. لقد خلقت بنفســها دون قصد هذا غير المرغوب به، واســتاءت لأنها دفعته نحو الفشــل، فهو لا بد تجــاوز الثلاثين وغير قادر على أن يعيلها كزوجة. أحســت بأن لديها دافعاً لا يقاوم نحو إحباط هاردنبرغ.

عــادةً كان هذا مطمئناً كفاية. قالــت له الآن وبكل صدق -إنهــا على الرغــم من تمنيها الخيــر له مــن كل قلبها في

بحثه عن العمل لكن يجب عليها أن تعترف ببعض الشكوك بخصوص المهنة نفسها، فقد كان إراسموس يعتبر مسؤول غابات، حسناً وجيداً، لو أنه فقط أنهى الدراسة في سانت هيوبرتوسبرغ. كارل وأنطون جنديان، ليس لديها فكرة عن هذا أو شيء تقوله بهذا الخصوص، لكن التعدين، استخراج المعادن والملح من الأرض- نعم لقد ذهبت أكثر من مرة إلى مصافي الملح في هال وآرتن ورأت واستنشقت سحب الدخان السوداء المصفرة من مصانع الزئبق الممزوج بمعادن أخرى قرب فريبيرغ، لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير بكل ذلك على أنه إساءة ضد الطبيعة التي لا يمكن أبداً أن تخلق مثل هذه البشاعة. «من أجل ذلك يا هاردنبرغ كنا قد تكلمنا عن الطبيعة تحديداً يوم الأربعاء مساءً وقلت لي على الطاولة إنه على الرغم من أن الثقافة الإنسانية والصناعة تتعاظمان فإن الطبيعة تبقى على حالها، وإن واجبنا الأول هو أن نأخذ بعين الاعتبار ما تطلبه منا». جازفت بمتابعة الكلام «لقد قلت إن صوفي هي الطبيعة نفسها».

أغمضت كارولين عينيها للحظة بعد ما قالته. صرخ فريتز «كلا يا جوستن، أنت لم تفهمي أن صناعة التعدين لا تعتبر اغتصاباً لأسرار الطبيعة، لكنها تعتبر تحريراً. يجب أن تتخيلي أنك تصلين في المناجم إلى الأبناء الأوائل للأم الأرض، الحياة التي عاشت من وقت طويل حبيسة في التربة تحت قدميك. لقد رأيت هذه العملية كأنها لقاء مع ملك المعادن الذي ينتظر تحت الأرض يصغي بأمل للأصوات الأولى للحفارة بينما يكافح

عامل المنجم ليستخرجه إلى الأعلى، إلى ضوء النهار. إنه التحرر يا جوستن. ماذا يتوجب على ملك المعادن أن يشعر وهو يرنو بوجهه إلى ضوء الشمس للمرة الأولى؟».

كانت تعتزم أن تقول «أتساءل هل ذكرت مثل هذه الأفكار أمام لجنة الإدارة» لكنها لم تكن ترغب بأن تضع نفسها بهذا الموقف. لقد ميزت الصوت الذي قرأ لها الفصل الافتتاحي من الوردة الزرقاء. في غضون ذلك كان قد فتح ملفه ثانية وأخذ صفحةً من كتابته المرهفة التي تشبه نبتة المتقوسة وتقريراً آخر، هذه المرة عن الخطوات المرتبطة بملح الطبخ ومسمدات الملح.

صوفي في الرابعة عشرة
(41)

قبل يومين من عيد ميلاد صوفي الرابع عشر؛ أي في الخامس عشـــر من مارس 1796، وفي الذكرى السنوية لخطبته، التي لم تحظ بموافقة والده ولم يناقشـــها معه أساساً، ذهب فريتز إلى بائع المجوهرات في تنســـتيدت ليحصل على بديل آخر لخاتمه، وقد اتفق معه على أن يضمنه صورة صغيرة لصوفي مأخوذة من الرســـومات التي خيبت آمال الجميع. لكن لم يكن هناك مناص مـــن ذلك، على الأقل كان فيها انطباعها المروع والمتلهف، وكذلك هذا الخليط من العتمة والسطوع. أما على الخلف فقد طلب منه أن ينقش هذه الكلمات: صوفي كوني حارسة روحي.

فـــي قصيدة عيد ميلادها كتب: مـــا بحثت عنه وجدته... ما وجدته بحث عني.

كتب فريتز في يونيو (حزيران) 1796 لكل من أبيه وأمه:

الوالد العزيز..

أرســـل هذه الرسالة لكن ليس من دون الكثير من القلق. هذه الرســـالة التي أرهبتني لوقت طويل تمنيت لو كنت أرسلتها منذ زمـــن طويل لولا ظروف غير مرغـــوب بها. كل آمالي تعتمد على تعاطفـــك وعلى مودتـــك. ما من خطأ في مكنونـــات قلبي، لكن

هـــو الموضوع الذي تجد أن الآبـــاء والأبناء غالباً لا يفهم بعضهم البعض بشأنه. أعرف أنك كنت دائماً ترغب في أن تكون النصير والصديق لأبنائك، لكنك أب وغالباً ما يتناقض الحب الأبوي مع رغبات الأبناء وأهوائهم.

لقد اخترت عذراء لا تملك الكثير من الثروة وليست من نسب عريـق رغم أنها في غاية النبل. إنها الآنســـة فون كوهن، أبواها يسكنان في غريونينغن، حيث إن أمها من مُلاك الأراضي. حصل أن تعرفت عليها في زيارة رسمية لبيت زوج أمها. أتمتع بصداقة العائلـــة كلها وثقتها، لكن اختيار صوفي لفترة طويلة بقي موضع شك.

منذ عهدٍ بعيد وأنا أناشد ثقتك وقبولك، لكن مع بداية نوفمبر (تشرين الثاني) أصبحت صوفي مريضة بشكل مؤلم، وحتى الآن تتعافى بشـــكل بطيء. تســـتطيع أن تعيد إلي السلام. أنا أتوسل منك الموافقة ومباركة خياري.

كل شـــيء يعتمد عليك في أن تجعل هذه الفترة هي الأســـعد في حياتي. صحيح أن المنزلة الاجتماعية للنشاطات قد تتناقص بســـبب هذا الزواج لكنني أعتمد من أجل حياتي على الصناعة والإيمان وعلى ذكاء صوفي وحســـن إدارتها. لم تنشـــأ وتترعرع بشـــكل مغرور، فهي تقنع بالقليل وأنا لا أطلب ســـوى ما تريده. فليبارك الله هذه الساعة المهمة، المقلقة والحرجة. من الجيد أن تعبر وتقول ما تريد لكن تســـتطيع أن تجعلني ســـعيداً فقط من خلال صوت الأب الموافق.

فريتز

عزيزتي أمي الطيبة..

سوف أنتظرك عند الساعة التاسعة مساء يوم الأربعاء بعد أسبوعين من الآن وحدك في حديقتنا في ويسنفلس. لا أحتاج أي شيء آخر لأني أعرف قلبك الرقيق.

فريتز

كان من الواضح أنه لم يكن لدى هوفرات إبهارد أدنى فكرة عما سيفعله لكنه كان معتاداً جداً على هذا الأمر. لقد صدم فعلاً بأن لمريضته أصحاباً كثراً في غريونينغن، الكثير من الإثارة، العديد من الكلاب الصغيرة، قفص طيور والكثير من الزيارات من هاردنبرغ المفرط في الكلام. أرسلها لبضعة أيام إلى مصحة يملك فيها حصة في ويسينسي. كانت لسوء الحظ أكثر رطوبة وأقل تهوية من البيت في غريونينغن. «البيت مهجور» هذا ما اشتكى منه روكنثاين. أما بالنسبة لجورج الذي بدأ يتحول إلى شخص مهذب فسيرسل إلى المدرسة في لايبزغ. سيكون هناك في البيت فقط ستة وعشرون شخصاً.

«حسنا ماذا يقول البارون؟» سألت مانديلسلوه.

«لقد كتبت له» قال فريتز «وكتبت إلى أمي وشرحت لهما».

«هناك أمر أود أن أسألك عنه» قال فريتز بإلحاح «دعينا نتحدث من القلب إلى القلب. افترضي أن والدي لم يوافق. افترضي أنه حاول أن يفصلني عن فلسفتي، عن دم قلبي، عن العيش هنا في هذه الجنة، أنت بالكاد تعرفين ماذا تعني هذه السلطة غير العادلة».

«أعلم ماذا يعني أن تنفصلا» قالت مانديلسلوه.

«لقد تزوج أبي نفسه مرتين. أنا الآن في الرابعة والعشرين من العمر ولا يوجد هناك قانون يمكن أن ينفذ ضدي في مقاطعة

سكسوني فيما لو تزوجت صوفي حالما تبلغ عيد ميلادها الرابع عشــر. هل ســتأتي هي معي يــا فريدريك؟ هــل تعتقدين أنها ستتحدى العالم وتزهد بكل شيء فيه من أجل أن تكون معي؟».

«وبماذا ستدعم نفسك؟».

«ســوف أكســب القليل الذي نحتاج إليه من عملي كجندي أو موظف نسخ أو صحافي أو مراقب ليلي».

«هذه المهن كلها ممنوعة على طبقة النبلاء».

«تحت اسم آخر..».

« .. وأعتقــد فــي مدينة أخرى. لــو كنت قــد حصلت على استقالتك ألا تفضل الذهاب إلى الجنوب؟».

«أوه فريك، الجنوب، هل تعرفينه؟».

«بعيدة كل البعد عنه» قالت مانديلسلوه «من الذي سيأخذني إلى هناك؟ لا بد لي أن أنتظر حتى يتم إرسال الفوج إلى الأرض التي تحوي أزهار شجر الليمون».

«حسناً ولكنك لم تجيبيني».

«أنت تريدهــا أن تترك بيتها، إلى أين؟ إلى أبعد ما يمكن أن تتذكر. بحق الله..».

«لا تعتقدين إذاً أنها تملك الشجاعة لذلك؟».

«الشــجاعة عندما لا تفهم ما أنــت بصدد مواجهته لن تكون أفضل من الجهل».

«الخيانة، فريك! الشجاعة أكثر من التحمل. إنها القدرة على أن تخلقــي حياتــك الخاصة في وجه كل ما يمكن للإنســان أن يُبتلــى به. بذلك يكون كل يوم وكل ليلة كما تتخيلين. الشــجاعة تجعلنا حالمين. الشجاعة تجعلنا شعراء».

«لكنهـــا .. لا يمكن أن تحول صوفي إلى مدبرة منزل مقتدرة».

تجاهل فريتز ما قالته وردد بصوت عالٍ «هل ســـتأتي معي؟ هل تســـتطيع أن تحتمل الفراق؟ إن حبي ســـيجعل هذا أســـهل، هل ستأتي؟».

«فليسامحني الله، أنا أخاف أنها قد تفعل».

«لماذا أنت خائفة؟».

«أنا أمنعك من أن تسألها».

«تمنعينني؟».

«إن لم أفعل أنا ذلك، فغيري سيفعل».

«لكن من يمكن أن يكون هذا؟».

«هل يعقل أنك لا تعرف؟».

البارونة في الحديقة
(42)

كتب البارون فون هاردنبرغ إلى كرايسامتمان جوست:

مــن هو فون كوهــن الأب الحقيقي لصوفي هــذه؟ قالوا لي إنه ابــن ويلهلم كوهن، الــذي نال في العــام 1743 -لنقل منذ خمســين سنة قبل الآن- ملكية غريونينغن ونيدر توفستيد، وبعد ذلك بطريقــة أو بأخرى تمكن من الحصول علــى امتياز طبقة النبلاء. في وقت قصير تمكن ابنه وهو والد صوفي من تنصيب نفســه في غريونينغن. زوجته الأولى تدعى شميدت وقد ماتت، أما الثانية فتدعى ســكالر، وبعد ذلك مــات هو. تولعت الأرملة بشــكل كبير بالكابتن روكنثايــن الذي كان كمــا أعتقد من فوج شــوارزبورغ، وبذلك أصبح ســيد غريونينغن ونيدر توفســتيد. لا أعتقــد أن روكنثاين نفســه بهذا الوضع حصــل على التأكيد ليتقدم إلى امتياز طبقة النبلاء.

رد كرايسامتمان للتو على البارون فون هاردنبرغ:

أســتطيع فقط أن أكرر مــا كنت قد قلته ســابقاً؛ وهو أنني علّمت ابنك كل ما يحتاج إلى معرفته من أجل إحراز تقدم رسمي في مهنته، وقد أشرت إليه في أحاديثنا إلى آفاق جديدة.

من البارون فون هاردنبرغ إلى كرايسامتمان جوست:

ألمح إلى أي أفق تريد، لكن لماذا بحق الله اصطحبته إلى بيت روكنثاين؟

أخذ رسالة فريتز إلى لايبزغ حيث جلس مع رفاقه القدامى في النادي المحجوز لطبقة النبلاء، المختنق في الصيف إذ يحظر أعضاء النادي على النادلين فتح النوافذ التي تحبس بخار السحب المواجهة للطريق. هنا استشار أصدقاءه القدامى بماذا يتوجب عليه أن يجيب ابنه الأكبر. أجبر كل من الكونت يوليوس فون شوينيتز والكونت الذي يصغره بقليل غراف فون لوبين على الاستماع له، وسألهم ماذا يفعلون هم أنفسهم لو أن أحد أبنائهم الكبار أصر على الزواج من ابنة بقال. ربما كان عقله قد بدأ يستسلم قليلاً.

كان فريتز قد سأل والدته أن تقابله في الحديقة بعيداً عن أنظار والده دون أن يفكر ملياً بمدى غرابة هذا الطلب بالنسبة لها. في مثل هذه الأيام كان من النادر بالنسبة لأوغست أن تذهب خارج المنزل، لا تخرج وحيدة أبداً، لا تخرج مطلقاً في الليل، وبالتأكيد لا تخرج من دون موافقة موقرة من البارون. عندما طلبت من خادمتها أن تعطيها شالها الأسود لأنها ستخرج وحدها إلى الحديقة، بدأت المرأة العجوز تتمتم لنفسها بالصلوات. ومع ذلك وفي الوقت الذي غادرت البارونة فيه عبر الدرجات الخلفية على غير عادتها فإن تنبيهاً ما كان قد أعطي لكل شخص في المطبخ وفي الفناء. في أسفل الدرجات التي قادت إلى الجزء العلوي من الحديقة كان البستاني ينتظرها في الغسق وهو يحمل قنديلاً من أجل أن يفتح لها البوابة. لم تكن في الحقيقة تملك مفتاحاً، ولم تعر أي اهتمام إلى كيف ستدخل ثانية.

كانت ستطلب الإذن موضحة نفسها في الأحوال العادية، لكن ليس في هذه الليلة. لم يكن القلق بشأن فريتز ما يستحوذ عليها بقدر ما كان إحساسها بالرضى لأن أحداً ما ينتظرها ويحتاج إليها.

وقفت داخل البوابة تصغي إلى التكتكات المتكررة الغريبة، التي تشكل صريراً متناوباً تصدره العصافير في نومها الجزئي القلق طوال الليل. استقرت الطيور في شجرة الكرز الكبيرة التي تُنتج مئتي باوند من الفاكهة في الصيف الجيد، لذلك وعند الشعاع الأول من الضوء يبدؤون بإطعام أنفسهم بنهم، قبل أن يصل صبي البستاني. كانت ثمرات الكرز سوداء تقريباً، لكن مازال يمكن تمييزها ضمن الكميات الوافرة من الأوراق التي تهتز برفق رغم عدم وجود أي رياح.

كان فريتز في تلك الأثناء يتجه نحوها في الطريق القادمة من الطرف الأدنى من الحديقة: «أمي، تعلمين أنني لن أدعك تنتظرين».

إن المرات غير المعدودة التي فعل بها ذلك لم تعد الآن موجودة، «عزيزي فريتز هل ذهبت لرؤية والدك؟»، «ليس بعد».

جلسا تحت شجرة الكرز على كرسيين من الكراسي الخشبية القديمة التي تُركت في الخارج كل فترة الصيف. عندما ولد فريتز كان كثير المرض وأبله، وقد وجه الجميع اللومٍ إليها فتقبلته. لكن بعد شهور من الحرارة المنخفضة أصبح طويلاً ونحيلاً أو عبقرياً كما كانوا يقولون.

سألها لماذا كانت ترتدي شالها الشتوي: «إنه حزيران (يونيو) يا أمي وإلا لما كنت سألتك أن تقابليني خارج البيت».

رأت أوغست الآن أن الشال يبدو سخيفاً. «لكن يا فريتز أنا أحس بالأمان فيه». تبسم ولم يكن يحتاج لأن يقول «أنت في أمان معي».

خطر في بال البارونة أوغست أن تجني فائدة من هذه اللحظة التي بدت في هذا الظلام الجزئي، وهذا العبير المقدس بالنسبة لها، وأن تتحدث لابنها الأكبر عن نفسها. كل ما تستطيع قوله يتلخص باختصار في أنها بلغت الخامسة والأربعين وهي لا ترى بعد كيف يمكنها أن تستمر خلال البقية الباقية من حياتها. انحنى فريتز نحوها بشكل مفاجئ وقال «أنت تعلمين بأن لدي شيئاً واحداً أسأل عنه، هل قرأ رسالتي؟».

عادت في الحال إلى نفسها «بالتأكيد قرأها يا فريتز، لكن أنا لا أستطيع أن أجزم، فهو لا يدعني قط أرى رسائله. لكن فليسامحني الله، أنا لم أرِه رسالتك. في كل الأحوال سيجتمع أهل البيت في لقاء الصلاة غداً مساء لمناقشة شأن عائلي مهم».

«لكن يا أمي أنت في صفي. قولي لي إنك كذلك. أنت تؤيدين ما فعلته وما سأقوم بفعله. أنا أتبع قلبي وروحي. لا يمكن أن تكوني ضدي».

صرخت: «كلا! كلا!»، «في هذه الحالة، لمَ لا تخبرين والدي بما تحسّين؟»، أجابت: «لكن يتوجب علي أن أطيعه، وهذا شيء طبيعي».

«هذا هراء، في عالم الطبيعة الأنثى غالباً أقوى من الذكر، وحتى إنها تسيطر عليه».

«أنت تعني بين العصافير والحشرات» قالت البارونة بجبن وخوف. «لكن يا فريتز هم لا يعرفون أفضل من ذلك».

قال لهـا وهو لا يبالـي إلا بحنوها الفطري غيـر العقلاني من أجله «يجـب أن تقولي لأبي بأنه ليس كافياً بالنسـبة له أن يوافق فقط على الخطبـة. يجب أن يكون لدينا مكان ما لنعيش فيه. لنعيش، من أجل صوفـي ومن أجلي، فكلانا وحيدان. أنت تفهمينني. أنت لست كبيرة في السن كثيراً حتى تنسي هذا».

سمحت أوغست لنفسها أن تتذكر بماذا شعرت عندما تُركت هـي والبارون للمـرة الأولى معاً وحدهما. لكـن المهم الآن ابنها الـذي كان إلى حـد ما غريباً في هذه اللحظـة من ليلة صيفية غامرة. «في الحقيقة، نعم يا فريتز، بالطبع..».

كان من الممكن رؤيتها تجاهـد ومعها لفافة صغيرة كانت قد خبأتها في جيب ثوبها النسائي التحتاني.

«فريتز أيها الأعز إلى قلبي، هذا سـواري الذهبي. حسـناً، عندي غيـره الكثير. لكن هذا حقيقة لي ولـم أحصل عليه من والـدك. حصلت عليه من جدتي عندما كنت في الثانية عشـرة من عمري بمناسبة الطقس الاحتفالي الكاثوليكي المناولة الأولى (تثبيت العماد). لقد تم توسيعه منذ ذلك الحين لكن قليلاً فقط. أتمنى عليك أن تعدله وتصنع منه خاتم خطبتك».

«لقد تمـت صناعة الخواتم فعلاً يا أمـي، انظري. يجب ألا آخذ سـوارك، فأنا لا أحتاج إليه. ضعيه جانباً واعتبري نفسك وكأنك قد أعطيته لي، أو احتفظي به إذا ما حدث أي شـيء مع سيدوني».

كثـرة الاهتمام يمكن أن تكـون أكثر إيلاماً من التجاهل. لكن رغـم ذلك فإن البارونـة كان عندهـا القليـل القليل من الفرص لتتعلم هذا.

بعد أن عادت إلى غرفتها التي كانت ما تزال في أعلى المنزل؛ تركت لنفسها العنان في التفكير ملياً في إمكانية أن يبقى فريتز دائماً في البيت حتى مع زوجة جديدة. بالنسبة لها، لن تطلب أكثر من ذلك سعادة على الأرض. بعد ذلك صلت من أجل الاستغفار لأنها كانت قد نسيت ولو للحظة السعادة التي كان برنارد يمنحها إياها.

برنارد نفسه فكر بالأمر ملياً. «ماذا سيحصل لنا يا سيدوني؟» سألها بشكل حزين. «أنت نفسك من ستتزوجين؟ إنك صعبة وليس لديك أي إحساس على الإطلاق تجاه ذلك الرجل المهتم بالطب الذي أتى في يوم الغسيل. رغم ذلك لم يتوقف عن النظر إليك. لابد أنك ستبقين عانساً».

لا أدري بشأن كارل وأنطون، لكني أعلم أن إراسموس تجاوز امتحانه الأول كخبير في علم الأحراج..».

«أنا سبقتهم،» قال إراسموس، «وقد هنأني مدير المدرسة، وكذلك فعل والدي وفريتز، الذي أرسل لي نسخة من روبنسون كروزو».

«إذن أرجوك أعرني إياها».

«لكنها بالإنجليزية»، قال إراسموس «أنت لا تستطيع أن تقرأ الإنجليزية».

«هذا صحيح» قال برنارد مع زفرة عميقة «في كل هذه الغابات البرية من الكلمات أنا ضائع».

«في كل الأحوال» قال أنطون، «يتوجب عليك ألا تعير كتاباً أو امرأة، فليس هناك من وفى بالتزامه في إعادة أي منهما».

«أنت تحاول أن تتكلم مثل كارل» قالت سيدوني «لكنك لم تتقن اللعبة بشكل صحيح تماماً».

«ذلك ببساطة لأنني أحس بأن الوقت يقترب من القرار الذي سيتخذ بشأني» قال برنارد وهو يقف بينهم في الفراغ الذي يفصلهم عن يسوع في الصورة المعلقة على جدار غرفة النوم.

«هل تعلم أنك ستكون الغلام الفارس» قال أنطون «إن المحاكم الانتخابية لكل من ثورينغيا وسكسوني قليلة المعرفة بما هو قادم إليهم».

«أنا أناشد كل واحد منكم» صرخ برنارد «من كان بمثل وعيهم فسوف يعتقد أنني يمكن أن أكون الغلام الفارس. لكن مهما كان المطلوب فعله فأنا أعلم أنه لا يمكنني ذلك».

جرت الدموع على وجهه بالرغم من أن عائلة هاردنبرغ لا يزالون يشعرون بنوع من الراحة. بالنسبة لفريتز فإنه لم يبقَ ليلة واحدة بعد أن تحدث مع أمه.

غادر البارون لعدة أيام مصطحباً معه الخادم الورع غوتفريد كمؤتمن على أسراره. في كل أرجاء المنزل كانوا يحسون به، مثل الموسيقى التي تتغير لكن ليس بالمضمون وإنما بالعلامات، تركيز أقل على الروح، تركيز أكثر على الجسد. اليوم وعند الساعة الثامنة والنصف صباحاً كان الجميع على مائدة الإفطار. البارونة لم تنزل وكان إراسموس وأنطون يتمددان على كرسييهما. كانت النافذة مفتوحة حتى الأرض فجلب الهواء رائحة شجرة الكرز والإجاص الكرزي الذي يزرع لصناعة ماء الكرز وهو عادة لا يعطي ثمراً حتى الخريف.

ذهب البارون إلى الإخوة الرهبان في نيوديتندورف من أجل استشارة الواعظ في مشكلاته الدنيوية. تكلم عن أملاك عائلته، إفلاس أوبرويدرستادت، العقارات الأربعة الضائعة التي بيعت

للغرباء وكذلك مقاطعة سكلوبين الألمانية. سكلوبين المحببة إلى قلبه بأشجار الحور، وطاحونة جدول المياه المعروفة، حيث كان يتمنى أن يعيش بعد تقاعده، جاعلاً منها مركزاً لتجمع بعض الإخوة الرهبان الكبار.

«في هذه الأثناء، يتجاهل ابني الأكبر أمنياتي. لو أن أوبرويدرستادت، وسكلوبين اجتمعا عليه لما عرف ماذا يمكن أن يفعل. سيكون من اللائق بالنسبة له لو يتزوج من طبقة النبلاء وأن يجد امرأة ذات ثروة كافية. لا تقولوا لي إني دائماً أفكر في المال. إن ذلك تحديداً هو ما لست مضطراً للتفكير فيه على الإطلاق، لكن منذ الأحداث الأخيرة في فرنسا انقلب العالم رأساً على عقب ولم تعد ضرورات الآباء تتوافق مع أبنائهم».

هز الواعظ رأسه موافقاً وقال بأنه سيعطي نصيحته فيما لو تعهد هاردنبرغ بأن يتبعها. وافق البارون وفي اليوم التالي عاد مع غوتفريد إلى ويسنفلس. لم يتوقفا عند أي حانة ولم يتبادلا إلا القليل من الكلمات، فقد كان الصمت بينهما أكثر قدرة على التعبير.

لاييزغ زيتونغ 13 يوليو 1796

خطبة

كريستيان ويلهلمن صوفي فون كوهن

وجورج فيليب فريدريك فون هاردنبرغ

غرينينغن ويسنفلس

حفلة الخطبة

(43)

ظهـــر الخدم خارج بوابـــة الفناء التابعة للمنزل في كلوســـتر غاس. كان الحمّال قد أحضر بيانو تم طلبه من قبل البارون من لاييزغ.

كل واحـــد يعرف الطريقة المثلى لتحريك البيانو أو ربما كيف يجب أن يُنقل. «ليس علـــى الدرجات الأمامية أيها الأحمق. إلى اليمين قليلاً، ربما من الأسهل لو نزعنا الأرجل».

عندما وصل البيانو إلى مكانه الثابت في الصالون، واســـتقر هنـــاك بعد أن نُزع عنه القش والخيـــش أصبح بالإمكان أن يُرى كشـــيء جميل نادر في مثل هذا البيت القاتم والصارم. لكنه قبل ذلك كان قد سبّب ما يكفي من المتاعب، فبالرغم من أن الأب قد قرر اســـتبدال البيانو القيثاري منذ زمن لكنه لم يكن قادراً على اتخاذ القرار فيما إذا كان ســـيطلبه من غوتليب سيلبرمان أو من أندريا ستين.

«آلات البيانو من سيلبرمان جهورية أكثر»، كتب له العم ويلهلم «لكن ملمســـها أكثر ثقلاً من آلات ستين التي يجب أن تُطلب من فيينا».

صـــاح البـــارون: «هذه من ويلهلـــم الذي بالـــكاد يعرف نغمة

موسيقية من أخرى، فالأحصنة في إسطبله أكثر قدرة منه على تمييز الألحان». تابع البارون: «المصنعون الفرنسيون هم الأفضل». وافقه هيون العجوز. «لقد هربوا من الأوضاع البغيضة في باريس ولجؤوا إلى لندن حيث استقروا في المتحف البريطاني. تستطيع أن تجدهم هناك».

لو أن البارونة كانت قد استشيرت بهذا الخصوص لقالت إنها لا تهتم لوجود البيانو كآلة على الإطلاق، وإنها تراه مملاً بالمقارنة مع الأصوات الحيوية للبيانو القيثاري الذي يذكرها بصباها. إن البيانو القيثاري الذي تم ترحيله خارج المنزل كان في الحقيقة ذلك الذي أحضرته معها إلى أوبرويدرستادت بمناسبة زواجها. كان فرنسي الصنع وكان عليه صورة معبد منهار في ضوء القمر على السطح الداخلي للغطاء، لكن الرطوبة القاسية في ويسنفلس حيث اختار نهر السال بسرية أوقاته الخاصة في أي فصل من السنة لتفيض ضفتاه قد ألحق به العفن تدريجياً فبهت لونه. أما المقابس فقد أصبح بعضها مثل صف أسنان قديمة، وكان بحاجة لإعادة الدوزان في كل مساء، وعند الصباح تضيع درجة الصوت. بدا أن بعضاً من أجزائه أيضاً قد أصبحت من دون براغ. «أتجرأ على القول إني سأكون موضع لوم» قال برنارد. وفي الحقيقة فإن كارل اشتكى أيضاً من أنهم سمحوا للملاك بأن يحول البيانو القيثاري إلى حطام، بينما كان هو لا يزال في فوجه. «لكن في كل الأحوال أنت لا تستطيع أن تعزف عليه مثل أنطون» قال برنارد، «وقد تم بيعه كحطب للوقود».

اشترى البارون البيانو من جوهانز زومب أحد الصناع المتدربين لدى سيلبرمان الذي كان قد أعلن عنه في زيتونغ،

وبهذه الطريقة نجح في عدم الانصياع لنصيحة أخيه ويلهلم.

استدعي أنطون؛ أنطون الذي كان يعتقد الجميع أن لا شيء يشغله في الحياة سوى أن يحذو حذو كارل أصبح الآن شخصاً ضرورياً. كل العائلة تستطيع أن تعزف. إراسموس يستطيع عزف أي شيء بشكل سماعي، سيدوني كانت موسيقية بحق، لكنهم لا يستطيعون أن يعزفوا مثل أنطون.

كان للبيانو دواسة ثالثة تسمح بتعزيز الجوابات الثلاثة الدنيا، بينما الثلاثي يتضاءل بالطريقة العادية. جلس أنطون بمفرده رافضاً أي مساعدة في الصالون. على الرغم من أنه لم يكن أحد متطلبات البارون عندما اشترى المنزل، لكن صالون منزل هاردنبرغ قد بني أصلاً كغرفة موسيقى وليس لأي غرض آخر، وحتى فضاؤه قام بحمل كل نغمة موسيقية بإخلاص، وازنها، وتركها تقع على مضض.

طلب البارون من زوجته أن تدعو ضيوفاً مناسبين من ويسنفلس والمناطق المجاورة إلى حفلة السواريه. «إنه طيب القلب جداً، بحسب سيدوني. إنه لا يستطيع أن يرتاح ما لم يستمتع بمشاركة جمال الموسيقى الجديدة». ذهب هاردنبرغ لوقت قصير جداً للقاء الإخوة ولبضع جولات مراقبة، ولم يكن يدرك بعد أن البيانو لم يكن إلا بدعة في ويسنفلس. حتى رئيس القضاة فون ليندينـاو كان عنده مضرب غولف خشبي عريض تم طلبه من إنجلترا بناءً على مواصفاته الشخصية.

«بالتأكيد إن ما نتشارك به هو سعادة أبي النابعة من القلب بخطبة فريتز» قالت سيدوني.

«بالطبع يا عزيزتي».

«القادمــون من غريونينغن، والذين لا نســتطيع أن نخمن كم عددهم لا يســتطيعون بالطبع العودة إلى بيوتهم في نفس الليلة. لا بد أن يبقوا كلهم هنا، ويتوجب عليك أن تفكري بشأن الغرف».

لم يتشــوق أحد في ويســنفلس كثيراً إلى دعــوة هاردنبرغ. لم يكن ذلك بقصد التقليل من أهمية العائلة فالكل يعرف ورعهم وأعمالهــم الخيريــة، لكن الناس كانوا بشــكل نــادر وبتعبيرات رســمية جداً يهتمون بالاحتفالات. كان اهتمامهم أكثر بضرورة تمرير الوقت الثقيل، كالموت نفســه. معظم الضيوف ســيكونون من الرسميين والكل سيعرفون بعضهم، لكن لا أحد منهم سيكون قد قابل عائلة روكنثاين من قبل، ما عدا عائلة جوســت بطبيعة الحال. ولدى هؤلاء اهتمام كبير بالحضور لكنهم سيقضون الليلة في بيت العجوز هون عم راحيل.

كان لوقا عند الباب، أما غوتفريد فكان المسؤول عن الاستقبال فــي غرفة الجلوس التي تقود إلى الدرج الســفلي الكبير لغرفة الضيــوف. كانت رحلته الأخيرة مع البارون إلى نيوديتندورف قد منحته مزاجاً لطيفاً مع شــعور معتدل بالسلطة لم يكن ملحوظاً من قبل. اعتقد إراسموس أنه من الممكن أن يكون قد بدأ الشرب.

«شيء لا يصدق» قالت سيدوني «لقد كنت خارج المنزل لوقت طويل».

بدأت مجموعات صغيرة من ثلاثة أشخاص أو أربعة تتمشى ببطء في كلوســتر غاس لتشــاهد ضيوف عائلة هاردنبرغ وهم يصلون وخصوصــاً طبقة النبلاء التي لا تــرى إلا نادراً. حضر يوليوس فون شوينيز أوند كراين في عربة كبيرة ذات أربع عجلات ومقعديــن متقابلين وغطاء قابل للطي مثــل الكفن، «خذني إلى

مكان هادئ» أخذ غوتفريد بيده إلى غرفة الدراسة.

في غرفة الاستقبال كان الخدم يدورون وهم يقدمون كؤوس العرق الصغيرة. أما فريتز فقد كان يراقب وينتظر أولئك الذين يعتقد أنهم رفاقه المقربون، خصوصاً الذين يفهمون الشعر مثل فريدريش براشمان، المؤيد، الذي درس معه في لايبزغ. كان براشمان أعرج منذ الولادة لكنه كان يمشي بحذر شديد بحيث لا يمكن ملاحظة عرجه مع أن كل من في ويسنفلس كان يعرف ذلك. كان يطمح أن يدخل في قسم الضرائب، فعرجه لا يهم هناك، ولا حتى أفكاره عن الجمال ستكون ذات قيمة. وضع فريتز يداً في يده والأخرى حول فريدريش سيفرين.

«أوه، يا أفضل الأصدقاء، أنا أهنئك» قال سيفرين.

«كيف حال الأخ الأصغر الذي يحب الماء؟».

«أعتقد ليس من المفترض أن يكون في الأسفل» رد فريتز، «لكن أتجرأ أن أقول هو هناك»».

كانت لويز وهي أخت براشمان صديقة عزيزة لسيدوني التي بدورها تحركت نحوها حالما تم إعلان اسمها من قبل غوتفريد. كانت لويز تبلغ من العمر التاسعة والعشرين وكانت شاعرة.

كانت الفتاتان ترتديان الأبيض، ثوبان تمت خياطتهما من قبل نفس الخياط، لكن سيدوني بدت وكأنها تتحرك طيراناً أو في سحابة من البياض، رقيقة، خفيفة، وغريبة بالنسبة للمشاهدين في ويسنفلس، بينما كانت لويز تتمنى فقط ألا تسمع على الأقل هذا الصيف اقتراحاً، بأنه ربما حان الوقت بالنسبة للآنسة براشمان لكي تتوقف عن ارتداء الأبيض تماماً.

«أوه لويز.. لويز.. لقد تكلمت مع فريتز وهو سوف يرسل

لك قصائد من أجل فريدريش ســكيلر، ما عليك إلا أن تحتفظي بالنسخ يا عزيزتي لأن الرجال العظام غالباً ما يفقدون ما يرسل لهم».

التمعت عينا ســيدوني بفرح لأنها تمكنت من إســعادها. أما لويز فلم تجب.

«لكن أليس هذا ما أردته يا لويز؟».

«ألن يقوم أخوك نفسه بقراءتها؟».

تعثرت سيدوني «أنا متأكدة بأنه ربما فعل ذلك».

«مــاذا قال هو لك عنهم؟» بعد ذلك وبعد دقيقة «ليس لها أي دلالة، هي فقط كلمات، كلمات مكسورة عن المرأة».

تمنت ســيدوني لو أن المدعوين من غريونينغن يصلون. عرفت أن عائلة روكنثاين قد غادرت، حيث إن مانديلسلوه كان لديها حس جيد لترســل صبي الإســطبل الجديد كرســول في اللحظة التي بدؤوا فيها رحلتهم. كان الصبي مكسواً بطبقة كثيفة من الغبار قد وصل للتو وكانــوا يعتنون به في المطبخ. في غضون ذلك حضرت عائلة جوســت وكان كويلســتين يبدو مهيباً فــي بدلته الاحتفالية بلونهــا الأخضر الغامق الذي يناســب رتبته. هيــون الذي حضر معهم كان أيضاً مخصصاً ببدلة رغم أنها لا تبدو ظاهرياً تناسبه. أما كارولين التي كانت نادراً ما تشرب فقد ابتلعت نصف كأس من العرق وذهبت لتقف مع فريتز وإراسموس وسيفرين وبراشمان.

«أين سيدوني؟» سألت.

«مع لويز، مع المســكينة لويز،» قال إراسموس «كل ما يهم أنك وصلت، أنت أفضل صديقة بالنسبة لنا جميعاً. أنت توفقين بين الجميع، وسيدوني نفسها، لا تستطيع أن تفعل ذلك بشكل جيد».

«أنت فعلاً كذلك» قال فريتز «أين جوستن حتى أطمئن؟».

«إذن أتمنى يا آنسة أن تزوري محل بيع الكتب الخاص بي» قال سيفرين.

«بالطبع سوف تزوره» صرخ فريتز «هي تعلم عن الكتب بنفس القدر الذي أعرفه، وتعرف أكثر عن الموسيقى».

«ليس هناك أي شيء لتعرفه عن الموسيقى» قالت كارولين وهي تبتسم.

«يجب أن تمثل لنا فيما بعد».

انحنى فريتز واستأذن منهم. تطلعت كارولين ببطء حولها دون أن تسمح لنفسها بأن تراقب أين يذهب فريتز. رأت الزوار وكأنهم سحابات رمادية وسوداء وبنية من البدلات التي بدا معظم من يرتديها يتحدثون مع بعضهم مجتمعين كعقد متلألئ من الألوان التي تقل قساوتها كلما بدأ ضوء المساء بالتلاشي. الشفق، الحمد لله، الرحمة لنا جميعاً. الفساتين البيضاء الأكثر جلاءً الآن ما تزال تتريث على الحافة الخارجية للمجموعات فيما عدا فستان سيدوني التي أسرعت إلى جهة سنف، الذي كان يقف بمفرده مرتدياً معطفاً مرقعاً ضامر الذيل، رغم أن لديه الكثير من الثياب الجيدة، وكأنه يشير بذلك إلى شعوره بعاره السابق. كانت سيدوني تميل برأسها نحوه وتضحك، أمر بدا غير مألوف لأنه من المعروف أن سنف لا يمكن أن يقول شيئاً مسلياً. لقد بدا متفاجئاً أو حتى مسحوراً.

في هذه اللحظة كان فريتز نفسه مع لويز منحنياً عليها بشكل غير ملائم، لكن بغريزة لطف حقيقي، فالشاعرة قفزت أمامه مثل سمكة.

سـحب براشـمان إراسـموس جانباً باتجاه النوافذ وقال له «أتعرف أني لم أقابل الآنسـة جوست من قبل؟ إنها لم تعد شابة تماماً لكنها تتمتع بالثروة والنقاء». «هل تعتقد أنها يمكن أن تفكر بأعرج كزوج؟».

ترنح إراسـموس إلى أن أصبح قـادراً على الإجابة «أوه، لكن يبدو أن عواطفها مشغولة. أنا لا أعرف أين ولا أعرف لمن، لكني متأكد من ذلك جداً».

يا لهما من زوج محرج هما الاثنان، فكر.

«كنت تسـأل عن برنارد» قالت كارولين التي تركت وحيدة مع سـيفرين. «أعتقد أن هاردنبرغ مولع بصدق بأخيه الأصغر. إنه مولع بالأطفال».

«يبدو كذلك بالفعل» قال سـيفرين «بالنسبة لبرنارد يجب أن تتذكري أنه ليس كل الأطفال هم مثل الأطفال».

المخطوبة
(44)

ربما لن تشــهد ويسنفلس ليلة أخرى تشبه هذه الليلة. كان الضيــوف ينتظرون رغم أنهم غير معتادين على ذلك حتى في هذه الغرفة الشاسعة وقد تحولت معظم وجوههم إلى ما يشبه فاكهــة حمراء مرتاحة. لم يكونوا قادرين على الاســتقرار في مراقبتهــم المألوفة لأزيــاء بعضهم، التي يليها عادة نقاشــات ومراوغة في التقدم للأمام والتراجع للخلف في دوران وتكرار حــول ثرثرة عميقة وثقيلة قبل الاســتغراق فــي تناول أرجل الإوز المخللــة ولحم الخنزير الأســود والليكور والكعك المحلى والمزيــد من الكحوليات ثم عودة لطيفة إلى البيت، واســتلقاء قلق في الســرير. في هذه الليلة لا يمكنهم أن يعولوا على أي شــيء. ســرت بين جميع الضيوف حالة من الحيرة والترقب كما تتســرب الإشارات الأولى للحمى التي تصيب حتى الأكثر صلابة.

لا أثــر بعد لعائلة روكنثاين، وما مــن وجود بعد للخطبة. في المطبخ، حث الطباخ، صبي الإســطبل المحتــج الذي أحس بأنه يتحمــل الذنب بطريقة أو بأخــرى، على أن يركــع على ركبتيه ويصلي من أجل وصول مستخدميه سالمين.

«ســـوف يحضرون» قال وهـــو ينتحب «لكن الآنســـة صوفي لا تستطيع أن تستعجل فقد كانت مريضة».

كان البارون رابط الجأش لأنه لم يخطر بباله منذ اليوم الذي وافق فيه على الخطبة، أن يعدل أي من الترتيبات التي اتخذها. في غضون خمس عشرة دقيقة، سوف يصعد الجميع إلى الأعلى من أجل ســـماع البيانو، وفيما بعد سيكون العشاء الذي لن يأخذ فيه مقعده على رأس إحدى الطاولات بل سيتنقل حولهم متوقفاً تارة عند أحد الكراسي وتارة أخرى عند كرسي آخر، بينما فريتز وخطيبته يجلســـان جنباً إلى جنب. بعد ذلك تبدأ الموسيقى وإن كانت صحة صوفي تسمح يمكن أن يرقصا.

مـــازال هناك ســـت دقائق ونصـــف قبل الذهـــاب إلى غرفة الموســـيقى، وقد ســـمح لنفســـه بزيارة قصيرة لصديقه القديم شوينيتز أوند كراين الذي مازال نصف نائم حيث تركه غوتفريد.

«هاردنبـــرغ، ما هذا الذي أشـــربه أنا؟ هل هـــذا ما يدعونه شراب البنش؟».

«نعم فقد قيل لي بأن فريتز هو الذي قام بمزجه بنفسه».

«إنه يحتاج إلى مزج؟».

«نعم يبدو كذلك».

«لقد تبدد الوقت يا هاردنبرغ».

«سأطلب منهم أن يحضروا لك شيئاً آخر».

«هاردنبرغ، من هؤلاء عائلة روكنثاين؟».

هز البارون رأسه.

«يا للحسرة يا صديقي القديم!» قال الكونت.

صعـــد الجميع عبر الدرج الرئيســـي الكبير، وتم إجلاســـهم

على كراسٍ باهتة ورثَّة، جُلبت من كل أنحاء المنزل، وكانت معظم الشموع قد انطفأت.

مازال أنطون في الرابعة عشرة، يبرز فقط معصميه الغضين، من بذلة أخيه الأولى، جالساً عند زومب حيث يسقط الضوء الأكثر سطوعاً.

«سوف أبدأ بشيء لجوهان فريدريش ريتشارد» أعلن بجرأة «سوف أعزف واحدة من أغانيه الثورية».

«ما هذا يا ولد؟» تكلم البارون بصوت عال.

«أنطون سوف تبدأ ببعض الموسيقى الدينية». صرخت الأم بسلطتها المتعبة: «سوف تعزف: كيف يموتون بكل هذه النعومة».

استدار أنطون نحوها وهز رأسه. بعد ذلك ارتفع صوت البيانو هادئاً وواضحاً جداً.

استمر الهواء اللطيف معزولاً عن أي ضجة في كلوستر غاس، لكن بعد ذلك فُتحت أبواب غرفة الموسيقى فجأة وانسكب الضوء فيها من الممر العريض خارجاً. وعلى الرغم من أن غوتفريد، فوجئ بالمقاطعة، لكنه قدم السيدة فون روكنثاين الجميلة، التي تبدو كالنائمة في فستان من اللون البنفسجي الفاتح، وقدم هوشر وجورج المعاقب. لكن أين هي؟

«أعطوني أوامر لكي أمشي»، تكلم روكنثاين بصوت عال: «إن ابنة زوجتي ترتاح لبعض الوقت في أسفل الدرج». تقدم باتجاه مضيفيه ضخماً مسفوعاً بالطقس يصفق بيديه.

«كأنه فزاعة غربان» تمتمت لويز براشمان «فلتساعدنا السماء، إنهم يبدون مثل عصابة من أجراء (عمال) المزرعة، وقد أتوا لاستئجار معرض».

استقبل البارون الجماعة بلطف ومجاملة حريصة، معطياً إشارة إلى غوتفريد الذي شرع في إشعال الشموع للمرة الثانية.

توقف أنطون لبرهة عند نهاية المقطع التالي وطوى يديه. أين كانت الخطيبة؟ تمتم كبير الضيوف بشيء من الشفقة والاستغراب، لابد أنها تحتاج إلى من يحملها.

لكن صوفي وقد تبعتها مانديلسلوه مباشرة، أتت وهي تركض تقريباً عبر الغرفة بشوقها القديم، بشحوبها، نعم هذا حقيقي، لكنها متلهفة وعلى درجة عالية من المهارة كما هي دائماً، وجاهزة بشكل جلي لأن تمتع نفسها. كانت تلبس حريراً مطرزاً. فكر الجميع، من أين يمكن أن يأتي هذا؟ كان شعرها قد خُبئ تحت قبعة بيضاء مناسبة جداً لخطيبة، وقد وُضعت وردة بيضاء واحدة فقط.

«هاردينبرش!» كان هناك.

«قالوا يجب ألا أحضر».

ظن الجميع أن هذه ستكون نهاية عزف أنطون المنفرد، لكن مانديلسلوه، التي كانت قد قررت وبتكتيكها الخاص حالما دخلت المنزل، أن تقنع البارونة، بأنهم يجب أن يسمعوها كلهم، حتى النهاية. تم تفريغ الصفوف الأمامية من الكراسي وتحويلها لإفساح المجال للقادمين الجدد. أومأ أنطون برأسه، مصغياً لموسيقى وضعت لبعض من ترتيلات البريثرين (إخوة الدين) للأب الألماني زينزيندورف Zinzendorf، مروراً باثنين أو ثلاثة من الغناء الأوبرالي الألماني سينغسبايل singspiel. ما المقطوعة التي عزفها بعد ذلك؟ كانت المقطوعة الأكثر جمالاً، شخصياً لم أعرفها، هل من الممكن أن يكون أنطون قد ارتجلها؟

لم يصرح أحد بأنه عرفها، لكن الجميع كانوا نصف مغمضي الأعين من السعادة.

انتهى بمقطوعة جوهان سيباستيان باخ، كابريشيو عند فراق أخيه. تأوه المستمعون بعمق.

في النهاية توقع البعض منهم أن يكون على العشاء تبادل للخواتم بعد أن يقوم والد عريس المستقبل بالتصريح بما ينوي أن يعطيه بخصوص الفرش، أسرّة من ريش الطيور وكذا وكذا، مع قائمة من الأملاك ربما. لكن عائلة هاردنبرغ لا تفعل الأشياء بنفس الطريقة، فقد وقف البارون على قدميه ليوقف المأكل والشراب للحظات قليلة من أجل أن يعرب عن سعادته وسعادة زوجته بالترحيب بهم جميعاً، وأن يطلب منهم أن يشاركوه بصلاة قصيرة.

كذلك كان من المتوقع ألا يكون هناك رقص بعد العشاء بسبب مرض الآنسة صوفي، لكن صوفي توسلت من أجل الموسيقيين. ذكرتها مانديلسلوه بأن الدكتور إبهارد، الذي ربما ارتاح لتمكنه من قول شيء ما محدد، قد منعها من الرقص بشكل مطلق.

«أنا أتمنى لو كان هنا» صرخت صوفي «فلسوف أجعله يرقص الفالس حتى تغلي دماغه».

جلست بين أمها وأم هاردنبرغ، البارونة والسيدة روكنثاين المبتسمة دائماً. تمنت لو أن أنطون كان مازال يعزف تلك المقطوعة تحديداً حتى النهاية، التي كانت متأكدة أنها عرفت اسمها مرة وتمنت لو كان الطفل معها. لم تكن محرجة من صوت زوجها العالي، فزوجها الأول أيضاً كان كثير الضجة، ولم يكن لأي منهما أثر عليها أكثر مما كان للطقس العاصف.

في هذه الأثناء كانت البارونة تتصارع وحيدة مع شيطان الخجل، فالكأس الوحيدة من العرق التي كانت قد شربتها لم تساعدها على الإطلاق. رغم خشيتها من أن يكون ما تشعر به في قرارة نفسها خطيئة لكن أملها خاب بشكل رهيب بمظهر كنتها المستقبلية. تمتعت صوفي بلهفه حماسية مؤثرة محددة لكنها كانت تلك اللهفة الطفولية، ربما لأنه لم يكن لديها الوقت الطويل لتنظر إلى نفسها، بينما علقت أوغست أهمية كبيرة على الوقار، طول القامة، والجمال الملكي. ربما تبدو صوفي أفضل إذا ما تركت شعرها منسدلاً. لقد قال لها فريتز إنه غامق.

لم يكن ينبغي لصوفي أن ترقص، لذلك قدم فريتز كبار الشخصيات في ويسنفلس الواحد تلو الآخر ليعرفهم عليها، وكان صديقه الخاص الأصغر عمراً، من بين الجميع. «تغمرني السعادة بأن أقدمك إلى الآنسة فون كوهن، التي منحتني الشرف... هذه صوفي، هذه هي فلسفتي الحقيقية... هذه صوفي، هذه هي ملهمة روحي في كل شيء..».

«أوه، يجب ألا تلقي بالاً له» قالت هي مجاملة. كانت تجبر نفسها على ألا تنقر بأقدامها. بدت الموسيقى وكأنها تنساب إلى دواخلهم وفوقهم من خلال جسمها كله. أحست بنفسها كأنها زجاجة من الصودا. اكتسى وجهها أخيراً بلون زهري باهت.

«أوه يجب ألا تلقي بالاً له.. عندما يقول مثل هذه الأشياء أنا أضحك». وضحكت بالفعل.

تركت صوفي انطباعاً محبباً فهي لم تكن أبداً، من ذلك النوع من الزوجات الذي يمكن أن يتوقعوه بالنسبة لعائلة هاردنبرغ. كانت ساذجة وهذا يبهج، الطبيعة دائماً تبهج.

كم من المال سوف تجلب معها؟ سأل بعضهم بعضاً.

عزم جورج، الذي كان على وشك الاختناق بسبب ياقتة الطويلة، على أن ينضم إلى مجموعة الراقصين، حالما يكون الوضع مناسباً، لكنه لم يكن يشعر بأنه كان قد حصل على القدر الكافي من الطعام ليحتفظ بقوته في أقصاها. في الطابق الأسفل في غرفة الطعام نصف المظلمة، والتي لم تكن قد مسحت بعد، التقى جورج صبياً بمظهر ملاك يصغره بسنتين، مظهر مزعج بالنسبة لجورج. تمكن جورج بهدوء من أن يساعد نفسه وحصل على فطيرة حمام باردة، وشد قبضته اليسرى في جيبه، تحسباً لوضع يكون فيه الرجل الأقوى هو الرابح، وكان من الضروري أن يوجه للملاك ضربة. قال بصوت عال: «ألا تظن أن أختي صوفي جميلة؟».

«أنت جورج فون كوهن؟» سأل الملاك!

«هذا شيء يخصني».

«هل أنت جائع؟».

«في البيت نحن لدينا طعام أكثر لنأكله من هنا.. أنا سألتك إذا ما كنت تظن بأن أختي التي ستتزوج أخاك فريتز، جميلة؟».

«لا أستطيع أن أعطيك جواباً على هذا. أنا لا أعرف فيما إذا كانت جميلة. أنا لست كبيراً كفاية لأحكم على هذه الأشياء، لكن أنا أعتقد بأنها مريضة».

ارتبك جورج وقد حشا فمه بكمية أكثر من الفطيرة.

«أوه، هناك دائماً شخص ما مريض في كل بيت» قال برنارد «ألا تعتقد أن أخي أنطون عزف على البيانو بشكل جيد؟».

«الترتيلات؟».

«لم تكن كلها ترتيلات».

«نعم لقد عزف جيداً»، اعترف جورج. «إلى أين أنت ذاهب؟».

«أنا ذاهب إلى الخارج، لأتمشى بجانب النهر في الظلام. هذا هو الأثر الذي تركته الموسيقى علي».

شرب جورج كأساً من البراندي بأقصى سرعة على طريقة زوج أمه وترنح إلى الطابق العلوي ليشارك في الرقص.

في الحقيقة وعلى عكس كل التوقعات كانت مانديلسلوه راقصة فاتنة، كانت الأفضل في الغرفة. لكن لأن زوجها لم يكن معها ومن أجل صوفي لم تكن لترقص ذلك المساء، ولا حتى مع الشاب جورج الذي علمته بمشقة منذ سنة أو أقل قليلاً الخطوات. «لا تطلب مني!» قالت لإراسموس عندما أتى بكل ثقة إليها.

«أنا لن أطلب منك أن ترقصي، أنا أعرف أنه يجب علي ألا أطمح إلى هذا الشرف، أنا كنت أريد أن أسألك أن تساعديني».

«ماذا تريد؟».

قال إراسموس: «خصلة من شعر صوفي».

أدارت مانديلسلوه رأسها نحوه ببطء ونظرت إليه بإمعان: «أنت أيضاً!».

«كمية قليلة جداً، لأضعها في مفكرة الجيب قريبة إلى قلبي.. أنت تعرفين أنا لم أفهمها في البداية لكن فجأة خطر في بالي لماذا وضع أخي الكلمات (صوفي كوني حارس روحي) منقوشة على خاتمه..».

قالت ثانية: «أنت أيضاً!».

«خصلة من الشعر على سبيل الذكرى بالتأكيد ليست كثيراً

جداً، ليست بالشيء الكثير... لقد فكرت بأن أسأل كارولين جوست لكي تتكلم مع صوفي، لكن أنت، بالطبع، الشخص المناسب. هل ستتكلمين معها؟».

«لا» قالت مانديلسلوه «إذا كان هذا ما تريده فيجب أن تسألها بنفسك».

اختار إراسموس وقته بعناية. فربما أوقاتنا دائماً ما تُختار لنا. صدحت آلات الكمان في غرفة الموسيقى حيث كان الناس يرقصون بموسيقى إسكتلندية، وكان لديه إحساس بعدم إدراك ما يسمع أو لماذا كانوا يعزفون ذلك. بدا لنفسه وكأنه ينتمي إلى عالمين أحدهما ليس له أهمية.

كان يقف الآن بمحاذاة كرسي صوفي، على بعد إنشات من جسمها الرقيق الذي تفوح منه رائحة المرض. نظرت إليه بإشراق.

«أنت بالكاد تكلمت معي هذا المساء يا إراسموس».

«كنت أحاول أن أكمل في ذهني كيف يمكن أن أصيغ ما أريد أن أقوله». تلعثم، بالطبع كان يطلب فقط خصلة واحدة، كمية قليلة فقط، ليس مثل الكمية التي أراه إياها فريتز في أوائل الربيع، والتي عرف بأنها سوف تدهن وتوضع في قلادة أو علبة ساعة. «علبة ساعة» كرر «لكن بالطبع ليس أبداً مثل هذا..». ضحكت صوفي. كانت طوال الوقت تضحك، هذا حقيقة، معظم المساء لكن ليس بنفس المتعة كما فعلت الآن.

تراجع إراسموس إلى الخلف بخجل، حيث تواجه مع مانديلسلوه «يا إله السموات، بالتأكيد أنت لم تطلب منها!».

«أنا لا أفهمك» قال لها «أنت قلت لي أنا فكرت بك على أنك صريح ومنفتح..».

«هل توقعت أنها ستخلع قبعتها؟».

هو لم يفكر بذلك على الإطلاق.

«قليلاً قليلاً سوف يسقط» قالت له مانديلسلوه «بسبب المرض بعد شهرين، ستكون صلعاء تماماً..».

تطلعت إليه بثبات دون أي تلميح بالغفران «أنتم عائلة هاردنبرغ تذرفون الدموع بسهولة» قالت «لقد سمحت لي الفرصة لأن أرى ذلك من قبل».

«لكن لماذا ضحكت؟» سأل إراسموس المسكين.

يجب أن تذهب إلى جينا
(45)

عرف فريتز أن صوفي كانت صلعاء، لكنه كان واثقاً لأن شعرها الداكن سيعود. عرف أن صوفي لا يمكن أن تموت. «ماذا يمكن لرجل أن يفعل؟ ماذا يستطيع أن يفعل؟» قال لكويلستين جوست. «مازالت المرأة تستطيع أكثر». لكن يجب ألا تدعوا الوقت ينزلق، كانت صوفي تحتاج لنصيحة أفضل. في الحقيقة يجب عليها أن تذهب إلى جينا.

«سيأتون لاستشارة ستارك، لكن مع من يمكن أن يسكنوا؟» سأل فريدريك شليغل. «كان لهاردنبرغ عمة هنا في جينا، لكنها ماتت من حوالي سنة تقريباً على ما أظن. حسب اعتقادي ستكون الفلسفة في رعاية أختها زوجة الضابط».

«ووالد هاردنبرغ أيضاً، أفترض أن يكون متنقلاً ذهاباً وإياباً» قالت كارولين شليغل. «سوف يكون قلقاً بما يخص معتقداتنا وحياتنا الأخلاقية. ويل للحرية، ويل لغير المكثرين من الصلاة!».

لم يكونوا في جينا من الناس المتصدقين، لكنهم كانوا مضيافين. كانت السنة الأكاديمية قد انتهت، والمدينة كانت قد بدأت تتعرق، حيث سيشوى الصلصال الأصفر قريباً ليصير جافاً. بدا برج الكنيسة وكأنه يتذبذب في حرارة الشمس. بعد وقت قصير سيكونون كلهم

فـــي عطلة ماعدا المســكين ريتر الذي تراجع إلى الســندرة (العلّيّة) وتوارى عن الأنظار.

بالنســبة لصوفي وماندليســلوه فقد انتقلا للتو إلى المساكن في شــوفيلغاس. كانت الغرف صغيــرة وكان هناك ثلاث مجموعات من درجات الســلم، وقد تم اختيار البيت لهما لأن صاحبة البيت السيدة وينكلر اعتادت على اســتقبال الســيدات الصغيرات المعتلّات. كان واضحاً من البداية بأن لديها الطبع الذي ينجذب إلى المرض وكل ما يتعلق به. كان هذا مزعجاً، لكنه يعني أنها ستجلب إلى الأعلى أباريق الماء الســاخن في أي وقت في الليل أو في النهار. في النهاية فكرت ماندليسلوه مطمئنة نفسها، لن يكون هنا أية رسميات -ليس تلك التي كانت موجودة بكثرة في غريونينغن- وســوف تشعر المسكينة صوفي وكأنها في بيت الدمى الذي يخصها مع أباريق الخزف المنقوشة التي تنتظر بكل تواضــع على خزانة الأطباق المزدحمــة. كان عليها رغم شكوكها بشــأن صحة خيارها أن تستجمع شجاعتها لتفتح الرسالة الأولى مــن البارون. لم تكن تعلم أن العم ويلهلم الذي وصل رغم أنه لم يكن مدعواً إلى ويسنفلس من أجل إعطاء النصيحة، قد صرح بأنه لا يوجد أماكن للســكن في جينا، ماعدا ربما القصر الســابق حيث يقيم عادةً غوته والذي يبدو مناسباً لخطيبة ابن أخيه الأكبر.

«الغرف التي تركها ســاكنوها كلها في أعلى المنزل وهي مناســبة مــن أجل تربية الحمام. في كل الاحتمالات، أنا أعرف المدينة أفضل من أي واحد منكم. هذه الأخت الكبرى ســوف تســتقر في غرفتين من السندرة (العلية). النساء دائماً يقنعن بالقليل». كتب البارون إلى زوجــة الملازم ماندليســلوه بأنه كان يتأمل أن يأتــي ويراها بأقصى سرعة ممكنة وأنه متأكد بشكل كامل من أنها اختارت بشكل حكيم.

الزوار
(46)

دفتر يوميات فريدريكا سبتمبر 1796.

كانت صوفي تحاول أن تحافظ على مفكرتها متجددة، لكنها يجب ألا تكلف نفسها عناء ذلك أبداً. لأكن أنا المدون.

نحن بخير بما فيه الكفاية هنا في غرفنا الصغيرة. أحضر عشاء صوفي بنفسي. هذا أفضل من أن نرسل في طلب روز وذلك حرصاً على ألا نزعج صاحبة بيتنا. من ناحية أخرى، هواء جينا لا يناسبني وربما لا يناسب أحداً، ويبدو أن كل أساتذة الجامعة والأدباء لديهم بعض الشكاوى ضد بعضهم. الطقس حار جداً. إنهم يبدؤون برحلاتهم الصغيرة، وبالعطلة الطويلة. الشوارع كانت خاوية، حيث يسكنون.

زارنا البارحة مساء صديق هاردنبرغ فريدريك شليغل، الذي لم يصبح بروفسوراً بعد كما أظن. استقبلته بنفسي لأن صوفي كانت قد خرجت مع السيدة وينكلر لمشاهدة موكب عسكري. فليعلم الله، أنا نفسي كنت قد شاهدتهم حد التخمة.

لكن حالما يتراجع الألم قليلاً ستكون حبيبتي أختي الصغيرة جاهزة لتجد كل شيء مسلياً. تشعر أنها تقريباً تعود لنفسها.

حسناً، بالنسبة لفريدريك شليغل فهو فيلسوف ومؤرخ.

لـم يكن بإمكاني تجنب نظرته السوداوية. قال لـي: «يا زوجة الملازم، تحاول أختك الآنسة فون كوهن أن تجعل دماغها يعمل بنفس الطريقة التي يعمل فيها دماغ هاردنبرغ كما يحاول شخص ما تعليم عصفور نصف مروض كيف يغني ككائن حي. هي لن تنجح، والأفكار التي كانت لديها من قبل ستصبح الآن مشوشة، وبصعوبة ستعرف ماذا ستضع في مكانها».

سألته: «هل قابلت أختي من قبل يا سيد شليغل؟».

أجاب: «ليس حتى الآن، لكنني أعتقد أنها مثال عن نموذج محدد يمكن تمييزه بسهولة».

قلت له: «هذه أختي».

عادت صوفي فيما بعد إلى رعاية السيدة وينكلر التي قالت بخيبة أمل واضحة: «لقد توقعت أن السيدة الصغيرة سيغمى عليها، لكن ذلك لم يحدث».

رغم أن فريتز قد حصل على موعده الأول الرسمي كمفتش ملح مساعد، ولم يكن يُسمح له إلا بفترات قصيرة من التغيب لكن روكنثاين تركوا له أمر معالجة صوفي بالكامل.

«لا يوجد نظام آخر يمكن الاعتماد عليه مثل نظام براون» قال فريتز لكارولين جوست. «إلى حد ما يرتكز النظام الباروني على أفكار لوك حول الجهاز العصبي».

«يجب أن نصدق شخصاً ما» قالت كارولين «أنا أعني شخصاً آخر بالإضافة لنا نحن، أو أن الحياة ستصبح شيئاً سقيماً».

«أنا أتكلم عن العلوم بحد ذاتها، جوستن».

كان فريتز قد خرج باكراً جداً من تينستيد. حصل بعض التأخير، لكنه عندما وصل إلى جينا من أجل أن يقابل ستارك

الذي كان في مؤتمر تخصصي في دريسدن قيل له بأن يتواصل مع مساعد نائب الأستاذ جاكوب ديتمالر.

«أوه، إنه أنت، يا له من حظ سعيد»، صرخ فريتز «في بعض الأحيان أعتقد أنه عند كل نقطة انعطاف في حياتي..».

«حياتي أيضاً كان فيها نقاط انعطاف» قال ديتمالر بهدوء.

ارتبك فريتز: «لقد جعلني الحب وحشاً».

«لا تقلق نفسك يا هاردنبرغ. أنا سعيد لأني حصلت على هذا المنصب كنائب مساعد، وقد أعددت نفسي للطريق الطويل الممتد أمامي».

«أنا فعلاً آسف إن..».

«لن نضيع وقتاً في ذلك. لماذا أتيت إلى هنا؟».

«ديتمالر، ربما كتب الدكتور إبهارد رسالة للبروفسور يشرح فيها أن صوفي حبيبتي تتألم».

«في ألم شديد على ما أتخيل. أنا لا أستطيع بالطبع أن أقدم أي رأي حتى يعود البروفسور ستارك، لكن إبهارد يذكر مظهرها العام والذي يزودنا بمؤشر مهم..».

«إنها مثل الزهرة».

«هذه الرسالة تقول، مصفرة».

أرادت صوفي أن تغادر البيت، فقد كان هناك حظر عديم الرحمة على كل متعة صادقة للحب. كان هناك القليل لتفعله في غريونينغن، وما زاد الأمر صعوبة أنها لم تعد تجد أحداً يمتعها بموسيقى السيرينادا. هنا كان ديتمالر على الأقل قادراً على أن يكون مساعداً تنفيذياً مباشراً. كان هناك العديد من طلاب الطب، الذين تركوا في جينا دون أي نقود يعملون خلال العطلة

الصيفية علــى أمل أن يحصلوا على تخصصهــم بفترة أقل، أو علــى أمل الالتحاق بنظام كنصف اختصاص مثل مجبِّر عظام أو طبيب جروح. هل يستطيعون أن يلعبوا ويغنوا؟ بالشكل الطبيعي يســتطيعون. كيف يســتطيع البقية من المحتاجــين، أن يمرروا وقتهم الفائض، لو لم يكن بالموســيقى؟ خارج المساكن وعند وقت الغسق الدافئ الذي يملأ شوفيلغاس، هم بدؤوا ببعض الألحان، بعض الأغاني الشعبية، وبعد ذلك ثلاثية موسيقية. عندما نزلت مانديلســلوه الطبقات الثلاث من الأدراج حاملــة كيس نقودها بيدها وسألتهم «لمن تعزفون؟» ردوا عليها «من أجل الفلسفة».

دفتر يوميات فريدريكا..

والآن يبدو أن الرجل العظيم ســوف يأتي. غوته سيكون بيننا فعلياً. نحن لم نســمع عن هذا من هاردنبرغ بل من إراســموس الــذي بعد كل شــيء لم يذهب إلى زيلباخ، لكــن لديه غرفة في هذه اللحظة في حانة بيرة يســكنها الطلاب حيث يقول إنه ينام فــوق القش. قال لي أيضاً إنــه من المعروف أن غوته لا يمكن أن يحتمل لبس النظارات. وقال أيضاً: «ماذا يمكنني أن أكســب من رجل لا أستطيع النظر في عينيه وأنا أتحدث إليه. مرآة أية روح تتخفى في هــذه النظارات التي تلتمع أمامي؟! يراودني شــعور بعدم الانســجام عندما يتواصل معــي غريب يضع نظارات على أنفه». أنا نفســي لم أكن ألبس النظارات، لكني أرتديها الآن من أجــل الخياطة الدقيقة والقراءة، ومنذ أن أتينا إلى جينا اعتدت على وضعها تقريباً طــوال الوقت. على المرء أن يتجاهل رغبات الرجال.

السابع من يوليو صباحاً

نرتب في البداية غرفة الجلوس التي تخصنا. إنها فقيرة الأثاث، لا يوجد الكثير لنقوم به، فهذه الغرف مخصصة للمدرسين المساعدين في الجامعة الذين يكونون عادة ممتنين لأي شيء. زجاجات الدواء، الكمادات، الحقن، التي تحبها السيدة وينكلر، توضع في غرفة النوم. أما الخياطة والصحف فتوضع تحت سرير النهار. في يوم غائم وعاصف كهذا، يجب أن تبقى النوافذ مغلقة رغم أنها لا يمكن أن تُغلق بإحكام. عرفنا للتو بأن هناك عاصفة تقترب.

نسيت صوفي أنها تتألم أو حتى أنها مريضة في مناقشة موضوع العاصفة. قالت السيدة وينكلر إن السر هو في أن نفتح النوافذ الآن على مصراعيها، فقط لوقت قليل، فإذا كان الهواء داخل الغرفة له نفس درجة حرارة الهواء خارجها لا يمكن أن نحس بأي تيار. قلت لها إن الغرفة ستصبح غير مريحة بشكل جهنمي. «لا يهم» صرخت صوفي «سوف نغلق كل شيء بإحكام عندما تقترب»، واستجمعت كل ما تبقى لديها من قوة، وقبل أن أتمكن من إيقافها، فتحت النافذة على مصراعيها ثم بدأت بالسعال. «كان عليك أن تتركي هذا الأمر لي. إن سعالك يخترقني الآن، مثلما اخترقت المسامير الصليب. لم تكن العاصفة لتفعل أفضل من ذلك». وتستغرق صوفي بالضحك.

ظهر غوته قادماً من شوفيلغاس باتجاه النافذة متقدماً بمعطف أزرق على شكل عباءة وفوق ذلك معطف صيفي للغبار، عباءة خاصة بالنبلاء تقريباً تلامس الأرض وحذاءه المترف. لا يبدو أنه يصطحب أي خدم فهذه زيارة خاصة.

خلعت نظاراتي ونزلت، وكذلك صوفي، فهي لا تود أن تترك وحدها. سحبت نفسها إلى الأعلى وكأنها لا تحس بأي خوف. قدم غوته نفسه آخذاً يدينا بمودة كبيرة. سألنا إذا ما كان بالإمكان أن يبقى خادمه في المطبخ. لقد اصطحب رجلاً معه، لكن يبدو أن هذا الرجل دائماً يمشي بعدد محدد من الخطوات خلفه يقلد بدافع الاحترام أفعاله وإيماءاته. ربما كان من الأجدى لو أنه مشى في المقدمة وتأكد من أنهما يسلكان الطريق الصحيح.

في الطابق العلوي أخذ غوته الكرسي الأقسى قائلاً بالكثير من السحر إن الشعراء يزدهرون بعدم الراحة. كان بين لحظة وأخرى يخطو جيئةً وذهاباً في الغرفة الصغيرة.

لا يوجد هنا جرس، لكني رتبت مع السيدة وينكلر بأن نضرب على واحد من الألواح الرخوة وبذلك تعرف متى يجب أن تُقدم الضيافة. قطع غوته الكعكة بيده وفتح الزجاجة ثم اقترح أن نرسل كأساً من النبيذ للخادم، وهذا ما وافقت عليه رغم أنني لا أظن أنه فعل ما يستحق عليه ذلك. في هذه الأثناء كان يتحدث قليلاً عن الصحة والمرض. قال إن بعض الأمراض ليست سوى خمول يمكن لكأس أو كأسين من المياه الغازية أن تجلوه، لكن نحن يجب ألا نتريث، علينا أن نذهب مباشرة إلى الهجوم كما بالنسبة لكل شيء.

يجب أن يرى أن الحالة هادئة بطريقة مختلفة مع مريضتنا الصغيرة المسكينة. كان واضحاً بأنه أراد أن يغريها بالكلام. لسوء الحظ لم يكن يعرف بعد شعر هاردنبرغ، فلم يظهر الكثير منه حتى الآن مطبوعاً. رغم أن الزيارة كانت بالنسبة لصوفي شرفاً كبيراً لكنها لم تكن قادرة على التفكير بأي شيء لتقوله.

في النهاية تجرأت على القول إن جينا مدينة أكبر من غريونينغن. انحنى غوته قليلاً وكرر أن فيمار أيضاً كانت مدينة أكبر من غريونينغن.

لم تذكر صوفي قصة هاردنبرغ الوردة الزرقاء، ولم يذكر غوته شيئاً عن العاصفة.

عرف إراسموس بموعد الزيارة وكان ينتظر أو بالأحرى يتسكع عند زاوية الشارع.

«يا صاحب السعادة! أرجوك، كلمة! أنا أخو هاردنبرغ الأصغر، أعني أنني واحد من إخوته الأصغر. أنا طالب في علم الأحراج، أعني، ليس هنا...».

«لا أعتقد أنها ستكون هنا» قال غوته «لا يوجد مدرسة لعلم الأحراج في جامعة جينا».

«كنت أدرس في هوبرتوسبيرغ. هذه هي، أنا للتو تركت هوبرتوسبيرغ. هل أستطيع أن أمشي معك لمسافة قصيرة؟».

ابتسم غوته وقال بأنه لا يوجد قانون يمنع ذلك.

«كنت تزور الآنسة صوفي فون كوهن» تابع إراسموس «وأختها الكبرى زوجة الملازم مانديلسلوه..».

«أوه، إنها الأخت الكبرى، أليس كذلك؟ امرأة ذات بأس وقوة. أنا لم أنتبه إلى العلاقة». بما أن إراسموس كان يسعل، يهرول بجانبه، لا يستطيع أن يتماسك أكثر. في هذه اللحظة تابع غوته «أظن أني أعرف ما تريد أن تسألني عنه. أنت تتساءل إذا ما استعادت الآنسة فون كوهن صحتها، هل ستكون مصدر سعادة حقيقي لأخيك. من المحتمل أنك تشعر بوجود عدم تكافؤ في التفاهم بينهما. لكن لتكن مطمئناً فليس التفاهم هو ما نحبه

في الفتاة. نحن نحب جمالها، براءتها، ثقتها بنا ومظهرها، والله أعلـم ماذا أيضاً، لكننـا لا نحبها من أجل تفهمهـا، وأنا متأكد مـن أن هاردنبرغ أيضاً كذلك. هو سـيكون سـعيداً على الأقل لعدد محدود من السـنين مع ما يمكن أن تمنحه إياه، وبعد ذلك سيحظى بالبركات التي لا تقارن من الأطفال، بينما شِعره..».

أمسك إراسموس بشكل يائس بيد الرجل العظيم في منتصف حديثه، أخذ يفتله بشـكل دائري مثل حطام السـفينة، في وقت المد والجزر. «لكن هذا ليس هو ما كنت أود أن أسألك إياه!».

توقـف غوته ونظـر إليه (كان الخادم قد توقـف وراءه أيضاً بعشرين ياردة، وحدق في محل الحلاق).

«أنا كنت مخطئاً إذن. فأنت لست قلقاً بشأن سعادة أخيك؟».

«ليس على سـعادته!» صرخ إراسـموس «على سعادتها، على سعادة صوفي، على سعادتها!».

كيف نجح البروفسور ستارك

(47)

عندما عاد البروفسور ستارك إلى جينا أجرى الفحص، وقال بأنه لا بد من إجراء عملية. سيقوم بإدخال أنابيب لإخراج السم. لم يكن هناك من طريقة أخرى لارتشاح الورم الخبيث من الآنسة الرقيقة. كان لا بد من الحصول على تصريح من زوج أمها في غريونينغن الذي وصل في غضون أربع وعشرين ساعة.

«سيكون من المثير للحزن إن فاتتنا الألعاب النارية التي ستقام في عيد ميلاد الأمير الجرماني إلكتور» قالت صوفي. كان هذا اعتراضها الوحيد.

«أمي وزوجها تركا كل التفاصيل لي» قالت ماندليسلوه للشاب ديتمالر الذي كان التعامل مع أهل المريض واحداً من أكثر الواجبات خطورة بالنسبة له. «يتوجب علي أن أرسل في طلب خطيب أختي الذي عاد إلى تينستيد، لكن أنت بالطبع تعرفه جيداً».

«لا، ليس كثيراً، لكنني عرفته على ما يبدو منذ وقت طويل» قال ديتمالر «أظن أن أخاه إراسموس في جينا».

«كلا، لقد غادر البارحة. أنا نصحته بذلك. وجوده هنا لم يكن ليساعدنا، لا نحن ولا هو. لكن يا هاردنبرغ، بالمناسبة،

قل لي الآن، اليوم والساعة التي ينوي البروفسور فيها أن يجري الجراحة. اكتبهما لي الآن، رغم أنني من الطبيعي أن لا أنساهما، لكن سأكتبهما هنا في دفتر يومياتي».

«لكن البروفسور ستارك لا يدير الأمور بهذه الطريقة. إنها خبرته العملية في أن يعطي إشعاراً في أقل وقت ممكن، ساعة على الأكثر من وقت العملية. هذا من أجل أن يحافظ على أعصاب المريض. وهذا أيضاً كان لمنع وصول الأقارب لوقت كبير قبل أن يكونوا مطلوبين. لقد عرف ديتمالر كل هذا لكن لم تكن لديه حرية التصريح به. الآن عليه أن يعود مرة ثانية إلى شوفيلغاس مزوداً بالشرح».

«لقد حجزت الغرفة لغرض معين، ويجب أن تبقى جاهزة في كل الأوقات» تابع بإصرار: «ويجب أن يكون هناك مؤونة جيدة من الملاءات القديمة والنظيفة، وكذلك من الملابس التحتية القديمة والحديثة المصنوعة من أجود الكتان».

«جاهزة كل الوقت بما أننا لا نعرف متى ستكون مطلوبة!» قالت مانديلسلوه: «عندنا غرفتان هنا، وفقط اثنتان. هذه هي غرفة الجلوس وأختي نائمة في هذه اللحظة في غرفة النوم. بإمكانك أن تترك الرعاية لي».

تردد ديتمالر: «والأشياء الأخرى؟».

«هل تظن أننا سافرنا إلى هنا بأكوام من الملابس التحتية المهلهلة، القديمة والنظيفة من الكتان الأفضل؟ ألن يكون من الأفضل أن نعود إلى غريونينغن لإحضار كل ذلك؟».

«لا، ينبغي للمريضة ألا تسافر».

«أنت تعني أن البروفسور لا يريد أن..».

«هذا ليس ما قلته. كم هو حجم غرفة النوم؟».

«نفس حجم هذه الغرفة. بصعوبة يمكن للمرء أن يتحرك. قل له بأنه يجب ألا يحضر أحد معه فيما عداك أنت».

«بالتأكيد، أستطيع أن أعدك بذلك. وصاحبة البيت هل ستكون جاهزة إذا احتجناها؟».

«جاهزة أيضاً».

«يا زوجة الملازم، أنا لا أتمنى أن نكون أعداء. هل بإمكاننا أن ننظر للأمور بشكل مختلف؟ أنا أطمئنك بتعاطف البروفسور العميق واهتمامه. في الحقيقة قال لي إنه ينوي أن يضمد الجرح بنفسه».

صافحته، لكن ما كان ذلك إلا هدنة.

ناقشت السيدة وينكلر الزيارة المرتقبة للبروفسور ستارك مع كل جيرانها ضمن قطر محدد «من أجل ألا يكون هناك سوء فهم عندما يسمع صراخاً أو بكاء. فلربما تخيلوا أن هناك شجاراً ما..».

«النزيل ربما يخنق صاحبة البيت» وافقت مانديلسلوه على ذلك. تمكنت السيدة وينكلر التي أصبحت تطيعها بإذعان من أن تستعير كمية من الملاءات القديمة والنظيفة بعد أن انتهى يوم الغسيل السنوي الكبير. لم يكن هناك ملاءات متهرئة في سكسوني، لكن كان البعض منها أقدم بثلاثين أو أربعين سنة من غيرها. وضع هذه الأقمشة بمواجهة أشعة الشمس المباشرة كشف بدقة كم كانت رثة وبالية.

«ضعيها جانباً ولا تتكلمي أكثر عنها، أحضري لي الفواتير الأسبوعية وبعض القهوة» قالت مانديلسلوه.

كانــت صوفي خارج المنزل في نزهــة بحقول الذرة مع زوجة القسيس الذي يحضرون مواعظه أيام الأحد. لقد بدؤوا مبكرين لتجنب الشمس وتجولوا في شوارع مظللة بشجر الحور.

«شكراً لك سيدتي زوجة القسيس، لقد كنت في غاية اللطف. أنت طيبة للغاية، وســوف تكونــين ودودة جداً، وتأذنين لي، لأني تعبت بسرعة كبيرة».

«هل يمكنني زيارة الآنســة صوفي الأســبوع القادم؟» سألت زوجة القسيس، لكن مانديلسلوه تدخلت بتهذيب قائلة إنه لسوء الحظ هم ليسوا متأكدين بخصوص ترتيباتهم.

«أتمنى لو كان جورج معنا هنا» قالت صوفي.

«جورج!».

«لا أعلم لماذا لم نكن نتحدث إليه، لكن أتمنى لو كان هنا».

«لم يكن هاردنبرغ حتى اللحظة قد علم بشأن العملية، وربما لــم يكن يعلــم إن كانوا مازالــوا في جينا. اتبعــت زوجة الملازم تعليمات البروفيسور بالرغم من موقفها الانتقادي تجاهه، وذلك بروح من الانضباط العســكري. سوف أعطيك فرصة ساعة من الوقت. هذا أفضل، ويمكنك أن تستدعي من تشائين».

لقد كان ديتمالر ثانية من أحضر هذه الرسالة الأخيرة، وهو الذي ظهر مصطحباً خادم المشفى في صباح الحادي عشر من يوليو.

«سوف تجرى العملية في الساعة الحادية عشرة. سأشرح ماذا سيحدث». تم سحب السرير المزدوج إلى منتصف الغرفة ووُضعت عليه المــلاءات القديمة، وفوق أريكة الغرفــة الأمامية تم تجميع الكثير من العصابات، وكذلك الضمادات، والقطع الإسفنجية التي أحضرها خادم المشفى. بدت صوفي وكأنها غير منزعجة.

أعلنت السيدة وينكلر أن رجلاً كان يقف في الباب. كان رسولاً يحمل ملاحظة تقول إن البروفسور وجد أنه يجب أن يؤجل العملية حتى الساعة الثانية بعد الظهر.

«فقط ليذكرنا بأنه رجل عظيم» قالت مانديلسلوه.

«زوجة الملازم هذا غير عادل» قال ديتمالر.

لقد أرسل خادم المشفى إلى مطعم رخيص وذهب ليتمشى في شوارع جينا حتى الساعة الثانية إلا ربع. عندما عاد كانت صوفي ترتدي إزاراً قديماً، ضعيفة، ومصفرة، وتقريباً بنفس المزاج كما هو جلدها. لقد بدت أصغر، أو ربما تضاءلت. فكرت مانديلسلوه «ما أنا فاعلة بما اؤتمنت عليه؟».

انعطفت عربتان إلى شوفيلغاس، مغلقتا الأبواب رغم حرارة النهار الصيفي. اقتربتا، فُتحت الأبواب.

«أنتم أربعة» قالت مانديلسلوه وقد تحولت لهجتها إلى عتاب مؤلم مع ديتمالر. «أنت أعطيتني وعداً ..».

«ثلاثة منهم طلاب» قال ديتمالر بأسى «هم يتعلمون كيف تنجز هذه الأعمال».

«أنا أيضاً أتعلم كيف تنجز هذه الأعمال» قالت مانديلسلوه. البروفسور وطلابه هيؤوا مظهرهم وارتدوا السواد. السترات الطويلة للطلاب كانت كبيرة جداً على نحو سخيف وبدت أنها دون شك معارة لهم. انحنى البروفسور للسيدات. تبسمت صوفي على نحو ضعيف.

«سوف نبدأ الحفلة الودية».

كانت عبارة عن مزيج من النبيذ والأفيون من وصفة للدكتور براون، شربتها صوفي دون أي اعتراض. بعد ذلك إلى غرفة

النوم، حيث يجب أن يطوف الكل حول الســرير بشكل أخرق في مكانه غير الاعتيادي. وقف التلاميذ وظهورهم إلى الحائط كي لا يكونوا في الطريق، يرمقون بنظرات حادة مثل الغربان الشابة، وكل منهم يستخرج القلم والمحبرة من طية صدر السترة.

تمت مســاعدة صوفــي فوق الكوم الذي تمت اســتعارته من الفرش. بعد ذلك طلب منها البروفســور بلهجة تهذيب شــديد تناســب طفــلاً إذا ما كانت ترغب في أن تغطــي وجهها بقطعة من قماش الموســلين الرقيق. «بهذه الطريقة ستكونين قادرةً على مشــاهدة بعض مما أقوم به لكن ليــس بوضوح كامل.. هنا الآن أنت لا تستطيعين أن تريني، أليس كذلك؟».

«أســتطيع أن أرى شــيئاً مــا يلمع» قالت صوفــي. ربما كان هذا لعبــة في نهاية المطــاف. كتب التلاميذ ســطراً في دفاتر ملاحظاتهم.

اتباعاً للقواعد الطبية في جينا، أومأ البروفسور إلى ديتمالر ليكون بجانبه، وسأله:

«زميلي المبجل هل أنا من ســيقوم بفتــح الجرح؟ هل هذا ما تنصح به».

«نعم، يا سيدي البروفسور أنا أوصي بذلك».

«سوف تصنع شقين أم واحداً فقط؟».

«اثنان، يا سيدي البروفسور».

«إذن؟».

«نعم».

كانت الســيدة وينكلر تنتظر في الأســفل. لم تكن قادرةً على سماع أي شيء، لكن الآن حصلت على مكافأة نتيجة صبرها.

إلى سكلوبين
(48)

اجتاز فريتز طرق الصيف المغبرة بين أرترن وجينا، بين لانغينسالزا وجينا وبين دورينبيرغ وجينا، طرق تزدحم الآن بالمهاجرين والجنود. كتب في دفتر ملاحظاته:

أنا مثل مقامر - مغامر، خسر كل شيء في رهان واحد. يجب علي ألا أرى الجرح.

خضعت صوفي لعملية ثانية لارتشاح الورم في الثامن من شهر أغسطس 1796، ولعملية ثالثة نحو أواخر شهر أغسطس، كانت ضرورية لأن العمليتين الأولى والثانية لم تكونا ناجحتين بالكامل. تحدث البروفسور ستارك عن أشياء تجرى بشكل جيد كما هو متوقع. قوى المريضة لم تكن تضعف، ومستوى القيح كان متوسطاً. أما بالنسبة للخريف فقد كان دائماً فترةً خطرةً خصوصاً بالنسبة للشباب.

صوفي إلى فريتز: «بصعوبة، يا عزيزي هاردنبرغ أستطيع أن أكتب لك سطراً، لكن اعمل بي معروفاً، ولا تضايق نفسك. هذا ما تسألك إياه صوفي من كل قلبها».

كان للعملية الثالثة تأثيراتها العميقة على كل من الأبوين. فضوضاء روكنثاين، نظرته الدائمة إلى الجانب المضيء ونكاته

البذيئة كلها اختفت ليس بالتدريج بل فجأة، وكأن يداً عملاقةً قد أطبقت عليه وسحقته ليصبح خالياً من الأمل. ومن جانب آخر، اضطرب البارون للمرة الأولى في حياته، ليس في إيمانه الديني ولكن في السؤال الذي يقول ماذا سنفعل بعد ذلك. كان قد أرجأ زيارة جينا حتى نهاية شهر أغسطس (آب). لكن فيما بعد غير رأيه وقرر أن يذهب ويأخذ معه أكثر ما يمكن من عائلته، وأن ينام الليلة في سكلوبين -بي- جينا. لكن حتى هذا كان جزئياً؛ محاولة للتخلص من العم ويلهلم الذي كان مازال ضيفاً في ويسنفلس. «أنا سأبقى هنا أخي حتى أرى أن لا أحد يحتاج إلى نصيحتي».

«جيد جداً» قال البارون «إذن أنت لن تأتي إلى سكلوبين». أعطى أوامر من أجل ست غرف أو سبع فقط لتكون جاهزة.

سوف يحتاجون من أجلهم ومن أجل مؤونة أسبوع إلى كلتا العربتين، وأربع من الأحصنة التي تتحمل السفر الطويل. كان فريتز في ذلك الحين في جينا وكان أنطون في المدرسة العسكرية في سكالبفورتا، لكن كارل كان في البيت وكذلك سيدوني وإراسموس، الذي كان نصف الضباط في فوجه بعطلة منذ أن تم انسحاب سكسوني من التحالف المؤقت ضد الفرنسيين. لم يكن برنارد يرغب بالحضور ولكن لم يعجبه أن يُترك في ويسنفلس مع الطفل والخدم وعمه.

كانت البارونة تترجرج إلى جانب إراسموس مدركة أنه ربما لن يكون صحيحاً في خضم الكرب الذي ألم بها بسبب مرض صوفي أن تميز لحظة سعادة واحدة أو حتى أن تحس بقلبها يخفق بشكل أسرع عندما انعطفوا إلى الوادي المألوف. إنها المرة

الأولى التي شعرت فيها منذ ثلاث سنوات أنه الوقت المناسب لتفتش عن أكوام المداخن في سكلوبين وعن قمم أشجار الحور. لقد أحبت المكان دائماً، ربما لأن المنزل كان محاطاً بكثافة بالأشجار التي تمنحها إحساساً غير مألوف بالأمان. كان أنطون قد ولد هنا، وكذلك البنت الصغيرة بينيجنا التي لم تعش. كما أنها عرفت زوجها، رغم أنهم لا يأتون إلى هنا إلا نادراً هذه الأيام، قالت هل يمكن أن يغادر سكلوبين أبداً.

«المداخن!» صرخت سيدوني التي كانت تجلس بجانب السائق.

لقد مروا بشجرة البلوط مع الحبال الخاصة بمراجيحهم التي ما تزال معلقة من الغصن العالي والغصن الأدنى. إلى اليمين كان الجسر المحدودب الذي يعبر كلاً من جدول الماء وطريق المشي ويقود إلى مباني المزرعة وإلى الكنيسة. كانت الممتلكات مظلمة ورطبة وبوضع سيئ، وتحتاج لإصلاحات، حيث إن الطبقة الأعلى من بيت الدرج الرئيسي لم تكن آمنة أبداً، وكان على الخدم أن يصلوا إلى غرف نومهم بواسطة السلالم. حتى غتسفيروولتر كان قد انتقل إلى البيت الكبير بحثاً عن مأوى بعد أن انهار سكنه الخاص. لم يكن هناك أي من مظاهر البؤس الجليل كما في أوبرويديرستات.

كان هناك إحساس عام في ذلك الوادي السديمي بالاسترخاء، بالتسامح الدائم وبالتوق إلى البيت بعد يوم عمل شاق.

إن إحساس كارل الوجداني يشبه إحساس كل الرجال العسكريين. كانت عيناه مليئتين بالدموع عندما مروا بما تبقى من أرجوحتهم وبالمزلجة التي كانت تنزل من أعلى الوادي وبالبحيرة الجافة حتى الخريف. كذلك خطر بباله الأشهر التي

قضاها هنـــا والتي لم تكن من وقت طويــل، بعد خططه للزواج بالمـــال التي انتهت بالارتباك، حـــين كان عليه أن يتخذ ملجأً من امرأة غاضبة ومهانة.

«اعتدنا أن نضع القش في أحذيتنا الطويلة في الشتاء» قالت سيدوني.

«ونخلعها قبل أن نذهب إلى داخل البيت» قال كارل.

«كم كانت قدماك تبدوان بيضاوين، سيدو، تماماً مثل السمكة، ليســت مثــل أقدامنا على الإطلاق. هل توديــن أن تعودي طفلة ثانيةً؟».

«أنــا أفضل أن نعود كلنـــا أطفالاً» قال إراســـموس، «عندئذ سيكون عندنا مملكة من صنعنا نحن».

«هذا ليس أبداً في مجال خبرتي» قال برنارد.

اعتقد برنـــارد عندما كان صغيراً جداً بأن فجوة الســـنوات الســـت بينه وبين سيدوني سوف تتلاشـــى تدريجياً، وأنه عندما يكبر ليصبح بالطول الذي هي عليه، أو حتى أطول، فإنه سيكون بنفس العمر الذي وصلت هي إليه أو ربما أكبر. لقد كان واهماً.

امتلأ الشفق الدافئ برائحة أشجار الزيزفون وروث الدجاج. «استمع إلى الجدول» قالت سيدوني. سوف نستطيع سماعه وهو يتمتم طوال الليل».

أجاب برنارد بأنه تمنى دائماً أن يعيش بجانب النهر.

بينمـــا كانت الأمتعة تُنزل ببطء، تم فتـــح أبواب المنزل وخرج غتســـفيروولتر بيليربيك متبوعاً ببعض الطيور المهتاجة التي من الواضح أنها أيضاً اعتبرت المنزل لها. كانوا يعيشـــون جميعاً في الجزء الخلفي، فالمدخل الأمامي كان نادراً ما يستعمل. كان يمكن

رؤيـــة المطبخ المضاء من خلال الغســـق اللؤلؤي الذي ملأ القاعة الرئيسية في نهاية الدهليز.

لم يكن هناك أي رسميات بين البارون وغتسفيروولتر فتعانقا بحرارة.

«نحن عانينا، نحن ما زلنا نعاني بيليربيك. الرب يمتحننا».

«أنا أعرف ذلك، يا صاحب السعادة».

فـــي المرة الأخيرة التـــي كان فيها في ســـكلوبين منذ أربع ســـنوات، كان برنارد صبياً صغيراً يتشـــارك ســـريراً بأربعة أعمـــدة في إحدى الغرف الكبيرة في الطابق الأرضي مع أحد إخوته، كان تقريباً متأكداً من أنه إراسموس. هذه الغرفة الآن مثل أغلـــب الغرف الأخرى في الجهة الشـــمالية قد تضررت منذ ذلك الوقت بسبب المطر الذي اندفع إلى داخلها من خلال النوافذ المكسورة.

كـــرر بيليربيك مرة بعد أخرى، في أي يوم ســـوف نتمكن من إكمـــال الإصلاحات. في غضون ذلك ســـكن برنارد في جزء من إحـــدى الغرف بالطابق الثاني في ســـرير ليـــس أكبر بكثير من سرير طفل صغير.

«أمـــي وأبي الآن في الســـرير وقد ناما» قال برنارد لنفســـه. «ليـــس هناك أي رياح، لكن من وقت لآخر يشـــرق القمر وتصبح الغرفـــة كلها مضاءة. في مكان ما أيضاً هناك ســـاعة تدق. في الجهة الشـــمالية الخارجية من بيت ســـكلوبين كان هناك ساعة ضخمة، قديمة ومذهّبة على شكل وجه تضبط الوقت حتى لو لم يكن دقيقاً تماماً لكل أهل البيت، وقد كانت أجزاؤها في سماكة جـــدار الغرفة حيث يرقد برنارد. «أنـــا متمدد هنا بلا راحة في

ســـريري» تابع «كل واحد منهم قد ســمع ما سمعته، لكن لا أحد منهم يعطي الموضوع اهتماماً جدياً».

خطــر في باله في هذه اللحظــات أن الفصل الافتتاحي من قصـــة فريتز لم يكن صعبــاً على الفهم. لم يكــن أحد قد قرأه لــه أو جعله يراه، لكن لم يكن هناك أي شـــيء مما أثار اهتمامه في ويســـنفلس لم ينظر إليه بشكل جيد. كان قد صدم -قبل أن يحشـــر القصة ثانية في حقيبة الكتب الخاصة بفريتز- بشـــيء واحد على وجه الخصوص؛ وهو الغريب الذي تحدث على طاولة العشاء عن الوردة الزرقاء ولم يفهم عليه إلا شخص واحد فقط. هذا الشخص لا بد أن يكون قد ميز من عائلته على أنه مختلف عن باقي أفراد العائلة. إنها مسألة أن تميز قدرك الذي يخصك وأن ترحب به كشيء مألوف عندما يأتي.

في روز
(49)

انطلقوا إلى جينا في الصباح التالي عند الساعة الخامسة. القهوة التي كانت بالكاد تشرب قدمت لهم في غرفة الصباح. في الخارج كانت السماء فوق الوادي مخططة بمساحات طويلة من الغيوم التي بدت وكأنها تنتظر الفجر كي تحترق في شفافيته، وفيما عدا بريق الجدول الخافت فقد بدت سكلوبين ذاتها في الظل. «أنت بصعوبة تستطيع أن تتخيل المزاج الغريب الذي أنا فيه» قال كارل. «أنا أحب أن أجلس عند هذه النافذة حتى يصبح كل هذا المكان مضاءً». «نحن مسحورون هنا» قالت سيدوني. «ما لم نبدأ، لن يكون بإمكاننا أن ندرك عمق سعادتنا. أتينا لنرى المسكين فريتز ولكن حتى الآن نحن أبعد ما نكون عنه. أنا أشعر بالخجل لأنني أحس بكل هذا السلام».

«طفح الكيل» صرخ إراسموس ضارباً فنجان القهوة.

ببداية مبكرة يمكن لهم أن يعودوا إلى سكلوبين ذلك المساء مانحين الأحصنة ثماني ساعات من الراحة. في جينا كان البارون قد حجز غرفة خاصة كبيرة لهم في روز. اعتاد دائماً أن يذهب إلى أفضل الفنادق رغم ما تعانيه عائلته من مصاعب، وهو لم يكن يعرف غيرها.

«هذا هــو فريتز!» صاح كارل الذي كان يقــود العربة الأولى واستدار جيداً أمام الآخرين إلى فناء فندق روز.

«كلا، هــذا ليس أخي!» صرخت ســيدوني وكانــت أول من خرجــت قافزة. ركضت نحــوه دون أن تنتظر تثبيــت خطوتها، «فريتز، بصعوبة تعرفت على وجهك».

لا يمكــن لجمع كبير كهذا أن يصل كله بنفسِ الوقت إلى بيت السيدة وينكلر. ســيذهب البارون إلى هناك أولاً، والباقون فيما بعد.

«ألا يتوجــب علــي مرافقتــك هينريــش؟» ســألت البارونة مســتجمعة كل مخزونها من الشــجاعة. لا، سوف يمشي هناك مع فريتز. ســوف ينطلقون في الحال. أما البقية فقد ذهبوا إلى داخل روز، إلى الغرفة الأمامية الأنيقة التي تطل على الساحة.

«هــا هم ذهبوا» قال كارل وهو يرفع إحدى الســتائر الكتانية البيضاء. «متى كانت آخر مرة رأيناهما يمشيان مع بعضهما كما الآن؟».

بعــد أن غاب فريتــز ووالده عن الأنظــار، أتت مجموعة من الســجناء مكبلــي الأرجل لتنظيف الشــارع. كانــوا حالما يفقد الحــارس اهتمامه بهم يلقون الفراشــي جانبــاً ويمدون أيديهم للإحسان. رمت سيدوني بكيس نقودها.

«سوف يقطعون حناجر بعضهم من أجله» قال كارل.

«لا أعتقد أن لديهم نظاماً للتوزيع» قال إراسموس.

«من المحتمل جداً أن الأصغر ســوف يحصل على الأقل» قال برنارد.

«القهوة، القهوة، من أجل الســيدات والسادة المحترمين!» قال

صاحب النزل، الذي تبعهم إلى الأعلى. سألهم نادل يرتدي مئزراً مخططاً إذا كانوا يرغبون ببعض النبيذ.

«ليس الآن» رد عليه إراسموس.

«أريدك أن تتمددي هنا» قالت سيدوني لأمها. «يبدو أن هذه الأرائك لم تصمم ليتمــدد عليها الناس، لكن كلها متماثلة، أريد منك أن تحاولي».

تمددت البارونة «المســكين فريتز، المسكينة المريضة صوفي. لكن سوف تفرح عندما ترى ملاكنا». أشارت إلى برنارد كي يأتي ويجلس بجانبها. كانت الغرفة قد أصبحت أكثر دفئاً وانســدلت الستائر العريضة دون أدنى اهتزاز.

كان الواصل الثاني ديتمالر، وكان قد أرسل من قبل البروفسور ستارك ليرى إن كان يستطيع المساعدة. تردد عند المدخل يجول بنظــره من وجــه إلى آخر في الغرفة المظللــة. لقد أتى إلى روز وصعد إلى الأعلى من دون أن يعلن حضوره. كانوا كلهم يتكلمون مع بعضهم ولم ينظر أحد حوله، وبشكل غير حكيم أفضى بسره إلى الطفل الأشقر الذي كان يقف بجانبه يتفحص علم السوائل المتحركة في وعاء معدني للقهوة.

«أنت برنارد أليس كذلك؟ أنــا صديق أخيك فريدريك. كنت قد ذهبــت إلى منزلكم في ويســنفلس. لا أدري إن كانت أختك سيدوني تتذكرني».

«على الأغلب لا» قال برنارد. «في كل الأحوال أنا أتذكرك».

اقتربت ســيدوني منهم نصف مستمعة وهي تبتسم. ما زالت مثله تتذكر كل شيء في يوم الغسيل (اليوم الأسبوعي المخصص لغسيل أسرّة الملابس والأغطية)، وسعادتها بزيارته.

«بالطبع» قال برنارد.

«الآن لي الشرف بأن أكون النائب المساعد للبروفسور ستارك» قال ديتمالر. «ربما سمعت أخاك يذكرني في رسائله بخصوص معالجة خطيبته». أخرج بطاقته التخصصية. ربما هذه تسترجع اسمه إلى ذاكرتها، لا شك بذلك. لكن اللحظات القليلة التي لم تكن فيها قادرة على التذكر أكدت له فيما بعد كل هذا. عرف للتو أنه كان لا شيء بالنسبة لها.. اغرقي، قال لآماله بشيء من الرضا، اغرقي مثل جسد أُلقي به إلى النهر. أنا رُفضت، ليس لأني غير مرحب بي، ليس حتى لأنني كنت سخيفاً، بل لأني لا شيء.

«ديتمالر!» ناداه إراسموس. تذكرت سيدوني الآن وغطت وجهها للحظة بيديها. «ديتمالر، شكراً لله أنك هنا، سوف تقول لنا بالضبط ماذا يحصل، فأنت لم تتدرب لوقت طويل يجعلك قادراً على الكذب».

«هذا ليس مهذباً» قال كارل.

«الآنسة فون كوهن مازالت محمومة» قال ديتمالر. «الزيارات الطويلة ليست مطلوبة، نصف ساعة ربما، لسوء الحظ فإن سعالها يؤخر التئام جرحها، إنه يتشقق وينفتح. يعتقد البروفسور الآن أنه إذا أعطي الإذن لإجراء عملية أخرى فسوف يكون بوسعنا أن نتأمل شفاء عاجلاً ونهائياً».

«وماذا تعتقد أنت؟» سأل إراسموس.

«أنا لا أناقش تخمينات البروفسور».

بعد ذلك طلب ديتمالر الإذن لنفسه. عليه أن يفكر، هكذا قال، بواجباته الأخرى.

«بالطبع يتوجب عليك» صرخت سيدوني «ولابد أن تسامحنا ولكننا قلقون جداً. حتى الآن لا نستطيع حقيقة أن نصدق أن لديك مرضى آخرين غير صوفي فريتز، فالناس أنانيون عندما يكونون في محنة».

«هذا ما قاله أخوك لي».

وقفوا عند النافذة وراقبوه في انعطافه، وهو يعبر الطريق المرصوف ليمشي متوارياً في الظل.

كانت البارونة تنام بصعوبة. سأل صاحب النزل ثانية إن كان يجب عليه إرسال بعض من زجاجات النبيذ.

«إذا كان هذا سيسعدك، نعم» قال كارل.

«نبيذ من المنطقة، سيدي الملازم؟».

«يا للسماء، أحضر موزيلوين».

حالما أتى النادل وذهب انفجر إراسموس بعنف. «سيعود والدي قريباً بما أن الوقت المسموح للزيارة نصف ساعة فقط، لقد تصرفنا بشكل سيئ. ماذا سيجني من زيارته هذه؟ أنتم تعرفون أنه لا يرى أن هذا الزواج مناسب رغم موافقته..».

«إنه تماماً غير مناسب» قاطعه برنارد «علينا أن نرى الجمال في هذا».

«لم يكن يتوجب عليك أن تأتي إلى هنا» قال إراسموس بغضب.

«ولا أنت أيضاً» قال برنارد.

بعد أن استدار إلى كارل، تابع إراسموس «لماذا تم السماح لأبي بأن يذهب بهذه السرعة لرؤية صوفي التي كان لوضعها ولروحها المسكينة مثل هذا التأثير على فريتز الذي لم تميزه

حتى أخته؟ بماذا يجب أن يشعر الآن؟ كأب وكمسيحي يجب أن يشفق عليها، لكنه لا يستطيع سوى أن يفكر بابنه البكر. كيف يربط حياته بحياة فتاة مريضة لا يمكن أن تنجب له أطفالاً. يتوجب عليه أن يسحب موافقته، فلا أحد يمكن أن يتوقع منه غير ذلك. سيواجه المسكين فريتز، البائس فريتز هذه القضية. عليه أن يواجه الحقيقة القاسية ويقول لها: يؤسفني يا فلسفتي الحبيبة أن والدي يعتقد بأنك غير مناسبة لتشاركيني سريري».

«لقد استيقظت أمي» قالت سيدوني.

تناهت من جهة الدرجات أصوات خطوات ثقيلة أحدثت ارتعاشة في ستائر النوافذ الجديدة، في أفضل غرفة في روز. وقف البارون أمامهم والدموع تنهمر على وجهه. هذا مشهد اعتادوا عليه في اجتماعات الصلاة، دموع التوبة الصادقة.

لكنه الآن ينشج بشهقات غريبة ويغص كأنه يمضغ بفم مليءٍ.

«الطفلة المسكينة... أوه... الطفلة المسكينة... مريضة جداً... أوه... وليس عندها أي شيء...».

اتكأ بكلتا يديه على إطار الباب، مشهد لم يره أي منهم من قبل.

«سوف أعطيها سكلوبين!».

حلم
(50)

قال كارل إن الأب ليس لديه السلطة ليفعل أي شيء من هذا القبيل، فقد ورث سكلوبين من عمه فريدريك أوغست في عام 1768، ثم خصصت لفريتز الذي ولد بعد ذلك بأربع سنوات. لم يكن لهذا الأمر أن يقلل في النهاية من الكرم والتضحية التي تمنى البارون أن يمنحها والنابعة بشكل خالص من تعاطفه الإنساني. أما برنارد فقد فكر أن ذلك يقلل منها قليلاً.

في هذا الوقت ألحت على فريتز صورة متكررة حامت على تخوم تفكيره الحالم. أخيراً وقف جانباً واستدعاها. كان طالباً للمرة الثانية في جينا يستمع إلى محاضرة فيخته عن الذات عندما راوده خاطر أنه يتوجب عليه ألا يفعل ذلك، أو أنه في المكان الخطأ لأنه كان قد سمع بأن رفيقه هاردنبرغ عاش فقط لساعتين في نزهة بعيدة إلى سكلوبين. لم يكن حصانه قوياً فلم يصل حتى حلول الظلام. قرع الباب الذي فتحته فتاة بشعر داكن. اعتقد أن هذه ربما تكون زوجة صديقه هاردنبرغ، لكنه لم يرغب بأن يسأل.

عاش هناك في سكلوبين كضيف مرحب به لأسبوعين، وعندما حان وقت الرحيل تقبلت مضيفته شكره، لكنها طلبت

منه ألا يأتي مرة أخرى.

كتب فريتز الحادثـة وكأنها حصلت معه، مقطع واحد فقط، وبمـا أنه يتوجب عليه الذهاب إلى تينسـتيد، طلب من كارولين جوست إذا ما كان بإمكانه أن يقرأ لها ما كتب.

«هذا يشـبه زمنـاً مضى» قال في نفسـه وهـو ينظر حوله مدهوشاً. «قاعة الاستقبال، ضوء النار، عمك والخالة ذهبا إلى السرير والقراءة..» فكرت كارولين «لم يعتد أن يتحدث بمثل هذه الطريقة، قد يكون أحد الجيران». فتح فريتز دفتر ملاحظاته.

«يجب أن أقول لك إن هذه هي قصة الحلم».

«إذن فأنـا أسـتطيع أن أصغي إليها على أسـاس صداقتنا الطويلـة» قالـت كارولين «يجب أن تعرف أن الناس يسـتمتعون بأحلامهم الخاصة فقط».

«لكنني حلمت به أكثر من مرة».

«أسوأ وأسوأ».

«جوستن يجب ألا تتحدثي بلا مبالاة عن الأحلام» قال لها.

فكرت بينما كان يقرأ بصوت مسـموع، «سـبع سنوات مضت لم أكن أعرفه».

«إنها تستحق المتابعة، جوستن؟».

«دعني أقرأها مرة لنفسـي». بعد ذلك سـألت، «كيف كانت تبدو المرأة الشابة؟».

«هذا لا يهم. ما يهم هو أنها تفتح الباب».

تحـدث أصدقاء البـارون القدامى وزملاؤه في سـالينز بما فيهم كويلسـتين جوست عن قراره بإهداء بيت سكلوبين لصوفي فـون كوهن كأنه مثـال نادر عن أفعال إخوة كنيسـة المورافيين.

أما بالنسبة للموقف القانوني فلم يكن أحد منهم متأكداً تماماً؛ «موقف لم يسمع به، ولم يدع إليه». قال هون العجوز «أبناء هاردنبرغ في ملابس رثة وعزبة أوبرويديرستات مفلسة، هذا ليس وقت الحب المفرط والعطاء». أشار سنف متهكماً إلى أن عزبة سكلوبين أيضاً مفلسة.

بالطبع هذه الأشياء لم تكن تقال في حضور كرايسامتمان جوست، لكنه كان مدركاً تماماً لها. كانت الكآبة تسيطر عليه عندما قالت له كارولين في حديقة بيته: «هذا فقط لأن الدلال أفسدكم». «أنت لديك أنا وراحيل، ونحن متمسكون بعاداتنا، لذلك فإنه من الصعب أن تتخيلي أنه من الممكن أن نتغير. عندما يتصرف صديقك القديم بطريقة معينة بحيث يبدو شخصاً مختلفاً تماماً، فإنك تشعرين بأن الشيخوخة قد اقتربت بخطوات صامتة».

«الحقيقة هي أن هاردنبرغ الكبير لم يتغير. أخذ وعطاء، كان دائماً لا يمكن فهمه. لكن على المرء ألا يشتكي عندما يصغي شخص ما إلى رسائل من الله».

بدا أكثر التصاقاً بابنة أخيه وقال «من غير المعقول بالنسبة لك يا كارولين أن تقولي عن نفسك إنك ثابتة في عاداتك».

«لكن، ثابتة أو لا، أنا دائماً مرحب بي هنا» قالت كارولين مبتسمة، «أنت دائماً تقول لي هذا، ألن تقول نفس الشيء هذه المرة؟».

«قولوا لي بماذا علي أن أفكر، إراسموس، كارل، وسيدوني»، سألت البارونة. «أنا لم أفهم تماماً ما هذا الذي تم اقتراحه، هل سكلوبين لم تعد لنا بعد الآن».

«أريحي رأســك» قال لها إراسموس «صوفي المسكينة لا تهتم إلا بالعودة إلى غريونيننغن».

أحســت البارونــة ببعض الراحة وبنفس الوقت باســتياء من شيء ما. «ربما لا تحب الفتاة العيش هناك، لكن لو أن أباك أراد ذلك فسوف تضطر لفعله».

خريف 1796
(51)

بحلول شهر سبتمبر (أيلول) بدأت العربات تشق طريقها إلى جينا عبر غابات الصنوبر وجذوع الشجر الباقية للشتاء القادم والأغصان التي اقتطعت من أعالي قمم الأشجار في مواجهة النوافذ في الطرقات الجانبية. جمع كل ذلك كنفايات مع الأغصان كسرب من الغربان. بدأ في هذا الوقت موسم التخليل، براميل ضخمة من الخل أخذت تتدحرج على الأدراج إلى الظلمة العفنة في الأقبية، وكل بيت بدأ حسب استطاعته التحضير وفرز كنوزه من الخل والحطب.

عاد الطلاب «وكذلك المومسات» قالت مانديلسلوه. «كانوا يجربون حظهم بين مكان وآخر خلال العطلة الصيفية، لايبزغ أو برلين». لقد عادوا إلى جينا في عربات متواضعة رغم أنها ليست في الشوارع القريبة من شوفيلغاس. كان ذلك خيبة أمل بالنسبة لصوفي التي كانت تحب أن تلقي نظرة عليهم. كذلك عاد أعضاء الكلية إلى بيوتهم وبدؤوا باستصدار الإعلانات لأشهر الشتاء القادمة، كان هناك المحاضرات العامة المجانية، الأكثر منها محاضرات خاصة، وبعضها خاصة جداً، وهي الأغلى بينها جميعاً. كان البروفسور ستارك يلقي هذا النوع من المحاضرات عن الاضطرابات النسائية.

تلقى فريتز الذي كان لا يزال في تينستيد رسالة من شوفيلغاس مكتوبة بخط لم يتمكن من معرفته. من التوقيع رأى أنها كانت من الملازم ويلهلم مانديلسلوه، الرجل نفسه في إجازة من فوج الأمير كليمنص زو لانغينسالزا. كانت صوفي نفسها غير قادرة على الجلوس بشكل مريح إلى طاولة الكتابة، وقد أوجدت زوجته لها العذر بأنها كانت مشغولة بأمور نسائية. «يريدون أن يعطوه شيئاً ما ليفعله»، فكر فريتز «لذلك تركوا الأمر له ليهتم بصحة المريضة». لكن وعلى الرغم من كل ما قاله، تمكنت صوفي من تضمين ملاحظة تقول إنها بصحة جيدة جداً، فقط لسوء الحظ كانت لبعض الوقت مريضة إلى حد ما وترسل آلاف القبل.

في نهاية شهر نوفمبر (تشرين الثاني)، كان قد حان موعد انتهاء إجازة الملازم، وعاد ببعض الراحة إلى لانغينسالزا، وربما كان قد استنتج أنه لم يكن ذا أهمية تذكر في أولويات زوجته.

لم تحضر عائلة شليغل أو أي أحد من المتطفلين منهم إلى شوفيلغاس معتمدين على ديتمالر الذي كان يخبرهم في مراسلاته أن حرارة صوفي ترتفع وتنخفض بينما مازال الجرح يلتئم بشكل متكرر من الخارج، ثم ينفتح مرة أخرى ويفرز ما بالداخل. وصف ستارك جرعة مضاعفة من الأفيون الذي كان ديتمالر يجلبه معه مرتين في الأسبوع.

«أتمنى لك حظاً جيداً في حياتك المهنية مستقبلاً» قالت مانديلسلوه. ربما يعودون إلى غريونينغن في وقت عيد الميلاد ومن أجل عيد ميلاد صوفي في مارس (آذار).

«نعم سوف تكون في الخامسة عشرة في الربيع القادم» قال

ديتمالر لكارولين شليغل. «ما زلنا نتمنى في قلوبنا وعقولنا أن تحصل كل هذه الأشياء».

«هذا ما لا أراه» ردت كارولين. «إن هاردنبرغ يمكن أن يتمنى فقط أن تصبح أكبر وهو الشيء الذي يبدو أنها لن تفعله».

فكر ديتمالر بنفسه، «ربما لا يوجد أي سبب لأبقى في جينا، أو حتى مع هؤلاء الناس، أو حتى في هذه المدينة. كل ما يلزمني هو كلمة من شخص ما على درجة من الأهمية لكي يوصي بي. ربما أذهب إلى إنجلترا». على الرغم من أن الدكتور براون كان قد مات، لكن اثنين من أبنائه -فكر ديتمالر- كانا يتدربان في لندن. «بالنسبة لأمي، أستطيع أن أتأكد بأنها تحصل على النقود بشكل منتظم، أو أنها تستطيع أن تأتي معي».

إراسموس في الخدمة
(52)

«فريتز، يا أعز إخوتي» قال إراسموس. «اسمح لي أن أكون في خدمتك. فحتى يتم اتخاذ القرار متى سيكون موعدي الأول، أنا لا شيء إلا حمل ثقيل على الأرض. دعني أرافق صوفي وماندليسلوه في طريق عودتهما إلى غريونينغن».

يجب أن يكون هذا في الحال قبل أن تحول طرقات الشتاء الرحلة الممكنة إلى رحلة مستحيلة. كانت ماندليسلوه قد فكرت تقريباً بكل ما هو ضروري. استأجرت عربة قريبة وتأكدت من أن سنابك أحصنتها خشنة في حال كان الطقس جليدياً وقامت بإرسال الأمتعة الثقيلة مسبقاً. زارت زوجة البروفيسور ستارك وقدمت لها هدية الوداع من سكاكين الهليون الفضية المقصبة. أعطت الخدم الإكرامية وكتبت رسالة مختصرة للطلاب، كما سمحت للسيدة وينكلر أن تنتحب لنصف ساعة على كتفها. كل ما كان على إراسموس أن يفعله، هو أن يقود العربة بوجه مدور وموكب متواضع وأن يكون دائماً جاهزاً عند كل توقف. عليه أن يسرع عندما يصبحون على بعد عشرة أميال من غريونينغن ليعطي إشعاراً بوصولهم. كان دافعه الحقيقي لفعل كل ذلك واحداً من أقوى الدوافع التي عرفتها الإنسانية، إنه الحاجة إلى تعذيب نفسه.

بدؤوا رحلتهم متأخرين في اليوم الأول، وقطعوا فقط عشرة أميال. عند وصولهم إلى ميلنغن أُخذت صوفي مباشرة إلى غرفتها. «لقد نامت» قالت مانديلسلوه عندما عاد إراسموس إلى ردهة النزل بعد أن تدبر أمر الأمتعة. لقد طلبت من ابنة أخت صاحب النزل أن تنتظر مع صوفي في غرفتها وأن تناديها إذا ما احتاجت لها. جلست بين الضوء والظلال التي خلفتها الشموع والموقد المتوهج الذي وضعت فوقه الأحذية لتجف، والأطباق لتبقى دافئة. انهمرت أشعة الضوء عبر الجهة اليسرى من وجهها الرضي فكسته بلون ذهبي فبدت لإراسموس امرأة أخرى غير مانديلسلوه.

«العشاء جاهز» قالت. فكر إراسموس بأنها تبدو كقديس محارب أو ملاك قوي من ميدان المعركة.

«كنت في المطبخ» قالت «خنزير مطبوخ، أقدام خراف، مربى الخوخ وحساء الخبز».

«أنا لا أستطيع أن آكل» قال إراسموس.

«تعال، فنحن من السكسون، ونستطيع أن نصنع عشاءً جيداً حتى لو كانت قلوبنا مكسورة».

تنهد إراسموس «إلى هذا الحد، على الأقل، لم تسبب لها الرحلة أي سوء».

«لا ولا أي سوء».

«لكن الألم..».

«أود أن أتحمله عنها لو أستطيع» قالت مانديلسلوه.

«الناس يقولون هذا عادة، ولكن بالكاد يعنون ما يقولون. أنا حقاً أعني ذلك. لكن مضى الوقت في التمني، وسوف نُحاسب بسبب كل ما أضعناه».

«لقد علمتك الأيام فلسفتك الخاصة».

أدهشه أنها ابتسمت وقالت «كم تظن عمري؟».

تعثر قليلاً «أنا لا أعرف.. أنا لم أفكر بذلك أبداً».

«أنا في الثانية والعشرين».

«ولكن أنا كذلك أيضاً» قال بفزع.

زيارة إلى المعلم كيغل
(53)

لم يكن هوشــر فون روكنثاين محبوبــاً تماماً في غريونينغن، لكن الكل افتقد ضحكه. تابع حياته بنفس طريقته كما كان دائماً، يمد يديه الكبيرتين ويعانق أصدقائه ويصفر للكلاب لتذهب إلى الصيــد. لكنه يفعل كل ذلــك الآن دون ضحك، وكأنما آلة ما قد انكسرت.

لــم يكن غريباً أن يذهب باتجاه المدينة لرؤية المعلم كيغل فقد كانــت هذه دائماً طريقته حيث كان قليل الصبر في انتظار قدوم من يســتدعيه إلى ســكلوس. ما لم يكن عادياً أن ترافقه زوجته التــي كانت حتى في هذه الفترة القلقة ســلبية، أو بكلمة ألطف مطمئنة كما كان حالها دائماً. اســتقلا العربة التي أُحضرت إلى الممر الأمامي المكســو بالجليد. اهتزت النوابض في جهة هوشر بعنف وهو يجلس في مقعده.

«هكذا تماماً كان الطقس عندما أحضر كويلســتين جوســت هاردنبرغ أول مرة إلى بيتنا».

«بل أعتقد أنها كانت تثلج» قالت السيدة روكنثاين.

عاش المعلم كيغل منذ أن تقاعد مع كتبه في بيت صغير بجانب المكتبــة العامة. هنأ روكنثاين على عــودة بنات زوجته من جينا.

كل مـــن في المنطقة اشـــتاق للآنســـة صوفي. عبر عـــن أمنياته الصادقة بأن تتحســـن صحتها بمشـــيئة الله، لكنه أضاف أنه لم يعد مهتماً بالذهاب إلى سكلوس غريونيننغن.

«كل التعليـــم الـــذي طلبت مني أن أمنحك إيـــاه في بيتك قد قدمتـــه. ليس هناك ما ألوم نفســـي عليه، لكـــن النتائج لم تكن مشجعة في المقابل. بالنسبة لابنتيك، لم أتولّ أمرهما حتى الآن، لكن من وجهة نظري فإن المسكينة الآنسة صوفي يجب ألا تحاول الدراسة الآن تحت أي اعتبار طالما هي مريضة، فما كان يصعب عليها عندما كانت بصحة جيدة أراه غير مناســـب الآن. ســـوف يبدو وكأنه تعليم إيمائي».

«في كل الأحوال هذا خاضع لرغبتها» قال روكنثاين.

«ما الذي ترغب في تكريس نفسها له؟».

«أنـــا أتوقـــع أنها تحب أن تتعلم شـــيئاً ما اســـتعراضياً» قال روكنثايـــن بلهفـــة «أو ربمـــا من الأفضـــل أن أقول شـــيء جدير بالملاحظة لتبهر به خطيبها».

«أنا لست الشخص الذي يمكن أن تطلب منه شيئاً استعراضياً»، قال ماجوســـتر وهو ينظر حوله إلـــى ممتلكاته المتواضعة، وربما يمكنني أن أنتهـــز الفرصة لأقول بأنني أعتقد أن فون هاردنبرغ كان دائماً مدللاً إلى حد مفرط في بيتكم».

«كل الشباب مدللون في بيتي» قال روكنثاين بشكل بائس. رأى أن كيغل على وشك أن يرفض بشكل قاطع أن يأتي.

الســـيدة روكنثاين التي لم تتكلم حتى الآن، لم تقل أي شـــيء ربما لأنها لم تكن تفكر بشـــيء أبداً. لكن كيغل نظر إليها بإمعان وهي تنهض من مقعدها، هز برأسه قليلاً وقال إنه إذا لم يسمع

ما يناقض هذا فسوف يأتي إلى سكلوس في الأربعاء القادم، «لكن أنا لا أريد أن أقاطع أي معالجة طبية».

«لا داعي للقلق بشأن هذا» قال له روكنثاين «صوفي الآن في رعاية لانغرمان الذي لم يصف لها سوى حليب الماعز».

كان الدكتور لانغرمان الذي تابع العلاج بعد الدكتور إبهارد طبيباً متمرساً وودوداً من الطراز القديم، وكان يتمتع بسمعة جيدة بين العائلات في غريونينغن. كان رأيه الخاص أنهم كانوا يسممون الآنسة صوفي في جينا وسوف يأتي الشفاء في الربيع عندما يصبح حليب الماعز في أحسن حالاته.

علم الجبر مثل الأفيون يخفف الألم
(54)

في ويســـنفلس كانوا يتحدثون عن مؤتمر الحيادية الذي كان قـــد عقد في المدينة، والـــذي أثار فزع التجار لأنـــه لم يكن في نهاية المطاف حول الكارثة البروسية أو حول موت عاهرة بابيلون الكبيرة في سانتبترسبرغ، أو حتى حول خطيبة هاردنبرغ.

لكـــن فريتز نفســـه لم يكن قد شـــاهد أصدقـــاءه القدامى، ولا البراخمانـــز، ولا حتـــى فريدريك ســـيفيرين. «أنت لا تتوقع منه أن يكوّن صحبة جيدة» قالت ســـيدوني. «يذهب إلى غرفته حال انتهائه من عمله المكتبي. يمكنك أن تقرع وتقرع الباب لكنه لا يجيب. لقد انسحب إلى مملكة العقل». رد سيفيرين بأن العقل له عدة ممالك. «فريتز يدرس الجبر» قالت سيدوني.

«إن علم الجبر مثل مســـتحضر الأفيـــون يخفف الألم» كتب فريتز. «لكن دراســـة الجبر أكدت لي أن الفلســـفة والرياضيات، تشـــبه الرياضيات والموســـيقى، تتحدث نفس اللغة. هذا بالطبع ليس كافياً فأنا سوف أرى طريقي حسب الوقت. الصبر، مفتاح التحول.

نحن نعتقـــد بأننا نعرف القوانين التي تحكـــم وجودنا. نحن نحصـــل على لمحـــات، ربما واحدة أو اثنتان فـــي حياة كاملة من

نظـــام مختلف كلياً يعمل خلفهم. في يوم ما عندما كنت أقرأ بين ريبـــاخ ولوتزن أحسســـت بحقيقة الخلود مثل لمســـة يد -عندما ذهبـــت لأول مرة إلى بيت جوســـت في تينســـتيد، بدا لي المنزل براقـــاً، على الرغم من غطـــاء الطاولة الأخضـــر، وبرغم وعاء الســـكر- عندما قابلـــت صوفي لأول مرة، كانت ربع ســـاعة من الوقت كفيلة باتخاذ قرار بشـــأني -راحيل وبختني، إراســـموس أنبني، لكن كانا مخطئين، كلاهما مخطئان- رأيت ولداً في فناء الكنيسة في ويســـنفلس يقف ويحني رأسه متأملاً فوق مساحة خضراء لم تحرث بعد. نظرة مواســـاة في وســـط الظلام. هذه كانت اللحظات المهمة بحق في حياتي حتى وإن انتهت غداً.

«كما هي الأشـــياء، نحن أعـــداء العالم، ونحن غرباء عن هذه الأرض. قدرتنـــا علـــى فهمهـــا عملية انفصال ومـــن خلال هذا الانفصال نفســـه أنا أحصل على حياتي مـــن يوم ليوم. أقول إن هذا شـــيء يدفع على العمل، أما ذاك فـــلا. أنا مفتش ملح، أي ملـــح صخري. أنـــا أذهب إلى أبعد من ذلك، أبعـــد كثيراً وأقول هذا اســـتيقاظ، ذاك يكون حلماً، هذا ينتمي إلى الجســـد، ذاك ينتمي إلى الروح، هذا ينتمي إلى الفضاء وذاك ينتمي إلى الوقت والبقاء. لكن الفضاء ينســـكب في الوقت كما الجسد في الروح، من هنا فإن الإنســـان لا يمكن أن يقـــاس من دون الآخر. أنا أود أن أستخدم نفسي لأستخرج نوعاً مختلفاً من المقاييس. أنا أحب صوفـــي أكثر لأنها مريضـــة. المرض والعجز بحـــد ذاتهما دعوة للحب. نحن لا نستطيع أن نشعر بالحب لأحد إذا لم يكن يحتاج مســـاعدتنا. لكن الأصحاء الذين عليهم أن يقفوا دون أن يفعلوا شيئاً أيضاً يحتاجون المساعدة، ربما حتى أكثر من المرضى».

درس المعلم كيغل
(55)

كانــت غرفة صوفــي مزدحمة والهواء ســميك مثل النبيذ. ارتفع الضجيج أيضاً مع أصوات الصغار يتبارون بأعلى النبرات بالإضافة إلى صوت جورج يقلد شــخصاً ما، ذات الصوت الذي كان يستخدمه للتقليد صوت صياحٍ وصخب قفص الطيور.

«أنا لا أســتطيع أن أدير درساً وســط كل هذا الشغب» أعلن المعلم بقوة بينما كان الخادم يريه الطريق.

«لطفاً أخرج الكلاب الخمسة على الأقل من الغرفة. أين هي زوجة الملازم مانديلسلوه؟».

«زوج أمي طلب منها أن تنزل وترتب الأشــياء في مكتبه» قال جورج.

«أوه جورج، أنا لم أرك منذ وقت طويل».

كانت صوفي متمددة بين الشالات على سرير نهاري صغير.

«أوه أيها المعلم العزيز، كان جورج يؤدي، كان يؤدي قليلاً..».

«كان يقلد شخصيتي».

جورج الذي كان قد ترك وحده كصبي ناضج في عطلة الميلاد بعيــداً عن أقرانه، انقلب وجهه إلى اللون القرمزي الآن، وقفص الطيور غرق في موجة من زقزقة حانقة.

«أقدم لك يا آنسة كل مواساتي على كل ما مررت به وما تزالين تمرين به» قال الرجل العجوز، وبعد ذلك استدار إلى الصغار، «ألا تفكرون أنتم بأختكم؟ ألا ترون الآن أنها تبدو مختلفة عما كانت عليه سابقاً؟».

«فكرنا كذلك في البداية» قالت ميمي «لكن الآن نحن لا نتذكر كيف كانت تبدو من قبل».

إنهم محظوظون، فكر كيغل.

«دعهم يبقوا، يجب أن يبقوا» صرخت صوفي «أوه، أنت لا تعرف كم كنا ضجرين في جينا. والآن وقد عدت إلى البيت..».

«أنت لا تتوقعين هاردنبرغ؟»، «نحن لا نعرف موعد مجيئه أو ذهابه» قال جورج. «هو واحد من العائلة ولا يحتاج لأن يعطينا إشعاراً بقدومه».

أشار المعلم إلى مربية الأطفال من أجل أن تأخذ ميمي ورودولف خارجاً. قام بنفسه بوضع واحد من الشالات على الطيور التي ما تزال هائجة تتمتم في أقفاصها. بعد ذلك جلس على كرسي عند مؤخرة السرير وأخرج كتاباً.

«آه يا معلم، كتابي التمهيدي القديم!» زعقت صوفي.

«لا هذا للتلاميذ الأكثر تقدماً. هذه مقاطع تخبرنا ماذا كتب الرومان القدماء أو بعض منهم عن موضوع الصداقة».

«لطف كبير منك أن تأتي..» تمكنت صوفي من أن تقول «لكن أود منك أن تعذرني.. أنا لا أتحمل أن أجرحك.. أنا لا أضحك الآن، أو تقريباً ليس كثيراً».

«مشاعري لا تهم بأدنى درجة، وإلا ما كان علي أن أكون معلماً».

كانت ماندليسلوه تقف بالباب «هل عرفت أنه لا يمكن لصوفي أن تضحك أو تبكي بأي حال من الأحوال، حتى يلتئم جرحها تماماً؟».

«أقسم إني لم أعرف هذا» صرخ جورج بحزن كبير.

«أنا متأكد من أنك لم تكن تعرف» قال المعلم.

«أنا حمقاء جداً» قالت صوفي فجأة «أنا لست ذات نفع أبداً في هذه الحياة».

أتى روكنثاين يتخبط وراء ماندليسلوه «أنا أتيت لأحضر الدرس»، تكلم من فوق كتفها، مكيفاً صوته بما يتناسب حسب اعتقاده مع غرفة للمرضى «أتمنى أن أستفيد منه».

«كل من يصغي سوف يستفيد» قال كيغل «لكن نصف ساعة ستكون كافية بالنسبة للآنسة صوفي».

«هذا ما كنت قد قلته لهم» قال روكنثاين.

«عمن تتحدث؟».

عنهم كلهم. بدا أنه يتحدث عن كل من استطاع أن يراه في طريقه، ميمي وورودي مرة ثانية مع المربية، الأجير الشاب، فتاتان يتيمتان حصلتا على عمل لأسباب خيرية في غرفة الملابس الكتانية ولا أحد يعرف اسميهما والولد الذي يحضر حليب الماعز والذي لا يأتي إلى البيت في الظروف العادية.

«أنا نفسي لست متأكداً مما قاله سيسيرو عن الصداقة».

مدت صوفي ذراعيها لهم كلهم. في كل هذه الجلبة كان من الصعب أن يُسمع صوت ضحكها أو سعالها. الكلاب الصغيرة بآذانها المتهدلة تدافعت نحو السرير لتلعق وجهها.

أغلق المعلم كيغل كتابه وهو يفكر «هؤلاء الناس ولدوا فقط من أجل المتعة».

في بداية مارس (آذار) 1797، حصل فريتز على عشــرة أيام إجازة رسمية قضاها في غريونينغن. سأل صوفي:

«فلسفتي الحبيبة، هل تنامين جيداً؟».

«أوه نعم إنهم يعطونني شيئاً ما».

«الليل قوة الظلام».

«أوه أنا لا أخاف الليل».

في مســـاء العاشر من مارس (آذار) قال لماندیلسلوه «هل علي البقاء هنا».

«عليك أن تقرر ذلك بنفسك».

«هل أستطيع أن أراها؟».

«لا ليس الآن».

«لكن لاحقاً؟».

قالت مانديلســـلوه التي يبدو أنها وصلت إلى ما يشبه القرار: «في هذه اللحظة ليس هناك أي التئام. لقد قيل لنا البارحة بأن نترك الجرح مفتوحاً».

«كيف؟».

«بخيط حريري».

«وإلى متى؟».

«لا أدري إلى متى».

سأل مرة ثانية: «هل يتوجب علي أن أبقى هنا؟» في هذه المرة لــم يحصل على جواب وصرخ بصوت عال «يا إلهي العزيز، لماذا يجب أن يكون هناك متجبر مثله؟!».

«أنت لن تنظر إلى الجرح» قالت مانديلسلوه، «لكني لن ألومك في ذلك».

«لا أريد أن أسمع شيئاً عن هذا. هل علي أن أذهب أم أبقى؟».

«كنا قد تكلمنا عن الشجاعة من قبل» ذكرته مانديلسلوه.

«نحن اتفقنا بأنها لا يمكن أن تقاس بالمطلق» قال فريتز. «لقد كان برنارد شجاعاً عندما ركض هرباً منا باتجاه النهر. أمي بطريقتها كانت شجاعة عندما قابلتني في الحديقة..».

«أية حديقة؟».

«كان كارل تحت النار مع فوجه في مينز. وأنت أيضاً كنت حاضرة في العمليات الثلاث.. وصوفي..».

«هذه ليست منافسة» قالت مانديلسلوه «بكل الأحوال لن يكون مفيداً أن ننظر إلى الوراء. ماذا تستطيع أن تفعل لها؟ هذا هو كل ما يجب أن تسأل نفسك عنه في هذا البيت».

«لو سمحوا لي برعايتها فسأفعل، حتى وإن كنت لا تصدقينني» قال فريتز «نعم، عن ذلك أنا أعرف القليل».

«إن بقيت هنا فأنت لن تكون مطلوباً كممرض» قالت مانديلسلوه «أنت سنحتاج لك ككاذب».

رفع فريتز رأسه الثقيل.

«ماذا علي إذن أن أقول؟».

«فليساعدنا الرب، بين يوم وآخر يتوجب عليك أن تقول لها: أنت تبدين أفضل قليلاً هذا الصباح يا صوفي. نعم أعتقد أفضل بقليل. قريباً سوف تكونين قادرة على الخروج إلى الحديقة. لا نحتاج سوى إلى طقس أكثر دفئاً».

قالت هذه الكلمات كممثلة تؤدي بروفة للمرة الأولى دون عواطف. نظر إليها فريتز برعب.

«وإذا لم يكن بإمكاني أن أقول ذلك، هل سأبدو لك جباناً؟».

«فكرتي عن الجبن بسيطة جداً» قالت مانديلسلوه.

بعد لحظة صرخ فريتز عالياً «أنا لا أستطيع أن أكذب عليها أكثر مما أكذب على نفسي».

«أنا لا أعرف إلى أي حد يمكن لشاعر أن يكذب على نفسه».

«إنها ملهمة روحي، هي تعرف هذا».

لم تجب مانديلسلوه.

«هل أبقى؟» ما زالت لا تجيب. غادر فريتز الغرفة فجأة. أين سيذهب؟ تساءلت مانديلسلوه. هذا أمر أكثر سهولة بالنسبة لرجل. لو كان لدى امرأة ما لا تستطيع اتخاذ قرار بشأنه فأين يمكن لها أن تذهب لتكون وحيدة؟

أحست صوفي بخيبة الأمل عندما سمعت أن هاردنبرغ قد عاد إلى ويسنفلس، لكن ليس إلى حد بعيد.

في كثير من الأحيان كان عليه أن يغادر في وقت لم تكن فيه بصحة جيدة لتراه. لو كانت مستيقظة لكانت قد أصغت إلى صوت جواده وهو يُجلب من فناء الإسطبل إلى أمام المنزل، رغم أنه لم يعد يركب جواده غول، الذي كانت دائماً قادرة على تمييز خطواته. في بعض الأحيان كان يمكن أن يترجل ويركض عائداً عبر الصالة صاعداً الدرجتين إلى غرفتها ليقول لها مرة ثانية: «صوفي أنت قلبي».

في هذا المساء لم تكن الحال كذلك، وهو لم يعد ثانية.

ثلاث ساعات وثلاثة أرباع إلى ويسنفلس مع استراحة في فريبيرغ. خارج ويسنفلس كانت أكوام محاصيل الخضار ملقاة مكشوفة ماعدا الملفوف الشتوي في ضوء القمر. كانت بوابات المدينة قد أغلقت. دفع فريتز الغرامة التي تُجمع من المتأخرين

بالوصول واتجه ممتطياً جواده ببطء إلى بيت والده.

كان الأســبوع الأول من الصيام الكبير ولم يكن إلا القليل من الأضواء تشـع من نوافذ كلوستر غاس. في البيت كان أبوه وأمه قد ذهبا للنوم. إراســموس هو الوحيد مــن العائلة الذي مازال صاحياً.

«لم أستطع أن أبقى..» قال له فريتز.

«أخي الحبيب..».

(خاتمة)
على الأثر

ماتت صوفي عند الساعة العاشرة والنصف صباحاً في التاسع عشر من مارس (آذار)، بعد يومين من عيد ميلادها الخامس عشر. تلقى فريتز الأخبار في ويسنفلس بعد ذلك بيومين. كذلك تلقت كارولين جوست رسالة من إحدى شقيقات صوفي الأكبر التي وصفت فيها كيف كانت الفتاة المسكينة في خيالها الجامح تسمع أصوات حوافر أحصنة.

لم يصبح فريتز كاتباً معروفاً إلا بعد موت صوفي. في فبراير (شباط) 1798، قال لرفاقه إنه في المستقبل سوف يكتب تحت اسم عائلة قديمة، نوفاليس، الذي يعني «أوضح في الأرض الجديدة». تحت اسم نوفاليس نشر ترانيم لهذه الليلة وعمل على عدد من المشاريع، بعضها انتهى والبعض الآخر ترك في شذرات. قصة الوردة الزرقاء تدعى الآن هاينريش فون أوفتردينغن ولم تكتمل أبداً.

في ديسمبر (كانون الأول) 1798، ارتبط فريتز بجولي ابنة المستشار جوهان فريدريش فون شاربينيير، بروفسور الرياضيات في أكاديمية التعدين في فريبيرغ. كانت تبلغ من العمر الثانية والعشرين. كان في هذه الأثناء يعمل بشكل جيد في مديرية

مناجـــم الملح، وكان قد عين كقاض بلا أجر في منطقة ثورينجيا. كتب إلى فريدريك شليغل أنه يرى حياة ممتعة جداً تنتظره. لكنه أضاف: «أفضل أن أموت».

في نهاية 1790، بدأ بدورهم أبناء عائلة هاردنبرغ يتلاشون، من دون احتجاج تقريباً بســبب الســل الرئوي. إراسموس الذي أصر أنه سعل دماً فقط لأنه ضحك كثيراً، مات في يوم الجمعة العظيمة في العام 1797. عاشــت ســيدوني حتى عمر الثانية والعشـــرين. في بداية عام 1801 عاد فريتز الذي ظهرت عنده نفس الأعراض إلى بيت أهله في ويســنفلس. بينما كان متمدداً يحتضــر ســأل كارل أن يعزف له علــى البيانــو. عندما وصل فريدريك شــليغل قال له فريتز إنه غير خطته كلياً بشــأن قصة الوردة الزرقاء.

غرق برنارد في نهر الســال في الثامن والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) من العام 1800.

قُتل الملازم أول جورج في معركة سمولينسك في العام 1812.

بعد موت فريتز بســنة تزوجت كارولين جوست من ابن عمها كارل جوست.

تطلقت مانديلسلوه من زوجها في العام 1800، وتزوجت من الجنرال فون بوس وعاشت إلى عمر الخامسة والسبعين.

يوجــد خاتم فريتز الذهبي مع النقــش «صوفي كوني روحي الحارسة» في متحف مونيسيبال في ويسنفلس.

المترجم في سطور

د. علي محمد سليمان

- مواليد دمشق 1970
- دكتوراه في الدراسات المسرحية من جامعة أوكسفورد البريطانية عام 2005.
- أستاذ زائر في جامعة أوكسفورد البريطانية.
- أستاذ المسرح في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق.
- أكاديمي وباحث سوري له العديد من البحوث والمقالات والترجمات المنشورة في دوريات وصحف عربية وأجنبية في مجال المسرح والأدب العالمي.
- له كتاب بعنوان «ظل الوردة: دراسة في مسرح جورج شحادة».
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية وألقى محاضرات في جامعات بسورية وبريطانيا.

المراجع في سطور

الدكتور علي العنزي

- أستاذ مساعد بقسم النقد والأدب المسرحي في المعهد العالي للفنون المسرحية.
- الرئيس السابق لقسم النقد والأدب المسرحي في المعهد العالي للفنون المسرحية.

المؤهلات

1 - بكالوريوس في النقد والأدب المسرحي من المعهد العالي للفنون المسرحية، في العام 1998/1997.

2 - معيد بقسم النقد والأدب المسرحي في العام 1998.

3 - ماجستير في النقد والأدب المسرحي في العام 2001 من المملكة المتحدة، جامعة ليدز University Of Leeds.

4 - دكتوراه في العام 2006 في المسرح السياسي من المملكة المتحدة، جامعة شيفيلد The University Of Sheffield.

الإنتاج العلمي

- دراسات وأبحاث منشورة بمجلات علمية محكمة، وعضوية العديد من لجان التحكيم.
- مُحكم أبحاث النقد المسرحي لعدد من المجلات العلمية.
- له العديد من المحاضرات والندوات وورش العمل.
- صدر له مؤخرا دراسة نادرة في الوطن العربي حول مسرح الكارثة Theatre of Catastrophe.
- ترجمته لمسرحية The Possibilities للكاتب الإنجليزي هاوارد باركر.

النشاط الثقافي

- كاتب مقال أسبوعي في الصفحة الثقافية في جريدة «الراي» الكويتية.
- عمل لأكثر من 15 عاما في الصحافة الكويتية.

ما صدر من هذه السلسلة

الرقم	العنوان	المؤلف
314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. اليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيفو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب

الوردة الزرقاء

تستعيد رواية الوردة الزرقاء رموز الرومانسية من الذاكرة والتاريخ، وتمنحها وجوداً يضيء حلم الإنسان وينسج من توقه السرمدي إلى المعرفة والحب فضاء رحباً تتجسد فيه بحِرَفيةٍ روائيةٍ عاليةٍ مغامرةُ شخصياتٍ تواجه أقدارها في عالم تحكمه التناقضات بين سمو المثل العليا وقسوة الواقع. تتحول الوردة الزرقاء من رمز يبتكره بطل الرواية الشاعر الرومانسي والفيلسوف الألماني نوفاليس للتعبير عن تجربته في السعي إلى الجمال والمطلق إلى دلالة تلتقي عندها حيوات ومصائر شخصيات الرواية. تتجاوز هذه الشخصيات مرجعياتها التاريخية والجغرافية لتكون ذوات قادرة على تخطي حدود الزمان والمكان لتلامس بحرارة وشفافية هموم الإنسان المعاصر.

الوردة الزرقاء حلم الإنسان الذي لا يتحقق، أشواقه التي لا تجد ضفافاً ترسو عندها، والجمال الغامض الذي لا يمكن إدراكه. إنها في هذه الرواية حكاية البطل التي لا تكتمل